

عناق عند جسر بروكلين

رواية

عز الدين شكري فشير

www.mlazna.com

^ RAYAHEEN ^



www.mlazna.com-RAYAHEEN

عناق عند جسر بروكلين

سألتني يماريك: فيم كنت الفكر حين عرضت عليها اللقاء؟ كيف
سألتها؟ كيف سألتها إليها، وكيف تتقابل؟ هل أحتضنها أم
نسلم باليد كالغريباء، أم نقبل بعضنا على الخد كالأصدقاء؟
وماذا سنقول لبعض؟ سنحدث عن أسباب تواجدها في نيويورك،
سأفصح عنها كيف وجدت منحة بإحدى المستشفيات هنا لمدة
عام أوشك على الانتهاء، وسنقول في ما أتى بها، سنسألني عن
أخباري في مصر، وأخبار سلمي، وسألتها عن تطورات حياتها
منذ رسالتها الأخيرة في العام الماضي؛ هل انتقلت لاستخدام
مثلاً كانت تخطط، أم ظلت في لندن مثلاً كانت تريد، ومصير
بيتها الصغير، ثم نصمت، ونرتشف شيئاً من شرايتنا، ربما
يقاطعنا القادل بسؤال، ثم نساأل الضمت، هل ستسألني عن
حياتي العاطفية؟ هل سألتها عن هذا اليوناني الذي ذكرته في
رسالتها؟ لا، لا أريد أن أسمع شيئاً عن يونانيها أو عن غيره، هل
سننترق للموضوع المعقد؟ هل سنحدث عنا، عما جرى؟ لم تنق
وجهها لوجه منذ كنا غارقين في الحب، منذ انقلبت على أن تأتي في
عيد الميلاد، وتكلم معي حتى نرتب أمورنا.



4 224601 220037



عناق عند جسر بروكلين

رواية

عز الدين شكري فشير

دار العين للنشر

عناق عند جسر بروكلين

(رواية)

عز الدين شكري فشير

الطبعة الأولى / ٢٠٢٢ م - ١٤٤٤ هـ

حقوق الطبع محفوظة



دار العين للنشر

٢٧ كورنيش النيل - روض الفرج - القاهرة

الهاتف: ٢٦٨٤٠٣٠ - الفاكس: ٢٦٨٤٠٣٠

WWW.daralainpublishing.com

الهيئة الاستشارية لدار

أ. د. أحمد شوقي

أ. د. هاشم فهمي

أ. د. صلاح الله الشيخ

أ. د. فهد بركات

أ. د. مصطفى إبراهيم فهمي

المدير العام

د. فاطمة الهادي

التلف: ١ - صر القناري

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٢٠١/ ٢٢٠

L.S.B.N 978 - 977 - 490 - 137 - 0



بطاقة فهرسة

فهرسة أكتاف النشر إعداد إدارة الفنون الشعبية

فشير، عز الدين شكري

عناق عند بصير ثروكاين؛ رواية/ عز الدين شكري فشير.

الإسكندرية: دار العين للنشر، ٢٠١١

ص: اسم.

تسلسل: ٩٧٨ ٩٧٧ ٤٩٠ ١١٧ -

١- قصص العربية

١- عنوان

٨١٣

رقم التسجيل / ٢٠١١ / ٩٩٩٩

إلى أسماء

1

کتاب درویش

کُلّ هذه السنوات مع مقعده الأثو، ولا يجد بعد جلسة تريحه. عيناه
تؤلمانه. صفحات الكتاب تتماوج، وتداخل كلماتها. قُرب درویش
الساعة من عينه، وضعتها كي يرى: "الخامسة... أمامي ثلاث ساعات
حتى يصل المدعوون". يوسف يصل في الساعة. ذكره أن يأخذ الثرو،
فالتقى مزدحمه، ولو أتى بتاكسي كمادته سيتأخر. هذا على يوسف أنه
تضايق من الملاحظة، لم يفهم لم تضايق ابنه، فهو يحتاج وجوده بالبيت
قبل المدعوين بساعة على الأقل. كان من المفروض أن يأتي في الصباح
لمساعدة كيتي في الإعداد لعيد الميلاد، والإشراف على ما تقعله، ثم اتصل
بالأمس، وقال إنه يريد أن يرى بعض زملائه القدامى بنيويورك، ومن

ثم سيتابع التحضرات مع كيتي بالتليفون وبأني في الساعة. يتابع معها بالتليفون! هذا لو تذكر أن يسخن تليفونه! لا ضرر إذن في تذكره بأن يأتي بالثرو فهو يحتاج أن يراه قبل وصول المدعوين. باقي ثلاث ساعات على وصول المدعوين، ويبدو أن كيتي تقوم بعمل طيب. مر عليها بالدور الأرضي منذ ساعة، وتأكد من سيطرتها على الأوضاع. خرجت بعدها لشراء بعض الألبان. باقي ثلاث ساعات، وهو وقت لا يكفي للقيام بعمل ذي قيمة، كالكتابة. حاول تمضية الوقت في القراءة، لكن عينيه تؤلمانه. شعر بالحسرة على ضياع هذه الساعات هباء في حين لن يجد الوقت بعد ذلك لإنهاء ما يجب عليه فعله. لم لم يخترع أحد أداة لتحصيل الوقت الزائد - مثل هذه الساعات الثلاثة - ثم تنزيلهم بعد ذلك حين يحتاج المرء الوقت ولا يجد؟

سيصل المدعوون البيت في الثامنة، ولن ينصرفوا قبل الحادية عشرة والنصف. الكثير للسخرية في الأمر كله أن سلمى، ضيقة الشرف، لن تأتي! تأخرت هي الأخرى، ثم أخطأت القطار وفوتته، والآن ستأتي في منتصف الليل بعد انصراف الجميع. أي أبناء هؤلاء؟ يسأل نفسه، للمرة الألف، أين أخطأ في تربيتهم. أم أنها الجينات؟ ولم يهتم لهذه الدرجة؟ لم يهتم لهذه الدرجة؟ إن كانت هذه طبيعتهم فلم لا يتركهم في حالهم؟ لماذا لا يتركهم يصبحون ما يريدون؟ قومًا يتأخرون على مواعيدهم، تقوهم القطارات، ويمشون في القروض؟ لم لا يتركهم في سعادة الجهل وراحة الفضل؟ لن يمكث يوسف طويلاً - سيغادر في الصباح، فلا داعي للتأكيد عليه بمسألة التأخير. دع الأمور تمر بسلا، ونفس الشيء بالنسبة لسلمى. هذه أيامها

الأخيرة بنيويورك ولن تراها ثانية، فدعها تحفظ بذكرى طيبة. قال لنفسه هذا، وعزم. والآن ماذا يفعل بهذه الساعات الثلاث؟ عليه إنهاء مشروع الكتاب وتسليمه قبل نهاية الأسبوع، وهو مازال بحاجة لبعض التفكير، وكثير من الكتابة، ولكن عليه أيضاً فرز كتبه قبل أن يأتي المحتالون. ففي نهاية الشهر، أي في أقل من أسبوعين، يجب أن يخلي البيت.

وضع الكتاب جانباً، وقرر التوقف عن محاولة القراءة. خلع النظارة ووضعها على المنضدة. طلب منه الطبيب عدم معاندة عينيه، فالألم إشارة للتوقف. عاد للتفكير. لماذا لم تأت سلمى في قطار الصباح؟ تلك الحمقاء الصغيرة؟ تعرف أنه رتب هذه الحفلة من أجلها. سيصل المدعوون في الثامنة، وسيترك السلام والسؤال وغيره نصف ساعة. ثم تضع كيتي الطعام في الثامنة والنصف، وهو موعد متأخر بالنسبة لأعيانه المتصلة. عادةً يكفي بعض الزبادي، لكن ليس من اللطيف ألا يتعشى مع ضيوفه. طبعاً لا، سيأكل معهم، ثم يبقى مستيقظاً حتى الواحدة صباحاً كي يهضم الطعام. ويعني هذا أنه لن ينام ما يكفي من النوم إلا لو نام حتى التاسعة صباحاً، وهو الأمر المستحيل، فقلبه موعد في الثامنة والنصف مع اللحام. شعر بالحق على نفسه: لم توظف في هذه الدعوة أصلاً! ألم يكن من الممكن أن يدعوهم لغداً في نهاية الأسبوع بدلاً من ذلك؟ لكن كيتي لم تكن متاحة خلال نهاية الأسبوع، كما أن الحمقاء الصغيرة أرادت زيارة واشنطن قبل عودتها لمصر. لا بأس، حدث ما حدث! وسيستيقظ في الساعة، ويقضي اليوم ناقص نوم ومتوتراً. لا يوجد حل آخر.

لن يستطيع القراءة أو الكتابة أو فعل أي شيء ذي معنى خلال هذه

الساعات الثلاث. خطر يباله أن يفرز المكتبة القديمة. يمكنه قضاء هذه الساعات في فرز الكتب حتى يظهر يوسف، ثم يجلس معه قليلاً، ويستمتع لأخباره حتى يأتي الضيوف. سبفرز المكتبة القديمة. لو كان الأمر بيده لأخذ كل كُتبه إلى الشاليه الذي سيتقل إليه، لكنه أصغر من أن يستوعبها. يعرف أنه لن يحتاج أباً منها؛ لكنها كتبه القديمة، ولها في قلبه معزة خاصة. اتفق مع المكتب العقاري على إضافة عدد من الأرفف لجدران الشاليه، ولكن حتى مع الإضافات فلن يتسع الشاليه لكل كتبه هذه الكتب.

حسبوا له المساحة وعدد كتبه بالضغط، وأغروه بضرورة التخلص من ثلاثة آلاف كتاب. فرز كتبه الجامعية الأسبوع الماضي؛ جمع منها ألفاً، ومنعها لاتحاد الطلبة؛ ليملأوا بها رفوف صالون الدراسات العليا. لن يقرؤوا أبداً منها، لكن وضع بعض الكتب بالصالون أفضل من ترك الرفوف فارغة، أو ملئها بأوراق التصوير التي يخلطها الطلبة. عليه التخلص من ألفي كتاب آخرين هذا الأسبوع. لا يستطيع منح أبداً منها للجامعة، أو لاتحاد الطلاب، أو لأي جهة في الولايات المتحدة كلها، فمعلمها كتب بالعربية، وقيمتها العلمية عديدة - لهذا وضعها في أكثر أماكن المكتبة خصوصية. هذه هي الكتب التي اشتراها وهو شاب، بعضها مقدمات ساذجة في المسرح والرسم والنحت لكتاب مجهولين نقلوها عن كتب أجنبية، وطبعها دور النشر التي كانت تملكها الدولة في الستينات، وبعضها كتب عامة في نقد المجتمع كتبها صحفيون لا فهم لديهم لا النقد ولا بالمجتمعات، وبعضها مجموعات من القصائد لشعراء اندثروا، وربما

لم يكن لهم جمهور أصلاً. اشترى معظم هذه الكتب وهو في المدرسة الثانوية وأولى سنوات الجامعة. هناك كتب أخرى اشتراها أثناء إعداد رسالة الدكتوراة وبداية عهده بالتدريس، أيام جامعة القاهرة. لكن قيمة كل هذه الكتب تتعلق بدورها في حياته هو، وهو أمر لا يهم أحداً غيره. استغرب كل من يوسف وليلي قراره بيع البيت. سألته يوسف عن سر هذا القرار المفاجيء. رد - حاولا تقادي السؤال - إنها هدية لنفسه في عيد ميلاده السبعين. لكن يوسف تجاوز هذه الإجابة التي ليست بإجابة، وسأله عما إذا كان يهتد الانتقال لبيت للستين. فضحك نصف ضحكة، وقال له: "على جشك" ثم غيّر الموضوع. اتصل بليلي في مصر كي يخبرها، فسألته بحدثة إن كان يحتاج للمال. تقادي سؤالها، فهو لا يريد مناقشات تنفص عليه. قال إن مل من البيت. احتجت بأن هذا البيت هو المكان الوحيد الذي لهم به ذكريات مشتركة، فرد مرة أخرى إنه مل من البيت، ثم أدرك أنه يكرز مقالته، فأضاف أن الذكريات سترحل معهم أينما ذهبوا. لم تبد ليلي تعاطفاً ولو زائفاً، بل قالت بضيق إنها لا تحب ذلك القرار، وكانت تفضل لو ترك البيت على حاله، فسألها بحدثة عما كانت ستفعل ببيت الذكريات هذا، وما إذا كانت تنوي أن تعيش فيه يوماً - هي التي لم تأت لزيارته منذ ستين.

ردت ليلي بشيء، وردة عليها بشيء آخر، وتوجهت المناقشة نحو مصرها المحتوم: عدم تفاهم وغضب مكتوم من الجانبيين. غيّر الموضوع، وغيرت الموضوع وأنها المكالمات تحدثت عن لقاء قريب لا يعلم أينما متى سيتم ولا أين. يوسف، بعد أن سأل عدة أسئلة ولم يتلق إجابة واضحة من

أبيه، قرر أن يأتي لزيارة أخيرة للبيت، وأيضاً ليرى سلمى ابنة أخته. "الآن تذكر أنها في نيويورك، بعد ثلاثة أسابيع من وصولها!" رحب درويش بالفكرة، لكن دون حماس حقيقي، فهو لا يعرف ماذا يفعل بابه حين يأتي. يولد يوسف بالصمت معظم الوقت، وبيرة بالقتضاب على أسئلته المتلاحقة حتى يستسلم الأب ويكف. ثم يحل الصمت بينهما. يقضي يوسف بقية الوقت في التفتل بين أرجاء المنزل الواسع، يشاهد التلفزيون أحياناً أو يعمل على كمبيوتره، حتى يحين موعد رحيله. كان يفعل هذا وهو في الثالثة من عمره - حين انفصل عن أمه - ولا يزال يفعل هذا بعد مرور أربعين عاماً على ذلك. سأل يوسف إن كان يريد شيئاً من ممتلكاته، فطلب أن يأتيه بعض البيجمل؛ لم يعرف ماذا يمكن أن يطلب منه غير ذلك.

حاول إعطائه كتبه القديمة. قال له في التلفزيون إن لديه ألفين من الكتب التراثية، وسأله عرضاً إن كان يريد. ضحك يوسف وشكره، ثم أبدى استعداده لتخزينها في بدموم منزله. وقف درويش يتأمل رفوف المكتبة القديمة. أول مرة ينظر لهذه الكتب منذ سنوات. مرَّ بجوارها مئات المرات ينظر إليها ولا يراها. صعب عليه أن ينظر لهذه الكتب ويغتر التخليص منها، كأنه يلقي بأجزاء من نفسه. هذه هي الكتب التي ساهمت في تشكيله، في جعله من هو، أو بالأدق من كان وهو في ثلاثيناته، قبل أن يأتي للولايات المتحدة. تساءل فجأة إن كان قد تغير بعد ذلك؟ يعرف أنه تغير، لكنه يتساءل إن كان قد رجع نفسه بعد هذه المرحلة من حياته، أم أنه قلب الصفحة دون مراجعة لما تغير فيه، ومضى قدماً مثلما وضع

الكتب في مكتبة عتيقة لا يراها حتى حين تقع عليها عيناه؟

وأصل فرز الكتب وهو يفكر؛ لماذا لم يشرح لأبنائه سبب بيعه للبيت؟ لماذا لم يقل لهم إنه يرب أموره قبل الرحيل الأخير؟ "سرطان متقدم بالمرحلة"، هذا مقالته فريق الأطباء. حين رفض العلاج الكيميائي أخيره الدكتور بصراحة أنه لن يعيش طويلاً بدون، ربما عائلاً أو اثنين. رد عليه بأن عامين بدون علاج كيميائي خير من خمسة به. يؤم الطبيب من عناده، وأوضح له أن نمط حياته الحالي لن يجعله يصد عامين دون علاج كيميائي. قال إنه مستعد لتغيير نمط حياته، لكنه لن يقبل بالعلاج الكيميائي. شرح له طبيبُه أن ذلك يعني اعتزال التدريس، والتوقف عن قراءة الصحف ومتابعة الأخبار، والانتقال للعيش في شمال الولاية حيث الهواء والماء والطعام أفضل وأكثر صحية. لن يتوقف السرطان عن الاستشرار، لكن سرعة تغلغله في الرئتين ستقل. لم يأخذ الأمر من درويش كثير تفكير، فطيلة عمره وهو يحلم بالسكن في منزل صغير متزلزل في الغابة، حيث الهواء النقي والخضرة والماء، والأهم من ذلك حيث يمكنه الاعتزال عن البشر. وافق من حيث المبدأ، وبعد أسبوع اتصل به المكتب العقاري وأخبره أنه وجد ما يناسبه؛ شاليه يطل على بحيرة متوسطة الحجم في المنطقة الجبلية الواقعة في شمال شرق ولاية نيويورك والمناخية لولاية فيرمونت، ليس بعيداً عن مدينة سيراكوز التي تضم مستشفى متقدمة يمكنه متابعة حالته بها. ذهب في زيارة سريعة للمكان. هناك، وجد أن الشاليه يطل مباشرة على البحيرة، وتحيطه أشجار باسقة وخضرة كثيفة من الجاثرين بحيث لا يبدو منه أي بناء آخر على مدى البصر. اتخذ قراره وهو واقف أمام الشاليه ينظر لسطح البحيرة.

بالملك، وظل يكتسب الانتماء التي تحاول احتلال وجهه حتى انصرف من عندهم. أراد له القدر أن يتصر حتى النهاية، حتى على الموت. من المفروض أن يأتيك الموت بتهنئة، لكنه الآن يعلم بمقدمه. تظاهر بالعبوس لأن هذا هو ما يجب فعله في تلك المواقف. لكنه شعر بخفة لم يمهدها، كأن عينا ثقيلاً حل من على كتفه.

يلزمك أن رحيله لن يكون له أثر يذكر. سيموت مثل من ماتوا، سيذكره من يحبونه يوم، وسيذكره الآخرون مثلما تشاء لهم أهواؤهم. لا يعنيه من ذلك شيئاً. سيموت مثل كل البشر، ليس في هذا ما يفاجئه. درويش في السجون، ويرى أنها نعمة أن يعرف كم تبقى له من الوقت. فهي فرصة لترتيب أموره الأخيرة بيده، وكذلك لفعل ما نسيه أو تكاسل عنه. من الآن فصاعداً لن يفعل شيئاً لا يحبه، لن يعامل أحداً، ولن يتحمل أحداً، ولن يقضي وقتاً مع أناس لا يحبها، ولن يلجأ لحلول وسط أو يخطط لمستقبل بعيد. لم يعد هناك مستقبل بعيد. وسيقوم بكل الأمور التي أحبها: الحياة في منزل منعزل على بحيرة في غابة أو جبل، قراءة الكتب التي لم يتح له الوقت لقراءتها، وكتابة الكتاب الذي أراد دوماً كتابته عن مستقبل العرب. عاش حياته يدرس تاريخ العرب ويحلم بالكتابة عن مستقبلهم ولا يفعل تحسباً. لم يعد هناك داع للتحسب. وهاهو يعمل على مشروع الكتاب، وسيلتقي بالناشر في أول الأسبوع القادم للاتفاق معه على التفاصيل، ثم يبدأ الكتابة حين يستقر بالشالية.

اتصل بليلي في القاهرة، وأرغمها على إرسال سلمى لقضاء شهر معه. حاول في البداية دفعها هي للمجي، لزيارته لكنها رفضت بشدة،

كان التوقيت سيئاً، فالفصل الدراسي على وشك البدء، ومن غير اللائق أن يترك التدريس فجأة هكذا، لكنه فعل. فوجيء رئيس القسم - الذي كان تلميذ درويش منذ خمسة وعشرين عاماً - بقراره، فلم يكن في سلوك أستاذه القديم ما يوحى بنيتي التقاعد. بل على العكس، كان منهمكاً في مشروعات تطوير القسم، ويقود فريق البحث الذي قاده عبر سنوات طويلة بنفس التصميم. لم يشرح السبب في رحيله مكثياً بالتصميم عوضاً عن التفسير. حاول رئيس القسم إنشاء لكن درويش لم يترك له مساحة للتفاوض. وهكذا، في خلال أيام معدودة، بعد ثلاث أو أربع مناقشات مع مستولي الجامعة العريق، أنهى الدكتور "درويش بشر" مسيرة نصف قرن من الحياة الأكاديمية المتميزة. في الأسابيع التالية صفى بقية ارتباطاته في نيويورك، وباع المنزل، وبدأ يخطط لحياته الجديدة التي أوصاه الأطباء بأن تكون أبسط وأقل تعقيداً.

لماذا لم يقل أي من هذا ليوسف أو ليلي؟ لماذا لم يقل هذا لزميله وتلميذه القديم؟ لماذا لم يقل هذا لأي من معارفه؟ لم يقل لأحد لأنه لا يريد دراما. يكره الدراما، ويكره أكثر تحمیل الضحية عبء التعاطف مع مصابه. ماذا يعني أن يقف أمامك شخص ما ليبدى الأسف على مصيرك؟ بم فليدك هذا؟ وما للمفروض أن تفعله أنت صاحب المأساة: أن تخفف عنه أسفه؟ لا، شكرًا، لا يريد أيًا من هذا. لا يريد عرضاً لمواطف الناس الذين يعرفونه، صادقة كانت أو ملتبسة. لا يريد إفساد أيامه الأخيرة؛ نصحه الأطباء بتفادي ما يضايقه، وهذا التعاطف يضايقه. الحقيقة أنه لا يرى كارثة في دنو أجله بل على العكس، شعر براحة عندما أخبره الأطباء

مثلما رفضت طيلة الأعوام الماضية. فشل في إقناعها بالمجيء، لكنه نجح في إقناعها على إرسال سلمي. جاء بالبت كي يراها مرة أخرى قبل موته، وكي يخرجها من القمقم الذي غمسها فيه أنها الممتوحة، يتيح الفرصة لها لتري الحياة بعيداً عن الأخطال التي تُقيّد العقل والروح في مصر. من يدري، ربما يخرجها الأمر باستكمال دراستها والاستقرار هنا فيما بعد، والنجاح من المستقبل اليائس الذي تعدّه لها أمها. وعندما قال يوسف أنه آت للزيارة قرر ترتيب حفلة عيد لليلاد هذه، ودعى بعض الأصدقاء والمقربين. قرر دعوة كل من بحث له بصلة في أمرها، كي يروا سلمي، وكي يراهم مرة أخرى قبل موته ويرتب معهم بعض الأمور العملية. يريد أن يمنح مالا لبعضهم، وأن يساعد بعضهم في عمله، وأن يودعهم، على الأقل من ناحيته هو. وفي الثامنة والنصف صباحاً سرى علمه، وبضع كل ذلك على الورق في وصيته، ورتب أمور الجنائز والدفن. وبعد ذلك ينتقل للشالية، ويضرب لكاتبه كتابه الأخير.

كان يود الاحتفاظ بكتبه، لكن تعلم ذلك. فرتب للكتب العقاري له سيدة تعني بالشالية، وتعد الطعام، وتوكل شراء ما يحتاج. وبمكتبها أيضاً أن تقود السيارة حتى سير الكوز، حين يصبح من الصعب عليه القيادة بنفسه. اشترى قارباً صغيراً: يحلم بالجلوس والتأمل وسط سكّون البحيرة دون حركة أو صوت، غير انكسار الأمواج الصغيرة على حافة القارب. ربما تعلم الصيد. اشترى شاشة التلفزيون والساعات الضخمة التي رفض شرائها منذ سنوات لفحش ثمنها، كما اشترى سيارة نصف نقل

تناسب المناطق المحيطة بالشالية. كل شيء أصبح جاهزاً للانتقال، عليه فقط فرز الكتب.

حين وقفت عينه على كتاب تاريخ الشعوب العربية لأكرت حوراني لم يتعرف عليه. ظل ينظر له للحظات غير متذكر من أين أتى، أو ماذا كان موضوعه. وفي لحظة واحدة شعر وكأنه لرتد أربعين عاماً للوراء، وحضرت أمامه حين وربما وزينب وكأنهن واقفات معه بيوت ثلاثة في أرض ثلاث، ثم أرتج عليه الأمر كله، وبدأ يشعر بدوار سريع، مدّ يده بحسك بالملكية تاركاً الكتاب بهوي إلى الأرض، لكن الدوار لم يتوقف. يعرف هذا الدوار جيداً، لن يتوقف الآن. حاول الجلوس شيئاً فشيئاً على الأرض، لكن الدوار كان أقوى منه. فقد توازنه، حاول التشبث بالملكية وهو يسقط على السجادة الصوف الممتدة على غشب الأرضية. انتظر لحظة وهو ممدّد على السجادة، ثم بدأ يحرك أطرافه. كل شيء يبدو في مكانه: لم يتعظم شيء منه بعد. زحف بيده نحو الملكية، واستند بظهره إليها، وظل جالساً يلتقط أنفاسه. جال بخاطرته أنه أحسن صنفاً حين أصغر أن تكون الأرضية من الخشب؛ فلو وافق زينب، ووضع سيرليك بدلاً منه لكادت عظامه قد تهشمت. يأتيه هذا الدوار كثيراً، ولم يفلح طبيب واحد في علاجه. قالوا له إن ضغط دمه ينخفض فجأة لكنهم لا يعرفون لماذا؟ ما فائدة الطب الذي يشرح لك دائماً مرضك دون أن يفلح في علاجه؟

استقر على السجادة. جال ينظره في غرفة الملكية ورفوفها الخشبية البنية اللون المحكمة الأثاق. ستارة بيضاء رقيقة تسدل أمام النافذة

البرصة وشجر الشارع يبدو من حلمها. لا صوت يصل لمعرفة بفصل
ازدواج رجاح الباطنة السقف به عروق خشية من نفس لون الذكبة.
لا أثر لحبة تراب واحدة على أي من الكتب. "أحسنت يا كتي؟" نظر
للكتاب الملقى على الأرض بالقرب منه. من أين طلع هذا الكتاب بعد
كل تلك السنوات؟ كيف كان هذا طول الوقت ولم يلمسه؟ حفت الدوحة
شيئا فشيئا، تحرك على أربع حتى وصل للكتاب، وأمسك به، وعاد
ثابتة يستند بظهره للمكتبية قلب في صفحات كتاب حوراني وهو يتسم.
"كيف نسيت هذا الكتاب؟ هذا الذي كان أهم شيء في حياتي في وقت
من الأوقات؟" اشتراه من لندن، ليس رغبة منه في تعلم تاريخ العرب، فهذا
هو تخصصه، وإنما كهدية لصديقته البريطانية جوي. فهو سهل القراءة،
ويمكن أن يكون مدخلا جيدا لمن لا يعرف تاريخ العرب، ويرغب في
تعلم الكثير من خلال كتاب واحد. يبدأ الكاتب ببداية عن ظهور الإسلام
وتعاليمه، ثم يشرح تاريخ انتشاره خارج الجزيرة العربية، ويعطي لمراحل
المتعلقة للمجتمعات والسياسة العربية وصولاً إلى العصر الحديث، وكل
ذلك في مبعص مئات من الصفحات. أهداه لها مازحاً بأنها ستجد فيه الحل
الشافعي لجهنم المطلق.

التفت بجوهر في القاهرة وليس في لندن رغم أنه قضى خمس سنوات
لإعداد درجة الدكتوراة هناك، وكأنها يجادل في ذلك الأمر مثلاً للدعاية
مع أصدقائهم القليلين. حين جميلة ورفيقة، طويلة، شعرها الكستنائي
مُسدل على كتفيها ما لم تحمعه وتربطه مما تقع عليه بنحها - في الأعلى
قلم رصاص - وطية الخلق. جاءت إلى القاهرة في مسحة تدريبية لمدة عام

تعلم اللغة العربية فارت بها في مسابقة ما، ثم أحتت المدينة وهو صاعدا
فاستقرت بها تعارفا وتعارفا حتى صارت شه مقيمة معه بشقته بالجزيرة
حلف حنيفة الخيول. رادته فكرة الرواح منها منذ بداية تعارفيهما؛
فحين تجمع كثير من المواصفات التي يبحث عنها سافر معها لبريطانيا
ورثا والمديها الفقيس في إحدى صواحي حلاصو، سارا سوياً في البرية
عد البحر الذي كانت تلعب حوله وهي صبية، ونظر المرعي الممتدة إلى
ما يبدو وكأنه لانهية. أحذته لبار الضاحية حيث كان الشباب الصاحب
بماكسها وهي مرهقة، والتفتا بجوارتها الذين أتوا لمشاهدة للهرري الذي
أحضرته جوي. في كل ذلك كان يشعر أنها المرأة التي بحث عنها طيلة
حياته. لكن شيئاً فيها كان يثير قلقه، ومن ثم لم يعرفها على ليلي أو يوسف
حتى يحسم أمر علاقتهما

حين طية ومستقيمة الخلق، لكن علاقتها بعصر مرتبكة. شرحت له في
لقاتهما الأولى كيف أحتت طية المصيرين، وحرارة العلاقات الإنسانية
بهم، ووجدت فيهم ما كانت تعتقد طيلة حياتها في بريطانيا. صمكت في
أعمالها، فهو شخصياً يحب بروعة الإظهار وتاعدهم، ويجد في احترامهم
تخصوية بعضهم البعض ما يفقده في حياته عصر وحدا نفسيهما في
وصح معكوس. هو يعتقد الناس والحياة في مصر وهي تدافع! "نعم هذه
تكدب، من الناحية القانونية تكذب، لكنها ليست كذبة حقيقية"،
و"هذا ليس صعباً بل تعقيل"، لا، هذا السلوك ليس محبابة، بل نوع من
الهرقان، و"قطعا ليس هذا سلوكاً طيباً، لكن اختلاف في رؤية الأدوار
والمستويات" لم يتقبل لها من تعبيراتها، لم يتقبل أبداً أن تكون للحياة في

العالم العربي قواعد مختلفة. العرب ليسوا طائفة شاذة من البشر، وقواعد الأخلاق العامة تنطبق عليهم مثل غيرهم. أما القول بغير ذلك فهو موع من التعالي لتكبر في شكل تعاطف.

أن تقبل الكذب من العرب وترفضه من غيرهم معناه أنت ترى مهم نقية أساسية تبيح لهم ما يحرم على الناس الطبيعية، كأنهم يحملون شهادة جنون. قال لها ذلك، مراراً، وأصبح تعاطفها مع نقائص الناس في مصر وأخطأتهم يستغره. طلب منها أن تقرأ تاريخ هؤلاء الناس كي تفهم أنهم ككافة البشر، وأن تعرف كيف وصل الحال بهم لما هم عليه، وكي تأكد بعصها أن الحل ليس في تشجيعهم على التحلف، بل العكس محاسبتهم كتاضحين ومستغلين؛ كي لا يستغلوا ويستفيدوا هذا التحلف. قالت إنها لا تجد الوقت للتبحر في التاريخ مثله، ومن هنا جاء البرث حوراني. أعطاهما الكتاب وأبدت سعادتها به. قرأت فيه ثم تركته سرياً، وقالت إنه عمل، وإنها تفصل التعلم من حلال مخالطة الناس.

لكنها لم تتعلم من حلال مخالطة الناس، بل جمادت أكثر فيما كان يراه تنصفاً لدور الساتحة البلهاء. قالت له إن المشكلة تكمن في تفكيره الذي يحول بينه وبين فهم التعقيدات المصرية. فاحتج بأنه هو ابن البلد، ولكنّه يميز بين التعقيدات وبين سوء الأخلاق، وأن الناس في مصر يحتاجون لإعادة تربية، ربما بسبب الجهل أو الفقر أو سوء التعليم، ولكنّ المحصلة واحدة وهي وجود تنعور عام في الأخلاق. قالت له إنه صحيحة تعميمه العربي، وإن السداحة الأعلو ساكسوية التي تقصصها هي التي تنعصر خطأ إمكانية إصلاح سلوك الناس بقوة الحجة ومساخلة الضمير، وذلك ما

بجمله يصطدم بالناس طينة الوقت، لأنه يعط ولا يتعلم.

ضحك وسألها سحراً إن كانت هذه تهماً أم مزهاً. أحمر وجهها من سحرته، وعبرت له متلاًخوطف الجوارات الذي ظل يخالط في زبها. أوراق تأشيرتها حتى عمرته هي بحمسين حينها. احتج وقتهاء، وصم أن هذه الرخوة الصغيرة مساهمة في الفساد الكلي، وعندما حاولت تذكره بتعقيدات الظروف - لو ظف الذي يتقاضى مرتباً ومرتباً تعرف الدولة أنه لن يكفيه، وتقرص أنه "يكمل عليه" من أصحاب المصالح وغير ذلك - وفض هذه التفسيرات باعتبارها حجةاً سالته كيف يُبَيِّن الصواب والخطأ في حالة مثل هذه؟ هابتسم ابتسامة المطمئن، وريت على كتفها قائلاً إن هذا أوضح مثال على فساد منطقها، والصواب والخطأ بيان، لا يحلظ بينهما إلا شخص تعود على سوء الأخلاق. ردت بأن ما يصمه بسوء أخلاق المصريين ما هو إلا عطف آخر من الأخلاق له جماله الخاص. تستغره هذه الجملة، تشعر بأنه مقترن بمعتوه لا ينقصها إلا أن ترددي الهلاهيل وتجري حلف أحد المهاديب. اتهمها بأنها تُعوّض فشلها في التأقلم مع الحياة في برطانيا بتقص هذا الدور الذي يحملها تشع بالنعوق، وأنها ضحية أساطير عصوص الشرق، فقالت إنه هو الفتون بأساطير النظام في الغرب. نظر إليها ساعتهما في رأي شبه كامل، ثم تغل بالمحاصرة التي عيه اللحاق بها، ومضى.

سارت حياتهما بعد تلك الماشقة في هدوتها العناد: هو بدرس بجلمة القاهرة على بعد خطوتين من المنزل، وهي تعمل بشكل دائم في مشروعات شتى مع منظمات اجتماعية شتى، من مساعدة الرابليين إلى رعاية

أطفال الشوارع في وسط البلد. لكن الخلاف بينهما حد من علاقتهما الاجتماعية، وقللت طريقة تمكيزها من رغبته في مشاركتها مشاكله سواء تلك المتعلقة بالعمل، أم بعلاقته المتوترة بطفله وأمه، وهي المسألة التي كانت قد بدأت تأخذ حيزاً متزايداً من حياته. فكل فكرة كانت تستدعي شروخاً ومناقشات وحلقات لا يمكن جسرها. اعترف لها يوماً أنه يجد صعوبة في التعامل مع الطفلين. فهو سعيد ولا يستجيب لتوجيهاته، يتجاهل ما يقوله له أو يظهر بأنه لا يفهم. أما ليلي فتجلبج للنداء عن نفسها، وعن أمها كلما وجّه لها أبسط ملاحظة، بما يجعلها دائمة التحفز بل وعدائية أحياناً. سألته حين لم يوجه لهما كل هذه الملاحظات، فرد بأن سلوكهما العام لا يليق بهما، وهو لا يستطيع تقويم الأم مصدر هذه السلوكيات، ومن ثم يحاول استغلال الوقت الذي يقضيه مع الطفلين في تقويمهما. اقترحت حين عليه أن يتعلم قولهما كما هما بدلاً من محاولة تقويمهما. حاول شرح اعتراضاته فلم تفهم، وظلت تُردّد مآلاته حتى سكنتُ تعادياً لمزيد من الخلاف، وصار يتجنب إثارة هذا الموضوع ثم بدأ يتعاضد مناقشة الموضوعات الأخرى، وأحدث دائرة الموضوعات التي يتعاضد الخوض فيها تتسع حتى شملت كل شيء، وانتهى الأمر بهما لصمت مطبق. لم تطل الحياة بينهما بعد ذلك كثيراً، انتهى وهو يتذكر كل ذلك، ويمسح التراب عن غلاف الكتاب الأبيض: "هل يمكن أن ألقى بهذا الكتاب إلى النسيان؟ هذا الكتاب الذي كان علامة السباح والمثل لتساني، أنهى به الأمر إلى القمامة أو على أفضل العروص إلى إعادة التدوير؟ أحد يتجمل صفحات الكتاب وهي تعرق في محلول يريل كلماتها شيئاً فشيئاً

حتى تعدو مجرد صفحات يضاء طائفة أهلكدا ينتهي الأمر بالكتاب؟ ماذا ستقول حين لو عرفت عصر الكتاب استقول إنها كانت على حق حين رفعت قراءته؟

ربما قرأت الكتاب. كانت جالسة في غرفة المكتب بشقته الجديدة بالمعادي حين مدت يدها وسحبت الكتاب من على أحد الأرفف. نظرت إليه وصاحت جدلة بأن هذا بالعبث هو ما كانت تبحث عنه. حدث فيها مستعرباً فأسرت له وهي تتعشم لأي مدى تجهل تاريخ المنطقة، رغم أن حياتها وحياة عائلتها شكلها هذا التاريخ. أضافت، وكأنها تبيع من على صلرها عيناً باعترافيها - أنها تجهل حتى الأشياء الأساسية، كالغارق بين الخلافة الأموية والعثمانية. فملكته الدهشة، ونظر إليها محاولاً إحصاء صدمته بانتمائية معتصة. سأل نفسه إن كان به حبل نفسي ما يجعله يجذب للجذامات دون وعي منه. لكن ربما أستاذة في القانون الدولي لا عارضة أزياء؛ لم يقابلها في بار، بل في مؤتمر علمي قدمت فيه بحثاً عن التحكيم الدولي. كيف حصلت على درجاتها العلمية؟ ولماذا أهدت هذا الطريق مادام لا يثير اهتمامها؟ ظل بعد ذلك بفترة طويلة يفكر في معنى هذا، وما إذا كان مؤشراً على مشاكل أكبر في شخصيتها. فكر في الاختراق عنها قبل أن تتطور الأمور بينهما، لكن الأمور كانت قد تطورت بالفعل؛ وتركت ربما مركز البحوث الذي تعمل به في بيروت، وانتقلت للقاهرة كي تكون معه، ومن ثم كان يحب عليه المحاولة على الأقل. اقترح عليها قراءة كتاب حوراي كبدية لعملية إعادة تأهيلها التي أخذ على عاتقه متابعتها. قال نفسه إنه مادام يستطيع تعليم لثلاث من الطلبة المهمة التي يردون

عليه كل عام، فلابد وأنه قادر على تعليم امرأة غتته، خاصة وأنها هي التي أبدت إعجابها بالكتاب، وأعلنت رغبتها في التحلص من جهلها لم يرد تكرار قصة جين وعرص الكتاب عليها، فسألها مباشرة إن كانت تريد مساعدة في "سد هذه الفتحة" في تعليمها، فزحبت وشكرته. أعطاهما الكتاب وبعدها بشهر سألها عن رأيها فيه، فأبدت إعجابها الشديد به مستهدة ببعض أبحاثه. لكنه حين ناقشها بعد ذلك بأسابيع في موضوعات ذات صلة بالكتاب اكتشف أنها لم تقرأ منه سوى شذرات، وكانت تغفر فصولاً بأكملها وتُدعي أنها قرأتها. صدم. سألها لم تعمل ذلك؟ فأجابته في انكسار أنها حشيت على مكائنها في عيبه إن اكتشف كم وجدت الكتاب صعباً على الفهم صدم أكثر! كيف تحده صعباً وهو من أسهل الكتب؟ ثم كيف تقدم على الكذب في أمر كهذا؟ والأسوأ من كل ذلك هو كيف تعاف منه لهذه الدرجة المهيبة؟ وإن كان هذا حالها فلم تقبل أن تعيش معه وهي تشر بالصلابة؟ أي نوع من النساء هي لترنصي لنفسها هذه الحياة؟

لكن ربما لم تكن بالخبر الذي ظن أنها كانت عاشقة ومستعدة للتصحية بأي شيء من أجل البقاء معه. وعندما فهمت أنها قد خسرت تقديره العكري لها لحأت لشيء آخر لاستنقائه كل من يعرف درويش يترك سريعاً أن علاقته بطلعه هي نقطة ضعفه، فهو يعتد الحياة معهما سد انفصاله عن أمهما، ويشعر بالحق على أمهما لأسلوب تربيتها لهما. حاول جعلهما يقضيان شهور الصيف معه؛ لكن الأم كانت تجد وسيلة ما لتعرق ذلك، شيئاً فشيئاً بدأ في الإحراص عن الإقامة معه، إناً تَقْوَدَا

على الحياة مع الأم، أو نجتها لتنتقل الدائم بما يجره عبيهم من عدم استقرار نفسي وعائلي، وأمنه من قبل أصدقائهم، أو تأثراً بما يسمعون. وحتى باتان لرهانه لو لقضاء بعض الوقت معه يسود التوتر علاقتهما. يوسف، العارف في عائلة الخاص، بادي العمداء وإن لم يؤخه عداؤه له مباشرة فهو يصبه على كل ما حوله. لا الطعام يصبه ولا الشراب، ولا الخروج ولا الدخول، ولا النوم ولا اليقظة. دائم الشكوى وسريع العصب والارتواء، ويحد دائماً شيئاً لإسعاد أي بهجة تحمهم هم الثلاثة أما ليلي فقد تحولت من الدفاع إلى الهجوم، بسيل من الاستجوابات حول فشله وأنها هي السبب على الأسرة التي خلقها سوياً كانا عاصيين، كل بطريقته حاول تمكين عصبهما فلم يستطع. يوسف معلق بالصبة والمفتاح، لا يرسل شيئاً، ولا يبدو أنه يستقبل شيئاً. ويلي تقول أشياء كثيرة لكنه لا يعرف ما إذا كانت تعني ما تقول، وما إذا كانت تُسرك حقيقة مشاعرها رغم ذلك وأصل المحاولة، وقال أشياء كثيرة على أمل أن بعد بعضها لهما كي يشعران لأى حد يحبهما لكنه لم يعرف ما بعد إلى عصبهما وشيئاً عشياً. استقر بينهم هم الثلاثة روتين يقوم على حب جارف ومخطط من ناحيته، وعصب مخروح بالحب من ناحيتهما، وألم شديد بثلاثة اتعقوا ضمناً على تحميلة مسؤليته.

فهمت ربما هذه المعادلة المعقدة بسرعة، وعملت على استغلالها للتمترس في حياة درويش. ذبرت أمرها بحيث وجد معه مصطراً لتقديته ليوسف ويلي، وبحيرتها الساتية محبت في التنس لقلب البت المعلق والرافض لارتباط أبيها بأمة امرأة كانت ليلي قد بلغت الخامسة عشرة، ورات ربما

على الفور كيف يمكن التعاد لها؛ أهدتها لبيروت في راحة حربي بعد أن انتزعت موافقة درويش بمرح من تونس ليلي والطمعانة من جانبها وهناك بهرتها بإسكانيات الخصال والأثولة، وأزتها على أسرقتها المراهق. ظلت ليلي مبهورة حتى بعد عودتها وهي تراه الصور لم تكن هذه الرحلة سوى عجة بما يمكن أن تعتمد ربما لها، كما أهمتها. ليلي رأيت فيما فعلته ربما علامة على إمكانية دخولها لعالم الخيالات الذي طالما اعتقدت أنه مختص لغيرها من السات، العالم الذي لا يستطيع أمها مساعدتها على دخوله. ويهدوه نقلتها البنت من خاتة الأعداء لخاتة الخلفاء.

بعد التحالف مع ليلي، مدت ربما عودها ليلية ساطق حياته، يدياً يوسف وانتهت بملاسه هو وحياته اليومية شيئاً فشيئاً أعادت تشكيل العالم الذي يعيش فيه، واستراح لهذا، فطالما أراد امرأة تتولى ترتيب حياته لشعته. وكانت ربما بارعة في ذلك. لكنه ظل غير مرتاح لجهلها، ليس فقط بتاريخ العرب، فقستها مع كتاب حوراني كانت إشارة لجهل أوسع وأشمل. لكنه حاول التعاضد عن ذلك والحفاظ على علاقتهما، وظل يذكر حديثاً في الزواج منها، وتعادياً لاصطفائه بجهلها عن على إبقاء أحاديثهما في إطار الأمور العملية فقط - من سينعب؟ أين، ومتى؟ وأي فيلم يشاهدون؟ وماذا يأكون؟ وأين يقصون العطلات؟ وس من الأصديق يدعى لأي ساسية؟ وكيف نحل مشكلة يوسف مع المدرسة أو ليلي مع صديقاتها؟ وغير ذلك من الموضوعات الحياتية. وكما نظرت ربما لأمر يتعلق بحيوته الخاصة أو بأمر عام أنهى الحديث بسرعة سارت الأمور بينهما يهدوء، لكنها كانت تترك عواقب عدم مشاركتها له عالمه

الأثير وتعامل من وقت لآخر الدخول في هذا العالم، وكلما فعلت كلما اتضح جهلها أكثر، وأزداد صيقه أكثر، فتجرح في أكثر. وتسعى لموجهة الخطر برهانة تعظمها في حياته وتفتح الباب الموصد أمامها، بما يدفعه لمزيد من الضيق بها، وهكذا حتى وصلنا للنهاية المحتومة.

ظاهرة يؤله. هل نادى من هذه السقطة البسيطة؟ تؤله جلسته على الأرض. الأرضية الخشبية ليست مريحة بالقدر الذي ظنه. هذه أول مرة يجلس فعلياً على الأرضية رغم كل الخلاف بينه وبين ربيب حولها. ماذا كانت أهمية الخشب إذا؟ السعة تقرب من السادسة، ولم يفر ما يكفي من الكتب. شعر مرة أخرى بالفضل في استعمال الوقت بشكل أمثل، لكنه عرّى نفسه بأنه سيحظى بوقت كاف حين ينتقل للشالية. يجب أن يصح هذا الكتاب المشثوم وذكرته جاشاً، ويعود لمرر الكتب بوسعه مرر عدة مئات من الكتب خلال الساعة المتبقية على وصول يوسف. هل يعطي يوسف هذا الكتاب؟ هو لا يحب القراءة، لم يحنها في يوم من الأيام، وزعم عمل في منظمات الإغاثة الدولية كي يتعدى القراءة، فتوزيع أمواله الطحين لا يحتاج لقراءة كثيرة ولا شكاً لكن لو طلب منه الاحتفاظ بهذا الكتاب فيمعمل. لكن ماذا سيفعل يوسف بالكتاب؟ يعطيه لروحة المستقبل أم لصديقاته كي يقرأنه؟ وأين هي هذه الروحة وهؤلاء الصديقات؟ لماذا لم يقابلن أمه سهر أو يسمع صهر؟ هل ألقته الأمل في النساء لتهده الدرجة أم أنه يحسن نفسه دلاً لا يمرر له؟ ربما هو صمته الذي يدفعه عنه. ربما كراهيته للقراءة من يندري، ربما يقع في غرام نساء يعطيه البرت حوراني كي يقرأه ولا يستطيع فيتركه. أمست

بالكتاب بين يديه يقلبه: "ماذا أعمل بهذا الكتاب؟ ولماذا لا أستطيع أن أحصل نفسي على التخلص منه؟"

ربس قرأته، أو على الأقل بدأت في ذلك، وظننت تقرأ فيه لسوات طويلة بلعنا ودقة ولكن ببطء لا يصدق، ولم تنته منه حتى وفاتها. فهم درويش مد نهاية العام الأول أنها لن تنهى أبداً، وبدأ عملية التماس منها. ماتت للسكينة قبل أن تنتهي من حكم الممالك. ما الذي يجعله ينسب الآن وهو يتذكر ذلك؟؟ يسأل نفسه ولا يجد إجابة. الحقيقة أنه لا يفهم الكثير من حدود أعماله الخاصة بربس، بما فيها رواجها. لماذا تروجها رغم احتلائها اليوم عى السورج الذي كان في دمه للسرقة التي يريد الاقتراض بها؟ لا يعرف، رغم كل هذه السوات، ولم يفهم أحد سر رواجها لا ليلى ولا يوسف ولا أصدقائه ولا أقربائه أو زملاءه، بل ولا زيب نفسها.

التقى بها في المستشفى الذي تعمل به حيث كانت أمته تخضع للعلاج. لطيفة ووريفة وحداثة وذكية لكنها تمتد طيلة الوقت وتصبت إن حدث لها أحد. حاول التحدث معها عدة مرات، لكنها كانت قليلة الكلام، وكلما سعى لإطالة الحديث معها كلما احتجمت هي بالصمت قالت له بعد ذلك إنها كانت تلوم نفسها دور معادرتة مكتبتها على هذا الصمت، وتظن تذكر في كل الأشياء التي كان يتعين عليها قولها وصمتت عنها، وتقس أن تقول هذه الأشياء في المرة التالية، لكنها لا تفعل. وظلّا هكذا حتى عادت أمته المستشفى. لكن بعد عدة شهور أصبحت الأم عاجزة عن الحركة، فاتصل برئيس القسم، وطلب منه إرسال أحد شباب الأطباء

لرؤيتها بالبيت، واقترح ربس، وهكذا أصبحا يتقابلان في بيته عندما تأتي لزيارة أمته مرة كل أسبوع، ثم تطورت الأمور بينهما بسرعة.

كان يشعر باعذاب شديد لها، لكنه أيضاً يحس أن عشرين عامًا يعصون بينهما، وعشرين شيئاً آخر حين تطورت العلاقة بينهما بعد ذلك ظلّ يُشير لعارق السن بينهما، وهي تشتد عليه قائلة إنه سيمشي في حيازتها. لكن السن لم يكن العارق الوحيد بينهما: فهو سريع وهي بطيئة، هو شديد التركيز وهي ناثلة، هو حاذق الطبايع وهي حساسة، هو علموح ومصمم وهي حائلة ومتشائمة، هو شديد الاهتمام بالأمور الفكرية وهي لا، هو شديد الكبرياء لدرجة العزور وهي شديدة التواضع لدرجة التهاون، هو حريص على حماية صورته أمام الناس وهي مستسفة لاستهانة الناس بها، هو يكره الناس لكنه يحبر نفسه على الانحراط معهم وهي تحب الناس لكنها تنأى عنهم، هو صاور وهي صريحة، هو يسمع وهي هادئة، هو غير بالحياء وهي مبتدئة. لم يكن متأكدًا أن علاقتهما يمكن أن تدوم، أو أن ارتباطهما فكرة سديدة، لكنه وجد نفسه متجهلاً إليها بشكل لا يقاوم.

ذات يوم قرر أن يسير حلب مشاعره. كان مريضاً وبائساً بتأثير الحصى والدواء، وعندما أمّاق وجهدا حالساً بجواره مسح على وجهه بمخيل ملل. أمسك بيدها وقتلها. تحسنت شعره، ثم قبلته بحتان على يده، وسألته مباشرة إن كان يحبها ابتسم وقال يبدو هذا. ابتسمت قائلة إنها تحبه مد رائته، وأنها لا تعرف كيف ستعيش بعد أن يتركها. سألتها لم تقترص أنه سيركها فأجابته بأنها ليست عبيطة، وأنها تعلم أنها ليست جيدة بما يكفي، وأنه تاركها لا محالة ابتسم وقال لها إن ذلك سيكون

من حسن طالعها، فهو شخصية مُتعبة - معترى قليلاً وعمود شريين. صمئت، وقالت ببطء وتصميم إنها تدعم ذلك، لكنه لا يحبها. مال عليها، وسألها إن كانت تقبل الزواج به، فطمعت على شتمه قبله طويلاً ودافئة، وقالت "نعم".

ما الذي جعله يزوجها؟ جاء هذا السؤال من ليلى مصحوباً بعصب، ومن يوسف مصحوباً بتشكك، ومن بنية الأصفاة والمعارف مشوباً بالتعجب. وقد أسمعت حكيته بإجابات شتى لكل منهم، وأعطى ريب كل هذه الإجابات ممّا كلّما سألته، وكانت نسأله كثيراً وكأنها تحذر صدق إجاباته، لكنه لم يجد إجابة تُقنعه هو نفسه. تزوجا، وبعد وقت قليل جاءه عرض من جامعة نيويورك للعمل بها. كانت سمعة قد بدأت في التوطّد كمؤرّخ جاد، وبشر عذّة أبحاث في دوريات علمية مرموقة جاءه هذا العرض فلم يتردّد كثيراً.

كان قد مرّ على عودته لمصر من لندن سبع سنوات ترسّخت خلالها قناعته بالأمان في البقاء بهذا البلد. عاد من بريطانيا بعد الدكتوراة لأنه شعر بمسئولية إزاء أهله ووطنه، لكن سبع سنوات من التدريس لطلبة جهلاء لا يفقهون ولا رغبة لديهم في التعلم جعلته يقرّ أنه سبع سنوات من العثل في تطوير التعليم بالقسم، رغم الوعود ورغم التمويل ورغم التصريحات، اتفقت الأمانة. سبع سنوات من النقاش العقيم مع زملاء أساتذة وكتاب فقدوا المطلق ولم يعودوا قادرين على وصل الأسباب بالنتائج اتفقت بصراحة الرجل. سبع سنوات من التعامل مع مجتمع أدنى مشاكله ووصفه كضحية وصار يُعادي من يحاول لفت النظر لضرورة

الخروج من هذا الوضع اتفقت بأن هذه أمة في سبيلها للمراق ولن ينفذها شيء أو أحد. ومن ثمّ قرر الحياة بنفسه. ريب وافقت على الرجل من مصر التي قالت إن الحياة فيها حافلة للنساء. أما ليلى فقد رفضت البعد عن أصدقائها وقرّرت البقاء مع أمها، ودفعت يوسف بالتبعية للبقاء.

رحل درويش مع ريب تاركاً الطفيين وهو عارم على استمالتها لتلاشاق معه لاحقاً. ناسته الحياة في نيويورك وكأنها خلقت عمى مقامه. ووجد في الجامعة المناخ الذي طالما ناق له. استقرّ بها وازدهر عمله وتألّق. أما ريب فوجدت الحياة في نيويورك فاسية. في البداية نوى عليها اختيار اختبارات شتى لمعادلة شهادتها العلمية، رغم أنها كانت تمارس الطب فعلياً في إحدى كبرى مستشفيات مصر. وأخذت هذه الإحباطات الكثير من وقتها وطاقاتها التي تحتاجها لتتأقلم مع بقية جوانب الحياة الجديدة. وأثر ذلك سلباً على حالتها النفسية وقدرتها على مواجهة مسئوليات البيت والزوج. ثمّ بعجه ذلك، لم يحبه البيت. وعثر على امتعاضه بوصوح. لم تجد ريب الوقت الكافي للصيانة به، أو بالمرئ العتيق الأنيق الذي اشتراه في الساحة الغربية للمدينة وكان محوراً به. فشلت في الوفاء بوعودها الخاصة بالصيانة بالديكور والأثاث، بل حتى باختيار ألوان وأنواع الستائر. لم تكن ريب في يوم من الأيام حبيزة بهذه الأشياء، ولكنها رعمت أنها ستقضي في نيويورك، وطبعاً لم يكن هناك وقت كاف لتتعم أي شيء. كلّ صباح تواجّه بقرارات عليها اتعاها فوراً ودون معرفة كافية بالعواقب، إن أحجمت توقفت أمور الحياة مما يثير حنقه، وإن أخطأت - وهو ما يحدث كثيراً - راد حقه ألبساً، وإن

تظاهر بتفهم الأمر لكن محاولاته لم تنطلي عليها، كما صرحت بعد ذلك في مشاجراتهما العديدة.

لم يقتصر إصالتها على شئون البيت، بل امتد لكل شيء آخر، فلم تعد تجد الوقت للاهتمام بنفسها، ولا أن تكون جزءاً من حياته الاجتماعية في مهبورك، وأصبحت تملل للارتحال والاكئاب. تحولت امتحانات المعادلة إلى هم مُقْبِب، تصحو في الصباح ووجهها مقبض وكأن أحدًا دس كلبيها لثو. ثم تُشد الصباح مُتَقَلِّبة بين أرجاء المنزل دون أن تفعل شيئاً مُحدداً وبحلول الظهيرة تكون قد استمدت كل وسائل التسويف المعقولة وغير معقولة، فتصطر للبدء في المذاكرة، وتظل تناضل مع مواد وأشباه غير مفهومة لها حتى الخامسة، فتقوم لتعد العشاء. لكن شيئاً ما يحو نحو الجهة الخاطئة، وإن أبدى لكل ملاحظة على سائقه سقطت في الصمت والفتاسة.

قالت ربيب إنها بطيئة، لكنها ليست هبية وكانت شاشات الرادار لديها تسجل بدقة تدهور تقديره لها. تخدمني في ذلك كثيراً قالت إنها تفهم أسبابه، لكنها لا توافق عليها. حاولت شرح الأمر من وجهة نظرها، وكيف أنها تحتاج للشحور بالحلب والإعجاب كي تردهر وتأتق. قالت إنها لا تطيق مهله للحكم عليها طيلة الوقت، وإن مراقبته للمستمرة لها تجعلها ترتك وتعتز. ذكرته عشرات المرات باحتلالهما، وحبته لها، وسأله عشرات الثبات لم يقول إنه يحبها إن كان ببعض كل هذه الاختلافات ولا يطيعها! حاول أن يشرح لها أنه يفهم منطقها، لكنه لا يسيطر على شعوره بالصيق من أخطائها. وعدّها بأن يحاول، وقالت إنها ستحاول

هي أيضاً، لكنها لم تعد في نفسها القوة للمحاولة، ولم يستطع هو إبعاء حنقه عن رادارها المثقمة. ومع استمرار التدهور هددته بالرحيل إن شعرت بمقدارها لحته. ضحك وسألها أين ستذهب، فقالت ببساطة إنها ستختفي. وبالطبع لم يصدقها

ذات صباح أعلنت أنها قررت الانسحاب من امتحانات للمعادلة أو "تأجيلها". اعترض لعلها بأهمية الأمر لها، لكنها أصرت. قالت إن امتحاناتها لسيطرتها على حياتها وتجنب استمرار التدهور في علاقتهما أهم من أي شيء آخر. وأصل الاعتراض، عماداً يقى لها إن نحتت عن الطبق؟ لكن ردودها كانت واضحة ومقنعة بعم هي طيبة وهذا هو الشيء الأساسي الذي يميزها عن غيرها، لكنها أيضاً امرأة وروحة حية، ولا تستطيع ترمي رواجها للحظر. ستستعيد سيطرتها على حياتها أولاً، ثم تعود لهذه الامتحانات اللبية في العام القادم أو الذي يليه. لم يوافق على قرارها، وسألها سائحاً عما إذا كان الأمر سيتهي بها ربة بيت، فاختصبت صبحكة، وقالت إنها ستدرس أشياء أخرى وستقرأ عن الموضوعات التي ظلت طيبة عمرها تريد تعلمها ولم تنح لها الفرصة. سألتها متهمكاً مثل ماذا؟ فأجابت ببساطة. "للموضوعات التي تدرسها أبت، تاريخ العرب مثلاً". لم يعرف بمحب، حظر على باله أن يقترح عليها كتاب حوراني المشنوم ثم عدل فوراً عن ذلك. لكنها عادت بعدها بيومين، وسأله إن كان لديه كتاب عن تاريخ العرب، فقام وأصره ووصعه في يدها دون أن يبس بكلمة.

ثم جاءت ليلى ويوسف للإقامة معهما بعد موت أسهما. طول عمره

يعتقد أنه من الأفضل له وللاطفال أن يعيشوا سوياً فمن ناحية يُدوي جرحه القديم، ومن ناحية أخرى يساعدهما على تجاوز عقدة الانفصال وحلحلة علاقاتهم المعقدة، جاء موت الأم مبعثاً للجميع وكان أفضل شيء هو سفر الأطفال كي يعيشوا أجدادهم، كما أن جامعات نيويورك ستفتح عينيها ونفسهما على آفاق أرحب مما لم يدركه وقتها هو أن الأشياء والناس لا تسير بالضرورة وفقاً للسطح، بل تتبع آلياتها الخاصة ليُرى أعلنت حرب التحرير فور وصولها، في حين أعلن يوسف الاستقلال ليلى التي قررت الحلول محل ربيب في حياة أبيها قالت إنها لا تفهم سر اختياره لهذه المرأة وإن ربما كانت أفضل منها وأنسب وكلمة بدل جهذا في شرح ميراثها ليلى كلما أُنعت في التحقير من شأنها. وعلى عكس توقعاته، لم تفلح الحياة المشتركة، ولا الظروف الطُغرافية التي توغرها الحياة في نيويورك لعنة في سر ليلى بأن تبتز أو تحلّفت من عدائها لربيب. بل على العكس، بدا أن هذا العداء يترايد ويتحوّل لزلزل مستمر حتى ساد التوتر البت، تكاد تلمسه باليد في كل كلمة وحركة صغيرة، تغير فترات التلهيرون، تشعل اللوسيفي، درجة الإضاءة، مواعيد النوم، أماكن الجلوس والمذاكرة، اختيار فيلم في السينما، اختيار الطعام، إنده الرأي كل شيء تحول لربال تسعى من ورائه ليلى للتقليل من شأن ربيب في حين تحاول تلك الدفاع عن نفسها وإثبات جداتها أما يوسف، فقد دخل ما قبل نه إنها عرفته عند وصوله، ولم يخرج منها حتى أنهى دراسته الجامعية بعد ذلك بأربعة أعوام إلا للطعام أو الخروج من البيت. لم تفلح محاولات أبيه المستمرة في جعله يجلس خارج غرفته: ينادي لا يرد، يذهب للبحث عنه،

يفجد سماعات الكمبيوتر مستقرة على أذنيه. ينظر يوسف له مستعظماً وهو يربح السماعات قليلاً: إن وجهه له سؤالاً أحاب عنه باحتصار، وإن كان لدى الأب معلومة اسمع إليها وأوما أو علق عينيها باحتصار، ثم يتسم ابتسامة موحدة لجميع الأيام والأوقات، وأعاد السماعات لأذنيه، واستغرق فيما كان يصنّده.

فشلت الحياة المشتركة في كسر الحواجز بينهم، ولم يعد يعجبهما شيء. امتدّ سطح ليلى وصمت يوسف فشمل الجيران والجامعة ونيويورك نفسها. وشملت زيب بطبيعة الحال فيما لم يحجب هو فيه. ضاق بذلك، ثم في سره أن تكون ربيب ساحرة، تستطيع بحركة من عصاها أن تأمر قلب يوسف وليلى. وفي حين أدركت زيب مدى إله عزها شعرث يومه السري لها، ولم تعهم لم يلومها. لم يلومها على كل شيء؟ تنظر إليه وترى ضيقه بحياته وبها يريد، ويُشعرها ذلك بالظلم والعشال مغا. ناقشه، ويتشاوران، ويتصيحان، لكن جرحاً ما يظل ومع كل مرة كان اليأس من تغيير الوضع يتزايد.

استفترت الأمور في المنزل عند درجة العليان، وأصبح الطابق الأرضي لتبيت ساحة حرب مستمرة، تُعرض حياتك للسهام إن حطوت من للطبخ لمرعة المعيشة انتهى به الأمر لنفاس من الثلاثة، ومن ثم حدا جنو ابنه، واحتسى بفرقة مكثه ورفوف كتبه في الطابق العلوي، وصار يقضي أوقاتاً أطول في الجامعة. واتحدت ليلى من عرفتها في الطابق الأرضي مركزاً للعمليات تقضي بها معظم الوقت وهي تترنص بالمارين، فإن لمحت ربيب أو لمحتة تحركت على الفور لنساحة طابق للزوال. وبعد عدة

شهور، شعرت ربيب بالإنهك، وبأنها تخارب على كل المحييات في وقت واحد دون مصير أو حليف ودون سبب واضح يدفعها لتصمود. لم تعد تريد إثبات جدارتها لأحد. لا ليللي العاصية، ولا ليويسف اللعق، ولا لزوجها الذي اسحب. أدركت أنه قد ناس منها، ولم يكر عندما سألته فهبط عليها، بأسها الخاص. استسلمت، وبدأت عمية الدبول الطويلة التي أودت بحياتها. دبكت شيئاً فشيئاً، وهو يقرب دبولها، ويرداد حقه عليها. يحتملها في سره مسئولية كل ما حدث، بما في ذلك دبولها. وحين رحلت ليللي لكنيفورنيا في سحرة لدراسة الماجستير، ثم رحل يوسف في سحرة مشابهة لوتريال، لم يبق بالبيت سوى صمته ودبولها. لم تدح استحداثات للمادلة أبداً، وعصت هارثة حين ذكرها، وعصت حين ألح اتفق مع طالبة تدرس التصميم الداخلي على إعادة ترتيب السرل والتقى بالساتر القبيحة التي كانت قد احتارنها على عجل في القمامة - واستخدم كتيبي لتولي مسئولية التنظيف وإعداد الطعام أصبحت ربيب تقضي يومها بين الأريكة وبعض المجلات وخشاعة الكمبيوتر أو التحول في الأسواق دون شراء يذكر، لكنها واطمت على قراءة كتاب جورني. تقرأ فقرة أو اثنتين كل يوم، وتكتب ملاحظات في كراسة بحجورها كلما عاد روحها من الجامعة وجدها في إحدى الأرائث نائمة، والكتاب فوق صفرها يوقظها، فتجفل ثم تجمع حاجياتها مرتكة وتذهب لعمريش، حتى عاد ذات مساء وأيقظها، فلم تستيقظ.

خمسة وعشرون عاماً. مر على ذلك خمسة وعشرون عاماً. واجه رحيلها يحددي من الحديدي. لم يمحى باكياً، بل نثى حزمه في صورة سكون

وإدعان، كأنه امتداد للباس الذي أصابه منها. لم يعد للساء بعد ربيب! لم يتحد قراراً واعياً بذلك، وإنما عرفت نفسه عن الساء والعلاقات الخمية بشكل عام. لم يفكر كثيراً في رحيل ربيب، فتأدى التمشق فيه وفي مصه، وإنما كان رحيبها أكبر من قدرته على التحش، وكانت هذه طريفته في التعامل معه، بإحسانه أو تجاهله، أو بإعلاق الموضوع برشته. لم يستحلم كلمة تلوت مرة واحدة! قل رحمت، غادرت، مرت، ولم يقل أبداً ربيب ماتت. لم يعد يفكر فيما حدث، وإنما طواه ووصعه في مكان ما وتركه هناك، مثل بقية أموره العاطفية، مثل هذه الكتب، مثل أشياء أخرى كثيرة. كأن حياته العاطفية ساعة توقفت عن العمل. دخل هذا الجزء منه في حالة بهت شتوي طويل، وبقي الجزء الآخر الذي يعرفه وسيطر عليه التدريس والبحث والكتابة. أصبح أكثر اهتماماً بطلته، ويقضي وقتاً أطول معهم في الشرح والتفصيل. وتطوع للمشاركة في كل اللحن المسكبة بالجامعة، وقبل الإشراف على الرسائل العلمية لكل من طلب منه ذلك، وأمرع ببقية وقته في البحث والكتابة حتى د ع صيته، وأصبح قبلة المؤرخين في أمريكا الشمالية كلها. جازته بعض العروض من مصر لتعوده والتدريس بها. جده عروض أخرى من دول ودور مشر عربية، لتدريس ولو لعام، لكتابة أو الشرح، ورفضها كلها. لم يكن يرى أي فائدة في هؤلاء الناس أو في محاولة تعليمهم أو تغييرهم. لم يعد يرى فائدة في محاولة تغيير أي شيء. لم يعد حتى يحاول. حل محل السعي شعور هادئ بالرضا بما في يده، دون مطمع فيما يقع خارج سيطرته؛ لا يعرج بما أوتي، ولا يحرم لما حرم. استسلم حتى فيما يتعق بيني ويوسف قبل يحجزه عن إحراج

ليلي من غضبها ويوسف من قوقته. أنهت ليلي دراستها العليا ببركلي ولم تعد لنيويورك، فلم يحاول الضغط عليها لتعود عملت كمحامية عدة سنوات في لوس أنجليس، وحدثت في عدة علاقات لم تدم أية منها. اتصل بها من وقت لآخر، يسمح لاصداها ويعتق بشيء أو بآخر، وينتهي الحديث بحسب مكنوم، لا شيء أكثر من ذلك. بعدها بسنوات قليلة عادت ليلي لمصر رغبة منها في "عمل شيء جيد". أبدى امتناعه لكنه لم يحجزها اتصلت به بعدها من مصر، وقالت إنها تعرفت على طبيب مصري، لقمان، ثم تزوجته وأغتيت سلمى. صارت تأتي في سلمى - وأحياناً لقمان - لقضاء الصيف في نيويورك يقيمون معه بالبيت، لكنهم لا يقصرون وقتهم معاً، وكأنهم يتشاطرون غنماً. تكاد كيني تكون حلقة الوصل بينهم. أحب سلمى، لكن ليلي كانت غرض على عدم تطور علاقتها به إلى ارتباط. أبقت الكل بعيداً، وهو يرى ذلك ولا يحاول حتى مقاومته. ثم أخذت هذه الزيارات تقصر وتباعد حتى توقفت منذ سنوات. انفصلت ليلي عن روحها - ترى هل سمعت له ساعتها انفصاله عن أمها؟ - وعرف بعدها أنها نجحت وتشدت في حياتها، قال لها في التلويح شيئاً أو شيئين اعتراضاً على ذلك، فتوترت للحادثة بينهما وتوقفت، وأدعى أنها يوسف موجد نفسه وظليته مع الأمم المتحدة أحدثته ليؤثر الصراع في أفريقيا واحدة بعد الأخرى، وظلّ دوماً بلا رواج لم يحاول إنشائه عن هذا العمل الذي وجدته نصيبه للوقت والخيال، ولم يحاول دفعه للرواج. من هو كي يفعل أيّاً من هذا؟ وحين ترك يوسف

عمله بلا سبب واضح، وعاد ليعيش في مونتريال بلا وظيفة تحت دعوى العمل على كتاب لم يقل درويش لايه شيئاً ما الفائدة؟ ليس الأمر أنه لا يهتم بأمرهما، لكنه لم يعد يحاول توجيه حياتهما لم يحاول وقف ليلي أو تعجيل يوسف، لم يحاول جمع شملهم من جديد أو حلحلة عقدتهم القديمة، استسلم لا أحد يفر أحداً.

خمسة وعشرون عاماً وأكثر منذ أدهس للديا. صمدا حدث له الآن وهو جالس على الأرض الخشبية أمام مكتبته القديمة؟ يمسك بكتاب حوراني وكأنه عثر على أداة الخريفة، ويرى الأشياء فجأة في ضوء آخر. يهدوه ودون دراما يشعر أنه فهم، كأنه يقيق من حلم طويل. "أعكدا يكتشف المرء حياته. جالس على الأرض يمرر كتبه القديمة قبل إلقائها في القمامة؟" يسأل نفسه: كيف لم يفكر في هذا من قبل؟ بعد خمسة وعشرين عاماً من موت زوجته يفرح الثور من بين صفحات كتاب قديم؟ يرى ريب كأنها أمامه تنسم ابتسامتها المحبة الواسعة، وفي عيبيها رجاء هذه النظرة هي أكثر ما أحب فيها راندا كثيراً، لكنه لم يفهمها، يراها الآن ويعتقد أنها فجأة وبشدّة ألباني كل هذا من كتاب حوراني؟ لم يمس هذا الكتاب أو يره منذ وفاتها. هل هو الذي أعاد ذكرى ريب إليه الآن؟ يحس إليها من جديد، مشمًا كان يحس إليها وإلى صحتها حين قابلها، وحين سألها أن تزوجه. لو كانت هي الآن لسألها الرواح من جديد. وقتها أدرك أنه يريد قضاء بقية حياته معها هي ولا أحد سواها، والآن عاوده نفس الشعور. هذا الشعور الذي احتق تحت وطأة الستائر الثقيلة والعوصى والمتحانات

المعدلة والمثل المشترك ثم مات مع موتها لكن لم يعد الآن للحياة؟ ألا أنه
 داهب إلى موته هو الآخر؟ أم هو العطاء الحديد الذي وضعه فوق قبره
 منذ ماتت بنجاح الآن، فيخرج ما كان تحته؟

يحاسب نفسه الآن: أليكون قد اقترف الخطيئة التي يعط صدها كل
 يوم؟ هو الذي يعم الشياطين كيف يرجعون مسلماتهم ويشكون فيما
 نعموه ويبدون من جلد، متى راجع مسلماته؟ متى وضع نفسه عملاً
 للشك أو للتساؤل؟ فيم كان كل هذا الاهتمام بعمره سائه بتاريخ العرب؟
 كيف ترك حوراني يقرّر مصير حبه؟ كيف ترك القواعد والمعايير تحق المرأة
 الوحيدة التي أحبها وتحق حياته معها؟ كيف لم يفهم، طيلة هذا الوقت،
 أنه تزوجها لأنه أحبها؟ أحبها رغم عدم مطابقتها للمودج المرسوم في
 ذهنه، فم ترك المودج يفقد حياته معها؟ لم لم يستسلم للحب؟ أليس هذا
 ما حاولت ريب أن تشرحه له حين كانت تسأله عن سبب رواحه بها إن
 كان معترضاً على كل ما تفعله؟ لم يسمعها، الآن يترك أنه لم يسمعها، أنه
 كان يظنها، مثلما كانت حين تقول: يعط. لا يصدق أنه وقع في هذا الخطأ
 الساذج: رجل لا يستمع لما تقوله وروحه، بالتعاقة! نكس لماذا لم يستمع؟
 يتساءل إن كان قد فعل ذلك تحت ضغط صعبة الأولاد صده وصدها؟
 يحاول الآن لومهما على أخطائهما؟ لا، هو المسئول عن أخطائهما، بل وعن
 أخطائهما هو الذي رزع فيهما بذرة ما كان يشكو منه وأنشأهما لبيتها
 بمس الطريق ليبي النابغة، موتورة وتعيش وحدها في عصب أحب أربع
 شباب وهي في الجامعة، وتزوجت بالخامس، وفي كل مرة كانت تصرخ
 لأبيها أنها "وجدت الرجل الذي تبحث عنه". الرجل الذي تبحث عنه!

المرأة التي يبحث عنها؟ من يدري، لعل لديها نسخة من كتاب حوراني
 ويوسف الأعرب الأبدى، ترى ماذا يحمل في جعبته؟ يحاسب نفسه
 الآن: كيف سمح بكل هذه العوضى؟ بل كيف لم يسمح ببعض العوضى؟
 أتري لو أنه لم يسغ للسيطرة على كل شيء بهذه الدرجة كانت الأمور
 ستكون أفضل؟

نظر في ساعتة، تقترب من الساعة ويوسف على وشك الوصول
 لا جدوى من مواصلة فرار الكتب؛ فلنذهب كلها للجحيم. ما الفارق؟
 سيتصل بلبي ويطلب منها المجيء لبيورك، وإن رفضت هذه المرة سيقول
 لها إنه يموت، ويريد أن يراها مرة أخرى. لو استطاع لنذهب لزيارتها في
 مصر، لكنه لم يعد يقدر. ربما يمكنه استبقاء سلمى حتى تأتي أمها، ربما
 أقيم الأم بترك سلمى لتتحق بالجامعة هنا، من يدري، ربما بقيت ليلي هنا
 أيضاً ولو بعض الوقت. وسيحاول إقناع يوسف بقضاء فصل الشتاء معه
 بالشاليه. يمكنه العمل على كتابه المزعوم هناك، أفضل من برد مونتريال
 القارس. سيترقب لهما بحرصه وموته الوشيك. سيصدمهما ذلك، وربما
 يعضبان لإحسانه الأمر عهدهما أو حتى لأنه مر بهن وعلى شفا الموت، فهما
 يتوقعان أنه أن يكون قوياً وصلداً وأبدنياً، هذه هي الصورة التي طبعها في
 مخيلتهما، هذا هو المثال الذي وضعه لهما ودفعهما كي يقدّاه. سيفضيان
 ويشعران بأنه يتحلى عهدهما بموته الوشيك. لكنه سيفتح قلبه لهما، ويعترف
 بأنه أخطأ في تربيتهما: إن يحاول التهرب من المواجهة، سيفترق بأنه
 أخطأ، وبأنه يُخطئ، وبأن الكن يُخطئ. سيحاول أن يكون إنسانياً أكثر،
 ربما يدفعهما لمراجعة أنفسهما هما الآخران. هذه هي فرصته الأخيرة:

رغمًا تنتج الصدمة فليهما، ومع بعض الإلتحاح قد ينجح في حملهما على الحديث إليه بحد، على إخراج ما يدعوه في أعماقهما. رغمًا تنجح الصدمة في دفعهما لتتذكر في حياتهما بشكل مختلف، للتذكير في أخطائهما وفي مسئوليتهما عما حدث لهما فلا يُكرران أخطأه. يدرك أنه لن يستطيع فعل كل هذا في حديث واحد، أو في زيارة واحدة، بل سيتطلب الأمر مثابرة ووقتًا. مازال أمامه عام، أو اثنان.

إن نجح سيكون ذلك أفضل ما يتركه لهما، لا يريد منهما تغييرًا عن الحب، لا يحلم بحياة مشتركة سعيدة في المستقبل، فلم يعد هناك مستقبل. كل ما يطمح إليه أن يساعدهما على تجاوز أخطأ الماضي. ومن يهري، رغمًا يأتي يوسف وليلي لقضاء بعض الوقت معه في الشاليه، ولو لبعض الوقت. وربما بعد أن يموت على صفاك تلك البحيرة، يتذكران أوقاتها الأخيرة معه أكثر من تذكرهما لجراح الماضي، وتكون أيامهم الجديدة تلك هي كل ما يبقى لهما.

قرر أن يفعل ذلك، الليلة. سيبدأ بالحديث مع يوسف، لن يتركه بلود بالصمت. ثم سيتحدث مع ليلي بالليليون، رغمًا في الصباح، بعد أن يتحدث مع سلمى عن فكرة بقائها هنا للدراسة. نظر في ساعته ووجدتها قد تحطت الساعة شعر بقصة: مالذي أثر يوسف كل هذا الوقت؟ سيصل المدعوون في الساعة، يعني هذا أنهما لن يُتاح لهما الوقت الكافي للحديث. سيضطر لتأجيل الحديث معه للصباح إذا، ثم يتحدث مع ليلي في مساء الغد. لكنه سيقابل المحامي في الساعة والنصف صباحًا، ولا يمكنه تأجيل هذا الموعد. قال يوسف إنه سيرحل عائداً لوتربال في

فطار العاشرة، ومعنى ذلك أنه لن يُتاح لهما الوقت للحديث في الصباح. لم يذهب لوتربال بالفطار بحق الجحيم، من يفعل هذا؟ وما الذي أخره هكذا؟ ألم يتعهد أن يأتي في الساعة ليتولى التأكد من تمام شئون عيد الميلاد؟ ألا يستطيع أن يأتي في موعده ولو مرة، مرة وحيدة قبل وفاة أبيه؟ هل يحدثه أثناء العشاء؟ يمكنه أن يتخفى به جانباً ويحدثه، لكن ذلك سيجعل الآخرين يشعرون بحرج، لا، لا يبق ذلك سيطلب منه تأجيل سفره كي يحدثه في الغد؛ سيقول له ذلك عندما يصل، هو الذي تأخر وعليه تحمّل نتائج أفعاله. ثم لماذا لا يسافر بالطائرة مثل البشر؟ ما قصته والفطارات؟ نعم، سيطلب منه ذلك ويحدثه في الصباح بعد رؤية المحامي. سيسير كل شيء على مايرام، طمان نفسه، فقط عليه الآن أن يقوم من على الأرض، ويضع كتاب حوراني مكانه، ويستعد لاستقبال يوسف والضيوف.

www.mlazna.com

RAYANEEN

2

النجوى إلى مارك

عندما لمح راسي المحضّل بفتح باب العربة عدلّ باقة قميصه بسرعة، فهو دائم القلق من أن تكون عائلته الداخلية ظاهرة. شدّ باقة الجاكيت ليؤكد من تعطينها تمامًا. مرّ المحضّل دون أن يخطر إليه، فهو جالسٌ هنا منذ ساعتين. توقّف المحضّل عند الرّاكبة الشابة التي صعدت للقطار في آخر توقّف وفحص تذكرتها ثمّ مضى عائدًا نحو عربة المقصّف. القطار يمتلئ بالركاب الداهيين لنيويورك في عطلة نهاية الأسبوع. هذا هو وقت الشدّة في أسعار السعرة كلّفته التذكّرة مائة وأربعين وعشرين دولارًا كاسية. لو كان قد أبطل سعرة لصباح اليوم أربعين دولارًا، لكنّه كان سيهوت عشاء الدكتور درويش، وهذه أوّل مرة يدعوّه لمُرحله منذ سنوات. اشترى

التذكرة الأعني، ثم فاته القطار حين دام كالحي في محطة واشتغل وعاته القطار. لا يصدق أنه فعل ذلك لكن بعد اثنين وعشرين ساعة جلوس في القطار القادم من ميامي كان ضميًا ولا يفرى كيف دام على رحام محطة الاتحاد في واشطن لكنه دام. وعندما استيقظ أدرك أن قطاره قد رحل، ومع موعده العشاء وكل الترتيبات التي أجراها. وقبل أن يهتار لما أسرع وأخذ القطار الأحمر الداهب لنيويورك. لا يعلم ما سبقه هناك بالضبط لكنه سيفكر في الطريق.

باق حوالي ساعة ونصف ويصل نيويورك. لابد وأن هذه العتاة داهية لنيويورك أيضًا. تبدو في عمر ساشا ابنته. وصحت ساعات في أديها فور جلوسها وبدأت تستمع للموسيقى، لكنها أقيت الصوت محضًا. مالت عليه وسألته إن كان الصوت يضايقه عني. تارة قطيعة هكذا تبدو، لكن من يدري، لعلها تسرق أوبرها غمّس الأربعة عشر دولارًا الباقية في جيبه، وانتمس لنفسه في سحرية لم يعد يشعر بالصعوبة؛ حدث ما حدث ووصل إلى القطة التي وصل إليها. لا يحمل صعبه صد أحد، لا صد رب العمل، ولا صد زوجته ولا ابنته. فعل كل منهم ما شبل عليه، فما فائدة الصعوبة؟ لكنه حزين؛ لم يتوقع كل هذا الجماد وعاصب على عسه، فلو أنه رتب بياته بشكل أفضل، لو كان أنق نساخًا أو تهلونًا معهم لربما عاملوه بشكل أفضل. فكر في ذلك كثيرًا في الشهور الماضية، لكن في كل مرة يعكر في الموضوع ينتهي لنفس النتيجة، وهي أن أولاد هذا الكلام قد هات. ترى ما هو حال سلمي؟ أنكون مثل ابنته، أم أن تربيتها تحصر جعلتها غنلة؟ لم يز سلمي منذ كانت في العاشرة من عمرها، والجات

يتعشون بسرعة في هذه المس يتعشون بسرعة لا تصدق نظر في ساعته ثم في التذكرة. يصل القطار إلى نيويورك قرب منتصف الليل، ويستوحه مباشرة لمرل الدكتور درويش، ثم يأتي مارك وأحده من هناك بعد العشاء ليقدم معه في بروكلين. ويحتر أن يستقر عند مارك سيهد التفكير في كل هذا

راسي الخالس في عربة القطار وفي حبه أربعة عشر دولارًا لم يكن دائمًا هكذا. كان رب أسرة، ولديه بنتين في سن الرواح، يعمل في شركة كبرى للعلاقات العامة بوظيفة مرسوقة تمر عليه دخلًا جيدًا سدّد به كل أقباط البيت الكبير الذي يسكوه ميامي. يعيش حياة هادئة ومستقرة، وعلاقته حيدة بغيره ورمالته بالعمل لم يكن أبدًا شخصًا مشيرًا لاهتمام أو عطف أظفار أرملاء أو الخيران، ليس النوع الذي ندعوه لفعشاء في مرلك كي تقاسر به بقية المدعوين، لكنه شخص محترم ويتمد عليه هادئ وودود، تحافظ في عاداته وأخلاقه؛ لكنه يقبل بالاختلاف ولا يقس أنه في شئون غيره. تخرج من قسم الدراسات العربية بجامعة نيويورك، ثم عمل مع الدكتور درويش في مشروع بحثي لمدة ثلاث سنوات. كان درويش يحبه ليس فقط بسبب القرابة البعيدة التي تجمعهما (ابن عم راسي متروح من ابنة خالة درويش) وإنما بسبب طبيته وعصا راحة.

كان راسي أبص شاعرًا في عممه وهي صفة عارقة في حياة أي باحث، وتنبأ له درويش بمستقبل واعد إن واصل الحياة الأكاديمية لكن وطبعة كبيرة بشركة مشهورة للعلاقات العامة والتسويق جعلته يعز رأيه. وجد أن المرتب الذي سيحصل عليه في شهر يوق ما يمكن أن يحصل عليه في عام

بالجامعة حتى لو صار أستاذًا بها، فقل. لم يُعجب قراره الدكتور درويش وكثيرا. استعرب مجرد تذكيره في العرض وترك الحمامة. وعصب لأن رامي تآزل عن الفرصة التي أتاحها له. كان درويش يحب رامي ويقدره، لكنه شعر أنه حصنه بتكريم وتشريف العمل بجايه، ثم تركه رامي من أجل حصة دولارات. بالترحم أتركه ير حل في امتعاص، وظل رامي يسأل عليه مرة كل عام، ويتلقى منه إجابة مقتضبة. لم يادر درويش قط بالسؤال عليه، لكنه سمح لرامي بمواصلة السؤال عنه، ودعاه لمرته في كل مرة أتى فيها لنيويورك. هكذا قابل سلمي حبيته. كانت سلمي قطعة حيوة، تسعى لصداقة من لا تعرفهم ولا تحشى الغرباء، وحين كان رامي يزور أستاذه في الصيف كان عادة ما يجد سلمي التي تقضي الأجازة مع أمها ببيويورك. أحيانا كان رامي يأتي بابتها ساشا معه ويأخذ سلمي معهما للسيما أو لمرته. لكن كل ذلك انقضى. لم يعد يدع ببيويورك في الأعوام الماضية، وحين فعل لم يعد درويش يدعوه لزيارة. وانحصرت علاقتهما في العائدات السنوية من قبل رامي ورد درويش المقتصب عليها لذا كانت دهشة كبيرة حين دعاه لهذا العشاء. وطبعًا حرص على تلبية الدعوة حتى لو كلفه الأمر الدولارات الأخيرة في جيبه.

مدرحل لمياني للعمل في تلك الشركة وحياته طيبة ومستقرة. وجدت زوجته ماريان، الكورية المولدة والتي تأتي عائلتها من أصول ليبانية، عملاً كمدرسة للغة الأسبانية بمدرسة خاصة قريبة من المنزل، واستطاعا إنفاق ابنتيهما بجامعة ستانفورد المرموقة، بل وحصلت الكبرى، ساشا، على منحة دراسية تُغطي مصروفاتها بالكامل. كل ما كان يُنقص على رامي

حياته هو شعوره بالوحدة. لم يكن قادرًا على شرح حقيقة ما يشعر به لأحد، وعلم يحاول أن يشرح لروحته ماريان ما يقصده بالوحدة ينتهي الأمر بمشاجرة. لجأ لساشا الكبيرة والأكثر عقلًا من مارتان، وحاول أن يشرح لها ما يعنيه بالوحدة، لكن الكلمات لم تستمع. هو ليرحم لم يجد من الكلمات الإغريقية ما يُعبر به عما يقصده بالعبث. وساعتها افتتم أكثر، اجتاحت الشعور بأن الوحدة هي بالعبث هذا، أن نشرح لابتك شيئًا بلغة ليست لغتك، ألا يمكنها فهمك إن تحدثت بلغتك صحت تلك المرة وغير الموضوع، لكن ساشا كانت في تلك المرحلة التي تحاول فيها البست أن تكون كبيرة، وأن تستمع لأبيها وأمها وتحدثهما في أمور الكبار، كي تُبعد نفسها عن الصورة النمطية للمراهقة التي لا تتحدث إلا عن نفسها ولا تستمع لأحد. ظلت ساشا تطارد، وأمام إصرارها بدأ يحكي في البداية قال لها إنه يشعر بالوحدة بمعنى أنه يعتمد على نفسه كلية. دكرته بأن هذا هو وضع الجميع في أمريكا فأثرت على كلامها، لكن هذا ليس العالم الوحيد الذي يعرفه، فهناك عالم آخر مازال يذكره:

- عالم به أهل وأصدقاء يساعدونك في الشدة، تكويني متأكدة أنهم هناك، وأنهم سيقومون بجانيك حين تختارون لهم، سواء كان هذا الاحتياج عاطفيًا أم ماديًا.

قص عليها قصصًا كثيرة من حياة عائلته التي كان برورها وهو طفل في الأحبار، ومن حياة الأقران والأصدقاء والجيران الذين يس معهم علاقات وثيقة أثناء العطلة الصيفية، يعود كل عام فيجد لها قوة، وكأنه تركهم بالأمس فقط. قالت له إن الإنسان يتألم دائمًا في تحميل صورة الماضي لمر

رأسه ياتياً في أسى يحكي لها كيف أنه لم يكسب أصدقاء حقيقيين في أمريكا التي عاش فيها طول حياته، بقدر ما كسب أصدقاء في مصر التي لم يقيم بها سوى حلال عطلات المدرسة. البعض يوم صيق الوقت لكن الحقيقة أن أسلوب الحياة نفسه هو السبب سانگها إن كانت تستطيع ريلارة أي من أصدقائها دون الاتصال مُستقاً، دون ترتيب موعد، وشرح لها كم يبدو ذلك مصححاً إن حدث في مصر الصديق هو من تعرفين أنك يمكن أن تهبطي عليه في أية لحظة.

ظن يحكي وهي تستمع، وتقاطعه من حين لآخر بأسئلة، كَمَا سألته كَمَا افتح في الحديث معها أكثر، حتى اعترف لها أن الوحدة تشمل المتحدث لبياته وروحه بصفة غير لفته الأم، تشمل ألا يمكنهم مشاركتهم في العرجة على أفلام شاذية وسعاد حسني وماجدة، أو الاستماع لعبد الحليم سوماً، أن يحتاج للترجمة حين يتحدث معهم، كأنه مازل في الشركة، ترجمة بالهيار وبالنيل، وليس فقط للكلمات بل ترجمة للمعانيهم. يجب أن يشرح حين يتحدث عن شيء يحبه أو يكرهه، أو حين يحكي لهم عن شيء حزين أو يجري في مصر. الوحدة أن يكون المرء في مكان وكل من يحب في مكان آخر، وعليه أن يحاول العبور لهم في كل مرة يتحدثهم. لم يكن رامي يحفظ أن يقول كل ذلك لانيته، بل لم يكن يعلم أن هذه هي حقيقة مشاعره، لكنها لما سألته وأجاب وشرح بالحنان والأمان استرس في الحديث حتى اعتج باب في نفسه وشرح منه كل ذلك. عندما قال رامي هذه الكلمات لانيته الكبيرة العاقلة سألته لم يكن يعلم أنه قد بدأ سلسلة من التفاهات مستهجي بالهيار حياته بالكامل.

لم تنهار حياة رامي مرة واحدة، بل خطوة خطوة في سلسلة لم يكن من الضروري أن تفصي بعضها لبعض بل على العكس، تدور بعض هذه الأحداث عبر مترابطة وغير مبررة، لكن هكذا تسير الأمور أحياناً، فليست كل قراراتنا نتيجة حتمية لما سبقها؛ أحياناً يكون مُورعين بين اختيارين، وبعد أمسا وقد نجحنا في طريق، ثم يفسد هذا الطريق لقرار جديد وهكذا، بعد عام بعد أنفسنا في مكان لم نحطط إطلاقاً أن نصل إليه؛ أحياناً نترجم، ولكن في معظم الأوقات لا يمكننا فعل ذلك فواصل التقدم. وأحياناً يكون مُصممين على المضي في طريق، ويكون مستعدين للتضحية بالعالي والقيس في سبيله. وورد على أصدقائي إن حاولوا لينا عن قرارنا بأننا نعلم الثمن الذي علينا دفعه ولكن لا ماضي، فهذا الأمر ضروري لنا كي نظل أوعياء لأنفسنا، كيلا نعتقد دائماً أو كي نحققها، أو كي هذا أو كي ذلك، وبعد عشرين عاماً مظهر خبيث ولا نتذكر أصلاً لماذا فعلت ذلك.

سلسلة الأحداث التي قادت لتدمير حياة رامي من هذا النوع. سلسلة من القرارات العارضة التي يتخذها المرء دون كثير تفكير، فذلك منها للآخر وفي النهاية إلى انهيار حياته التي بناها عبر ثلاثين عاماً، باح لانيته الكبرى العاقلة يمكنون نفسه، وشعوره بالوحدة الذي يفتت به مد جاء لأمر بكاء، وأدى ذلك للروح لأمرين. الأول أن سألنا الكبيرة العاقلة، صدمت من كلام أليها، وأكد لديها اعترافه ما كانت تشك فيه سراً منذ وقت طويل، وهو أن الأب لا يحتمل حقيقة، وأن وجد نفسه في حياة مشتركة معهم فواصل هذه الحياة. وأنها وأختها وأسمها في جانب، والأب الصامت الذي ليس

لديه شيء يقوله لنهن في جانب آخر.

أكد اعترافه ماكانت تشك فيه سراً ولا تخز حتى على أن تقوله لئسها، وهو أن الأب من نوع آخر غير الثلاثة هن الثلاثة "طليحات" ومبدعات في الحياة حولهن، أما الأب فهو دائماً الطرف غير المسحوم، الطرف العربي، مد كما في المدرسة وحتى الآن حين تدعو رميلاتها للبيت الأم الجميلة القوية، صاحبة بعض الشيء، ولكنها تتصادق على كل رميلاتها وتعقد عليهن الطعام والرحابة والأسنة، ومشهورة بين عائلات صديقاتها الأحدث محبوة لكنها لا تختلف عن البيات مثيلاتها في هذا السن. الأب هو الشيء العربي في حياتهن، هو العربي المهاجر، هو الذي لديه مشكلة في التأقلم دائماً شيئاً لم تعاطف يوماً مع منطق المهاجرين الذين يتركون بلادهم طوعاً لمكان آخر ثم يشتكون من غربتهم طول عمرها تشعر سراً أن أبها ثقيل يسحبها بعيداً عن الحياة الطليحة التي تربتها، والآل يبدو أنه يريد أن يشدهم إلى ماضٍ أبعد. لم تقل لئسها كل هذا الكلام، لكنه مز في خاطرها، ثم سألت نفسها السؤال السطحي التالي: ماذا يريد بهذا الحديث؟ إلى أين يريد أن يقودنا؟

الأمر الثاني الذي نتج عن هذه المحادثة هو إدراك رامي نفسه للأبعاد الكاملة لما كان يشعر به في قرارة نفسه مد سوات، ولم يمحظه أو يصبغه في كلمات، أو حتى أفكار واضحة. وبعد أن فعل فوجيء بحجم الهوية التي تفصله عما يريد. فوجيء بأن حياته كلها سارت في طريق لم يريد، طريق صعب على نفسه احتماله. سأل نفسه لماذا لم يفكر في الأمر بهذه الطريقة من قبل؟ فكر قليلاً، ثم حلص إلى أنه ربما فكر في الأمر ولم يجره

كبير اهتمام، فقد كان مشغولاً. كان يسي حياته، يبحث عن الاستقرار والتقدم المهني، ثم تأمّن وضعه لذلك ووضع أسرته، وقبل كل ذلك برعى روجته وابنتيه ويهتم بتعليمهما وتربيتهما، والبيت، ومن بقي من أهله في مصر ومقتضيات المساعدة في الوفاء ببعض احتياجاتهم، كل ذلك كان أشد إلحاحاً وصعفاً على حياته اليومية وتفكيره من أن يترك له الفرصة لتفكير في وحدته. الآن، ومد رحيل الفتاتين للجامعة وشعوره بالوحدة يترادف في البداية فسرهما بأنها تلث الوحدة التي تصيب الآباء بعد رحيل أولادهم، لكنه لما حاول المصعصة لروحه وفشل، ثم بحث عن أصدقاء ليشاطرهم الحديث، ولا حظ أنه ليس لديه أصدقاء حقيقيون أدرك أن المشكلة أعمق وأكبر. ثم حدثت ساشا باستئنها وحاشها اللحن أطلقاً لمشاعره الصامت. ومن ساعتها وإحساسه بالوحدة والعز لا يطرده أن يعيش أسير هذه الحجة يتعاقبها ويحتل مساحة أكبر مأكبر من تفكيره ومن تركيزه وكلمته فكر في وحدته تلك أكثر كتف ردت لعميتها في نظره، حتى لم يعد يفكر في شيء سواها.

الأمر الثالث المتجاذب عن عمية الوبح لساش العاقلة أخذنا أنراً ثالثاً، عند مازها فعندما سببت الفراق بسببها في أعقاب هذه المحادثة، ولم تستطع أن تستبط وحدها هدف الأب من طرح هذه الأفكار العاصفة، قررت أن تشرك أختها الأقل عقلاً، مارتا، فرغت الصغيرة، التي قبل الجميع دورها كمحبوبة العائلة، لما سمعتها، وصرحت في وجه أختها أن ذلك يعني ولاشك أن الأب يريد أن ياحدهم من أمريكا ويرسلهم ليعيشوا في مصر استعدت ساش هذا الأمر باعتباره جونا مارتونياً، لكن مارتا لم تستكت،

وظلت تشرح لسانا العلاقة بين الأمرين. الأب في السابعة والخمسين من عمره، لم يعد لديه ما يطمح لتحقيقه في أمريكا، وبعد رحيلهما من البيت يشعر بوحدة، وهو شيء طبيعي. كما أن علاقته بالأم باردة بعد عقود من الزنابة الزوجية، وهو شيء طبيعي أيضا. ماذا يفعل؟ سألتهما مارتا في غداء وأحبات دون انتظار رد أحدهما. الناس الطبيعيون يدخلون في علاقات حب جديدة أو يحبون زوجاتهم، أما المهاجرون غريب الأطوار مثل أبيهم فيعكرون في العودة لبلادهم الأصلية. لم تقنع ساشا، فهذه ليست أول مرة تخرج عليها مارتا بتعصبات عربية لأموه في غابة البساطة. فذكرتها مارتا بما حدث لمرنا ولوراسد عامين، وهدى التي عزت من بيت أبيها عندما حاول إعادتها بالقوة لسوريا، وغيرهن من أصحاب القصص المشابهة. ثم عاجلتها بالحجة القاصية. "كلهم آباء لبنا في مسا، قلقوا فجأة مما سيحدث لبناهن عندما يقتربن من سن الزواج، وكنهم رحلوا أو حاولوا الرحيل في هذا الوقت" لكن ساشا لم تقنع بعد بالرغم من حجة مارتا القاصية.

كان من الممكن أن ينتهي الأمر هنا، لو أن مارتا المنجومة لم تهرع لأمرها العظيمة كي تخبرها من العصية التي ستحل عليها جميعا، وما لم يكن الشك قد تسرب لبعض ساشا في نفس الوقت، حتى وإن لم تسلم بفكرة مارتا. كان من الممكن أيضا للأمر أن ينتهي هالو أن الأب، السيد رامي نفسه، لم تأخذه الحماسة فجأة، ويقترح على مارتا التفتة أن يقضوا شهر العصف الثلاثة في مصر، هم الذين لم يقضوا في مصر أكثر من أسبوعين متعاقبين مارتا، التي تحب أن تصف نفسها بأنها مريجة ثلاثي من العفلة الأمريكية،

والقوة الفكرية، والشظارة اللبنانية، قررت أن تأخذ بزمام الأمور في يدها. وقد أدى قرارها ذلك لتسريع سلسلة الأحداث التي ستؤدي، بعد تسعة شهور من ذلك اليوم، إلى طلاقها من رامي وتجريده من كل ما يملك، ومن الحق في رؤية ابنته.

لم يكن يريد أن يتأخر على الدكتور درويش فهو مهووس بالدفعة، وليس معه تايكون محمول كي يتصل به ويخبره أنه لن يأتي. تحلى من المحمول مع الأخياء التي وحب عليه التحلي عنها بهائيا خلال الشهور الثلاثة الماضية سيصل نيويورك عند منتصف الليل، ثم ماذا؟ سيكون العشاء قد انتهى، ولن يرى سفي، ومارك سيذهب لمقابلته عند منزل الدكتور درويش عليه أن يكون هناك في الثانية عشرة بالضبط والآن على يستطيع العثور على مارك. بحث في التذكرة وهي الشاشات للعلقة عن علامة يقبض بها تقدم القطار فلم يجد. وعندئذ جلس إلى أنه لا مفر من السؤال إن كان يريد أن يعرف ما إذا كان القطار سيصل في موعده. فكر أن يسأل الراكبة الشابة الجالسة إلى يساره، ثم تراجع. عسى الأرجح أنها لن تعرف. قرر أن يسأل المحصل، وظل يتحين عودته للبرية لكنه لم يأت. بعد دقائق استجمع شجاعته، وقام متوجهاً لنصف القطار ليُسأل أحد المحصلين الجالسين هناك مريم العربتين وأفكارا سوداء تعمر رأسه عن وقوعه على القصبان كالعادة عندما يمر برمي قطار، ثم دخل المقص، وتوجه للمحصل يسأله بهاب هذه اللحظة، لا يحب أن يسأل الغرباء، وبالذات الأسئلة التي يشتت فيها ذهنه بالظلم. لأم نفسه وهو يهم بالسؤال. لو كان يعرف نظام مواعيد القطارات لما وضع نفسه في هذا الموضع. المحصل

يظهر إليه بنحوه شتطاً السّوال يتلعم رامي قليلاً ثم يطرح سؤاله.

أجابته المحصل دون اهتمام بأنّ القطار سيصل بيوبرك متأخراً سبع دقائق. شكره رامي بحرارة لم يلتفت لها للحصول، وشقّ طريقه عائداً يظهر في الطريق لمركا ب الخاسرين في مفاعدهم، ويحاول قدر استطاعته أن يبدو أيقناً شدّ ياقة الحياكة مرة أخرى كيلا يبدو هزلته مهلهلاً، وابتسم لطلعي نظر إليه بحدة ولم يحجبه الانسجام، ثم عاد لمقعده وجلس ينتظر.

عندما يعيد رامي التفكير فيما حدث يجده طبعياً ومطعناً، بل وضروباً كان لا يحد - في رأيه هو - لكلّ هذا أن يحدث! المسألة كانت مسألة وقت، ولو كان حصيفاً لأعدّ العدة لذلك بدلاً من أن يعقد السيطرة على الأمور، ويجد نفسه بلا مأوى وبأربعة عشر دولاراً فقط من كلّ ما أذخره طيلة ثلاثين عاماً من العمل. ما يحزّ في نفسه هو الشك، وموقعهما الذي لم يجد له تبريراً. وجد له تفسيراً، لكنّه ليس تبريراً. لم يكن عليهما أن يعملوا ما فعلوا، ولا أن يقولوا ما قالوا له، خصوصاً ساشا. مارتا طوّل عمرها بحسرة ويتوقّع منها هذه الأمور، أما ساشا، العاقبة، فكيف تقبّر سلوكه ومشاعره بهذه الطريقة، وكيف نظرت أنه يمكنه أن يلحق بها أو بأختها الأذى؟ هذا ما لم يفهمه ولا يتفهمه إن فهمه.

يسأل نفسه كلّ يوم تقريباً كيف يمكنه أن يلوامه على مشاعره، على رغبته في الرحيل لئلا يكون فيه أسعد حالاً، هو الذي لم يعمل في حياته سوى تشجيعهما على البحث عنّا بسعدهما. كيف يكون بحته عن سعاده تهدّداً لهما أو لأمههما وإذا كان قد احتلّ مع مارتا، فهذا

شأنه هو، لم تأخذ الشك جانباً في مثل هذا الخلاف؟ لأمهما كثيراً، ولأم على نفسه أكثر عدم قدرته شرح موقفه لهما، بما يجعلهما يفهما. لكنّه لم يكن حقيفاً في شرح مشاعره يوماً، وكساً همّ بالتحدث معهما انعقد لسانه وطارت الكلمات. يريد أن يقول أشياء كثيرة، لكنّها تنهي دوماً بأنّ تخرج من فمه في كلمات قليلة وغير محفزة على النقاش، فردّ الشك بكلمات قليلة مثبها، وموت المحادثة. شيء ما في طريقته بطلني، المحادثة، هذا ما قالته له مارتا ألف مرة على الأقل، وهو يحسّ أنها عميقة في هذه النقطة.

الأمر الذي لا يجده رامي منطقياً أو ضرورياً، أو حتى طبعياً هو فقدانته عمله في نفس الوقت. صحيح أن لثّل يقول "إنّ لمصائب لا تأتي فرادى"، لكن هناك أمثلة كثيرة، مثل "إنّ الصائقة تخرج حين تستحكم حلقاتها"، علماء تحقّق هذا الثّل بالذات في حالته. بعد كلّ هذه السنوات من العمل في الشركة، وبعد الصّعاب التي مرّ بها والمكاسب التي حقّقها لشركته، والعلاقات التي عمّما مع زملائه ورؤسائه بل وأعضاء مجلس الإدارة، بعد كلّ ذلك يتمّ فصله، هكذا دون مقدمات، مثل فيلم رخيص. رامي مترجم، وإن كان المسنّى الوظيفي لمصعبه أكثر حماسة، كاتب كبير هي ترجمة غير دقيقة للكلمة SENIOR التي تشل رامي في الدور على ترجمة دقيقة لها في هذا السياق، وهي في حدّ ذاتها معارفة طمّت نذكره بحث الوظيفية التي يقوم بها ما يعمله ككاتب كبير هو أساساً ترجمة مواد إعلانية وترويجية من الإنجليز إلى العربية، مع تحويرها بحيث تلائم السوق العربي ودوق المستهلث. وهو يعمل هذا لعددٍ غير محدود من الشركات

التعاقد مع شركتهم، أحياناً لكنّ منتجاتها وأحياناً المنتج واحد. ومن ثمّ فعليه كتابة مواد ترويجية لأشياء متنوعة قد تكون خصائص، تيمونات محمولة، مشروبات غازية، مشروعات عازية، جلسات تحميم، وتليك، ساعات، شيكولاتة، سيارات، وعشرات السلع والخدمات الأخرى يدخل مكانه في الصباح وهو لا يفهم ماذا سيهبط عليه في ذلك اليوم! قد يكون طرازاً جديداً من السيارات أو لبوساً خاصاً للحرارة. لا يهمه وعليه أن يكون حلاقاً ويجد شيئاً جديداً في هذا المنتج. يأتي المنتج ومعه ملف يتضمن مواداً ترويجية بالإنجليزية، وعيه أن يقدح دعه في ترجمة الرسالة الإعلانية لشيء يمكن استخدامه في السوق الخليجي، أو المصري أو الليبي، على حسب.

برع في الأمر، بل ويحج في مرات أن يوسع السوق، ويأتي بهؤلاء جدد من أسواق الشرق الأوسط. جعل ذلك مثلاً مع مارك مد عدة سنوات عندما أرسلتهما الشركة لأثر دن لمدة عام. لكن الشركة عصّت النظر عن كل هذا، وقررت إنهاء عقده. أتى مكتبه في الصباح فاستدعاه مديره وأخبره أن الأرملة الاقتصادية تضطر الشركة لتزك برحل. لا يريد أن يرحل. سأله عن علاقة الترجمة بالأرملة الاقتصادية، فقال له مديره إن الكثير من الشركات للتعاقد معهم تقصت أعمالها في الشرق الأوسط نتيجة الأزمة، ومن ثمّ لم يعد الأمر يستحق الاحتياط به. قال له هذا، وانتم قال رامي بعض الأشياء التي يقال في هذه الأحوال، لكنّ المشهد كان مبهماً بدرجة تتجاوز تخمّله، فابتسم ليحافظ على ما بقي له من كبرياء، وأشاح بملامحه في الهواء بروح رياضية، وجمع حليجته من المكتب ومضى. المصالحك في الأمر أن

ماريا استطاعت، بمحبة المحامي طبعاً، أن تضع يدها على مكافأة نهاية الخدمة ومرتب الشهور الثلاثة التعويضي. وها هو وأربعة عشر دولاراً في جيبه، وحقية كبيرة لا تغني إلا على بعض الملابس، جالس مدست وعشرين ساعة في قطار، ذاهب لشخص لم يره مد سنوات في مدينة لا يكاد يعرف فيها أحداً.

انهارت حياته خلال عام بالخص، ولكنّ الشهور الثلاثة الأخيرة كانت الأشدّ قسوة. وقع الطلاق بعد ستة شهور من قرار ماريا أخذ رمام المبادرة، وعقد كل ما يملك خلال الشهور الثلاثة التالية، بما في ذلك عمله ومستحقّات نهاية الخدمة، كما أرغسته المحكمة بالآ يقترب من بنته، أو من ماريا بمساحة خمس مائة متر، وذلك لمدة عام قابل للتجديد. وتبقى معه مئة مائة دولار، عاش بهم خلال الشهور الثلاثة الأخيرة، بما في ذلك ثمن تذكرته لبيورك أقام خلال تلك الفترة في عرفة أحد الأصدقاء الذي كان في عمل خارج ميامي، ودعاه للإقامة مكانه دون مقابل حتى يجد حلاً لمشاكله. تحلّص من كلّ المصروفات غير الضرورية، كالمترو، والتليفونات، وتناول الطعام خارج المنزل، والذهاب للسيسا ومشابه ذلك. كما ابتعد عن السّبع المكلفة كاللحوم ومعظم المواكه وحسب الانفطار، وبذلك أمكّه أن يعيش بمئة دولارات في اليوم. لم يكن لديه أية فكرة عمّا سيعمله بعد نهاية الشهور الثلاثة هذه وبالأمر، في اليوم الأخير قبل عودة الصديق، اتصل مارك صديقه بتليفون هذا الصديق يبحث عنه لغرض ما فوجد رامي.

لم يكن رامي ومارك قد التقيا أو تحدّثا منذ أكثر من عامين، لكنّ صداقة

قوة كانت قد توصلت بينهما خلال إقامتهما في الشرق الأوسط لحساب الشركة مد عدة سنوات وقتها لم يكن ليهما يحتاج للمساعدة. مارك يقدم نفسه دائماً باعتباره ابن أقليتين، في إشارة إلى أمه الكاثوليكية وأبيه اليهودي. ورغم انعدام صلته بالدين اليهودي إلا أن اسم عائلته -بيومان- ومعرفته ببعض العبرية مكّنه من إقناع الشركة بإرساله لإسرائيل لتسويق بعض منتجات الشركات المتعاقدة معها، وذلك في نفس الوقت الذي كان فيه رامي دائماً لعمان لمدة سنة، ليعمل على تسويق هذه المنتجات في البلدان العربية.

لم يكن عملهما متداخلاً، لكنهما تقاهما جيداً سوياً، وأدارا عملهما بحاج منقطع النظر خلال هذا العام من مكتب صغير استأجراه في العاصمة الأردنية. كان مارك يكره الإقامة في إسرائيل، ويشكو لرامي صعوبة التعامل مع الإسرائيليين ويندحل في مشادات لا تنتهي معهم، ومن ثم قرر الإقامة في عمان التي كان يحب هذوعها وناسها. وقد جعل ذلك رامي أكثر اعتناخاً لإزائه، إلا أن الذي حبّه فيه عملاً هو قدرته غير العادية على احتراق حوار الحرج والتحفّظ التي يحتمي بها رامي. مارك يتحدث بعراحة ودون وجل عن مشاكله مع عائلته ومع نفسه، ومع دهبته ومع الجنس الآخر، ومع عمله ومع الحياة في أمريكا، لدرجة استر رامي أنه أمره يكي. وبدأ رامي نفسه يفتح في التعامل معه حتى أصبحا يقضيان معظم الأيام سوياً في عمان، وهي أماكن أخرى بالأردن لم يكن رامي يدرى بوجودها أصلاً. عملاً سوياً وعاشاً سوياً، وسافراً كثيراً، وبحج عملهما يجدّحاً باهراً، وصعاً لعمسهما ثروة صغيرة وكثيراً من الذكريات،

ثم عاد، وبعبءا بقليل تشاجر مارك مع مديرهما وترك العمل بالشركة، ثم انتقل للعمل مع شركات منافسة، وانتقلت أخباره وتفرقت بهما الشل. اشغل رامي في حياته وعمله وأهله والمحيطين به، وعاب مارك عن دائرة اتصالاته حتى ذبلت الصلة بينهما وهاهو عفاة عني التليهن بالصعدة سألته مارك عمّا يعمل في عرفة الصديق المشترك، وعلى غير عادته تجاور رامي حاجر الكبرياء، وأفضى لمارك بما ألم به خلال العام المنصرم. عرض عليه مارك فوراً الانتقال للإقامة معه في سرله وبيروكلين. قال إنه يمكنه البقاء مثلاً يحلو له، ويمكنه أن يترجم بعض الأشياء للشركة التي يعمل بها، فهناك دائماً بيان صحفي أو شيء ما يحتاج للترجمة، وربما يمكنه أن يترجم بعض الأشياء لموقع الشركة على الإنترنت أيضاً. فهم يعملون مع شركات حليجية، ومن وقت لآخر يحتاجون لترجمة شيء صغير بسرعة، وهي شعلات صغيرة لكنّها تُدرّ مالاً. ربما يستطيع أن يعمل معها خمسة أو ستة في الشهر، بما يدر عليه حوالي ألف دولار، وهو مبلغ لا بأس به في ظل الظروف الحالية. ثم من يدري، ربما يحلو مكان أو يظهر شيء هناك دائماً أشياء تظهر إن كنت تعرف أحداً، ومعارف مارك كثيرون والشقة كبيرة، ومن ثم لن يكون في طريق أحد.

هناك أيضاً السيارة الصف بقل الشراء التي اشتراها مارك مؤخراً، ويمكنه أن يستخدمها في عيابه إن أراد. قال له مارك أن يائي ولا يشغل باله بشيء، مما الحاجة للأصدقاء إن لم يكن في هذه الأوقات القصية. كان لطيفاً وودوداً، تماماً مثلاً كان أيام الإقامة في عمان، ولم يكن لدى رامي أي حل آخر، فقبل عرضه اتصل بأستاذه القديم قبل سفره ليرى ما إذا

كان موجوداً وزايفاً في رؤيته، عمره على العشاء بمسألة زيارة حميدته. أشعره ذلك ببعض الراحة، كأنه هو التقدم وله أصدقاء ومعارف، وبيوت تدعوه. اشترى التذكرة بمحظم ما بقي معه من مال، وما هو ذا، في قطار داهب لنيويورك لكن بعد هزات موعد العشاء، وربما موعد مارك أيضاً. حقيقة، المصائب لا تأتي فرادى.

خطر بباله أن يسأل الدكتور درويش عن وظيفة، لكنه طرد الفكرة من رأسه بسرعة. لن يجرؤ، مهما كانت حالته سيئة لا يستطيع إهانة نفسه لهذا الحد. علاقته، بمارك تسمح بذلك، أما الدكتور درويش فأمر آخر. عليه الحفاظ على ما بقي له من احترام في أعين الناس الذين يعرفونه ويحترمونه لا يستطيع أن يفقد هذا. كما أن الدكتور درويش لن يحبه وظيفه بعد ما جرى بهما في الماضي حتى لو كان لديه واحدة. لا، لا يستطيع طلب المساعدة من الدكتور. لكن سعى يمكن أن تساعده.

سلى تعرف ساشا منذ كانت تأتي لقضاء الصيف في نيويورك صحيح أنهما ليستا على علاقة وثيقة، لكنهما كانا يستلطان بهما كثيراً وهما صغيران. كانت ساشا تلج عليه أن يصطحبها حين تعلم أنه داهب لزيارة الدكتور درويش وأن سلى موجودة. كانت الطفلة تمان قضاء الوقت سوياً، أحياناً كثيرة دون أن يعلا شيئاً. سلى وقتها لم تكن تتحدث الإنجليزية سوى ببعض كلمات وجمل ممكنة. وطبعاً ساشا لا تعرف العربية. لكنهما يلعبان مع بعضهما دون ملل، في عالية الأوقات دون وجود لعبة حقيقية - مجرد دمية نكبي. وكان هو يحب صداقتهما لأنها توحي له بما يشبه إمكانية تحول ابنته لفتاة مصرية، على الأقل يوماً

ما إذا ما أصبح لديها صديقات في مصر كما كانت ماريا زوجته تؤيد هذه العلاقة؛ لأنها تتيح لها التحنن من ساشا بضعة أيام. وحين يذهبون لمصر في الإجازات كانت الفتاتان تلتقيان - دون أمهاتهما اللتين يرتبان الزيارة بالتاليون كبرت سعى. توقفت أمها عن المحي، ليو يورك لسبب لا يعلمه راسي. لكن الفتاتان وجدنا بعضهما بالصدفة على إحدى شكاك التواصل الاجتماعي لموجود على الإنترنت، وأصبحتا تبادلان الرسائل من وقت لآخر.

لم تذكر له ساشا شيئاً عن سلى منذ بدأت الأحداث، وهو لا يعلم شيئاً عن موقعها ما حدثت بينه وبين البنتين، أو حتى ما إذا كانت تعرف بما حدث. لكنه يريد أن يراها كي يحكي لها وسألهما عن رأيها. ربما تساعده. ربما يمكنها أن تقنع ساشا بأنه لم يقصد إهداها أو إهدا أختها، بأنه لم يكر في احتفالهما أبداً، بأن ذلك ظلم وحزن. ربما لو اقتنعت سلى بإمكانها أن تقنع ساشا بحسن نواياه. ربما يمكنها تذكيرها بأنه أيها. أو على الأقل، يمكنها أن تحب ساشا بماهية عه أنه يحبها رغم كل ما فعلت، هي وأختها المصورة. وربما لو اقتنعت سلى، ثم ساشا، ثم مارتا، لأمكنه أن يراها من جديد، بعد أن تستقر أحواله مع مارك في بركليون، بعد أن يجد عملاً جديداً، ويقف مرة أخرى على قدميه. لكن ماذا سيعمل الآن؟ ربما يستطيع العثور على سعى في الصباح، إن لم تكن عائدة لمصر فوراً - لا، لا بد أنها باقية على الأقل ليلوم التالي. ولكن هل سيجده مارك الليلة، وكيف؟ وماذا لو لم يثر على مارك هذه الليلة، أين يذهب؟

طرد هذا السؤال فوراً. ذكر نفسه بعدم جدوى الخوف. صحيح أن

أحداث العام الماضي كانت كابوسية، لكنها في نفس الوقت حزنونة من خصوصية لمخاوفه السرية. عندما يحدث لك الأسوأ، لا يتبقى عندك الكثير كي تحاف عليه. ما اكتشفه رامي خلال العام أنه قد عاش حياته كلها وهو يخاف، وبكم الخوف من نفسه. أدرك، بعد أن انهار كل شيء من حوله، أنه كان يخاف بالصُّبُط من حدوث ذلك. ظل يعمل ويكافح، ويبني علاقات حسنة من حوله، ويتعاضد المشاكل، يُخلص لنظام ويتعاضد أي أمر يمكن أن يضعه في موقف محال للفقانون أو للعرف. إقراراته الصربية ملأها بمشهي الأمانة، دفع كل موافقه في موعدها، لم يحالف قانون المرور أبداً، لم يرفع صوت الموسيقى يوماً في بيته، لم يُهرج القمامة في غير موعدها، لم ينظم حفلاً في غير أيام نهاية الأسبوع، لم يشغل منزلاً في غابة خارج الأماكن المسموح فيها بذلك، لم يشو حتماً على الشاطئ، لم يعمل أي شيء يمكن أن يُفسر على أنه استهتار بالقواعد العامة، سواء كانت قانوناً أم مجرد عادات، ودللت على أمل أن يحتويه النظام ويحميه، فلا يجد نفسه يوماً في المواقف التي يجد فيها الكثير من المهاجرين أنفسهم في الشارع، مطرودين من أعضائهم وحياتهم الاجتماعية تنهار من حولهم لكن ذلك بالصُّبُط ما حدث له. واستطاعت ماريما التي كانت دوماً أكثر منه حيلة وأسرع، أن تُجنّد النظام لصالحها وتلوي قواعده، بحيث وجد نفسه في الشارع وحياته تنهار. لم يُسغه أحد، لم يقف أحدٌ لسجده، حتى يُقال لهي لم يدعه يأخذ مشرواته حين رفضت ماكينة الدفع قبول بطاقة الائتمانه. انقضت عنه الجميع غمماً مثلما كان يحشى.

في منتصف الطريق، في وسط تسلسل الأحداث الدرامية التي وقعت

له، توقف أكثر من مرة ليعتكر فيما يحدث. هل كان ذلك حتمياً فعلاً؟ ألم يكن يستطيع التراجع في المنتصف؟ لو كانت ماريما قد عثرت له عن تفهيمها لمشاعره في بداية الأمر بدلاً من تهنيئها له، لربما لم يكن الأمر قد تطور بالشكل الذي تطور إليه لو لم تكن ماريما بالسفالة التي أبدتها بعد ذلك مباشرة - وبدعم من ماريما، لربما لأن موقفه ساعتهها. ولو لم يكشف أنه ماريما كانت تسجل محادثاتهم سرّاً لما حسم على الطلاق بهذا الشكل. لكن شيئاً أسلم لآخر، حتى وجد نفسه في هذا القطار.

أثناء الشهور الثلاث الأخيرة، بعد أن توقف عن محاولة استئناف الأحكام الصادرة لصالح زوجته، بعد أن استسلم لقدره الجديد - بل ووجد فيه بعض الراحة، قرّر أن يتخذ ما اتهمه به الجميع أن يعود لمصر. عصى بمقرر العداء ليو ميم واشترى بطاقة اتصال دولي، واتصل بأخيه في القاهرة. استمرت المكالمات الأولى ست وأربعين دقيقة، شرح خلالها لأخيه ما حدث خلال الشهور التسعة الأخيرة وما آلت إليه أحواله، وأخبره عزيمته العودة لمصر، وتناقشا فيما يمكنه أن يفعله حين يعود. واتفق في نهاية المحادثة على أن يتصل رامي به ثانية بعد ذلك بأسبوع، بحيث يكون قد استطاع بعض الأمور لشجنته من اتخاذ قراره.

قصي رامي هذا الأسبوع يرسم خطط العودة، وما يمكنه أن يفعله حين يعود. يجلس في حديقة عامة معظم النهار، ويسجل في دفتر صغير أسماء كل من كان يعرفهم في مصر، وآخر مرة تحدث مع أو قابل أيهما، وآخر ما لديه من معلومات عن هذا الشخص. في يوم آخر يذهب للمسكنة العامة، ويبحث على الإنترنت في الأنشطة التجارية الموحدة بمصر التي

لها علاقة بحبرته، ويتصّحح مواقع شركات الإعلان والدعاية والعلاقات العامة، ثم يكتب ملاحظات حول أنواع العمل التي يمكن أن يقوم بها، وأسماء وبيانات الأماكن التي يجب أن يستطلمها. في يوم ثالث يستجمل ملاحظات حول المكان الذي يمكن أن يقيم فيه في البداية طبقاً سيقم عدد أحيه. ويمكن أيضاً أن يقيم بشقتهم الصغيرة في الإسكندرية حتى تستقر الأمور. يستجمل ملاحظة بذلك، ثم تذكر البيت الذي كان والدها يقيم به في كوبري القبة، ربما يكون من الأنسب أن يقيم بهذا البيت، فيستجمل ملاحظة كي يسأل أخيه عنه، وهكذا. ما تبقى في بطاقة الاتصال يكفي للمحدث لمدة ست عشرة دقيقة؛ فكر أن يشتري بطاقة أخرى، لكنه قرر في اللحظة الأخيرة ألا يفعل. سيتصل ويتحدث مع أخيه بما لا يتجاوز هذه الدقائق، ويشتري البطاقة بعد ذلك للمكانة التالية. وقد كان قراره صائباً، لأنه بهذا قد وفر لعمه عشرة دولارات ستعلمه لمدة يومين كان سيحسهم دون سبب عالمكة الثانية لم تستغرق أكثر من ست دقائق، وما زال رامي يحتفظ بطاقة الاتصال ودقائقها لتبقي في محفظته.

رامي رجل مهذب وودود، ولا يحب المواجهات ويميل لالتماس العذر للآخرين، لكن ذلك لا يعني أنه عيب. وقد فهم من الدقيقة الأولى للمحادثة ما يريد أخوه أن يقوله له، وبعد أن قضى دقيقة ونصف يستمع لتعليمه سألته مباشرة إن كان يتصوره بعدم العودة لمصر، فأراح أخاه من صاء اللب والدوران، ووفر لعمه دقائق إضافية في بطاقة الاتصال. رد أخيه بالإيجاب، ثم قضى دقيقتين أخريتين يشرح لماذا يعتقد أن عودته في هذه الظروف ستكون كارثة؛ تضعه في موقف لا يحتمل اجتماعياً، وتضّر

بالأسرة كلها، وكيف أنه لن يستطيع أن يقف على قدميه في سوريا لا يعرف عنه شيئاً ودون مهمة مطلوبة في مصر، وهي سة هذا ومع استحالة تأقلمه مع الحياة في مصر في ظل تعوّده على غط الحياة الأمريكية. وعندما سأله عن بيت والديس رد أخوه بعصية أن البش في مثل هذه التفاهات لن يحل المشكلة، وأنه سرحب به إن أراد القدوم صعباً لأي مدة يريد، أما فكرة الاستقرار في مصر فهي أمر آخر، ومتطلباته لا يقوى عليها. شكره رامي نصراحتة وتواعدها على مداومة الاتصال، وأعلق الحظ قبل أن يستهلث دقيقة سابعة بلا جلوي.

يعكر رامي في كل ذلك، ويهز رأسه ساحراً من نفسه ومن حياته. يُعيد عدل باقة الحماكت للمرة العاشرة، ويرقب بقل من باعدة القطر لراكبة الشابة عادت في المحطة السابقة. عربة القطر حاوية تقريباً يشو أن القطر يدخل محطة "بي-بيورك". فجأة عاد السؤال: ماذا لو لم يعثر على مارك أمام بيت درويش؟ كان الاتفاق أن يأتي لاصطحابه بعد العشاء، وقال مارك إنه سيأتي قبل منتصف الليل بقليل. ماذا لو كان قد جاء وانتظره ورحل؟ أو سأل الدكتور درويش فقال له إن رامي لم يأت للعشاء عطى أنه غير الخطأ ورحل؟ أين سيذهب رامي بدولارائه الأربعة عشر الأخيرة؟ ليس لديه شيء لا مال ولا بطاقة ائتمان ولا أي شيء. ولا يعرف حتى أين يسكن مارك. يمكن أن يُحاول الاتصال به، لكن ماذا لو كان تليوميه معلقاً أو خارج الخدمة. أين سيذهب؟ وماذا لو كان مارك قد عرّص عليه للحج من باب الإحراج أو حتى الخداع؟ لكن لماذا يحدده مارك؟ لماذا يجرّه إلى هنا ويعطيه أملاً كاذباً إن لم يكن يريد مساعدته؟

هل يريد الانتقام منه لشيء فعله في الماضي؟ يدكر بسرعة إن كان قد فعل شيئاً لمارك في الماضي ولا يجد. فلماذا يجره إلى هذا المكان كي يتحلى به إذا؟ لماذا يتوَدّد إليه حتى يدفعه للفر في درعيه، ثم يتركه يهوى على الأرض؟ لكن يمكن أن يرحل مارك من الرق، بعد أن ينتظر ولا يجد.

عقل رامي يحمل بسرعة شديدة الآذ، والقطار يتوقّف داخل المحطة. أين يذهب لو لم يجد مارك أمام سرل درويش؟ أين يقصّي الليلة؟ لا يمكنه أن يطلب من الدكتور درويش إيواءه، لا يجرؤ على ذلك، ويعلم أن الدكتور درويش لا يحب هذه الأشياء البتة ماذا يفعل إذن لو لم يأت مارك؟ هل يجد صدقاً يقبل به دون بطاقة ائتمان؟ وكيف سيدعم؟ هل يمكن أن يرل في فندق رخيص، ثم يبحث عن عمل ويدفع عندها؟ لكن من الذي سيوظفه؟ لقد حاول في ميامي ولم يلق سوى السحرة. لم يتمكن حتى من العثور على وظيفة ساقى في بار، لا حيرة له، ولا أحد يريد رجلاً في منتصف العمر ودي لكثة وسحة عربية. ربما يجد وظيفة في محل برجر، في المطبخ. لن يلحظ أحد لكثته هناك، لا ربان ولا أطفال متعصب وجوههم حمر لا يهتمون حديثه. ولكن كيف يجد وظيفة في محل برجر اليوم أو خلال أسبوع؟ لا، لن تسير الأمور بهذه الطريقة يدكر إن كان يعرف أحدًا يمكنه أن يساعداه هل يتعلّق ما بقي له من كبرياء، ويطلق باب الدكتور درويش في منتصف الليل ويسأله أن يأويه؟ ثم يسأله في الصباح أن يجد له عملاً؟ لا يمكن، لن يجرؤ، وإن طرق الباب فلن يفتح له أحد في هذه الساعة. من سيسأله إذا؟ هل بيت في سترال بارك؟ وإلى متى؟ معه أربعة عشر دولارًا يمكنه أن يعيش بها ثلاثة أيام لو قصى الليل في سترال

بارك. لكن ماذا يفعل بعد ذلك؟ يدكر ويعلم أنه يتوه بأفكاره. لا يعرف أحدًا أصلاً كي يسأله المساعدة. لكن لم سيحتج مارك؟ ألم يكن هو من عرض المساعدة؟

الركاب ينادون القطار، ورامي يجر قدميه وحقيقته شبه الفارغة الركاب القلائل يجر حون من القطار بسرعة؛ إما يقابلهم أحد أو يتو شجون بثقة لمكان ما، أما رامي فيسير وهو يقدّم رجلاً ويؤخر الثانية. بمشي وكأنه لا يريد أن يمسي. يؤخر حروجه من الرصيف لصالة المحطة كأنه يؤخر مقابلة مصيره الذي لم يعد يعرف كيف يواجهه. يحاف الساعات القليلة القادمة، والقرار الذي يجب أن يتخذه ولا يعرف ما هو. يجرّ حقيقته ويسير بخطى متعاقلة ويكاد لا يقوى على رفع عينيه ناحية صالة المحطة في نهاية الرصيف. لكنّه يسير، مُصطراً، ويلقي بنظرة حافظة نحو الصالة المظلمة لئله يجد مارك واقفاً. لكن ماذا يظن أن مارك يمكن أن يأتي للمحطة وقد اتفقا أن يلتقيا عند بيت الدكتور درويش؟ يسأل نفسه مرة أخرى إن كان قد أعطى مارك العنوان الصحيح يصل لصالة المحطة ويلقي نظرة سريعة على المكان؛ لا أحد في الصالة غيره، طمأن لا أحد. المطاعم مُغلقة والأصواء خافتة. فكر أن عليه الإسراع ليحلب بالثوب الداهب ليبيت الدكتور درويش، لكنّه لا يجد طريقه للمetro كلما ذهب من بحر وجنّه متعلّفاً. "ربما يمكنني أن أبيت هنا، على هذه المقاعد، وهي الصباح أذهب لمقابلة الدكتور درويش وسأله، وأبحث عن مارك من هناك". فكر وقرّر، وواصل السير في ممرات محطة بن بحثاً عن مكان ينتظر فيه الصباح.

3

فرسان الدمار

سأنتظر ساعة أخرى، مازال هناك وقت قبل موعد عشاء سلمي. رشت من قذح الماكياتو الرابض أمامي على النصفية. كل عشر دقائق يرمقي النادل مطرة حالية من أي تعب، كأنه يتأكد أني مازلت هنا. أعلم أن هيتني لا تلائم المكان، لكن سيليا فصلته اقترحت عليها مقهى المحطة المركزية، فهو أكبر، وربما أقل تسمقا من هذا المكان. كما كان من المفترض أن نصل سلمي من واشنطن في وقت مغارب، وفكرت أن أنتظرها بالمحطة بعد مقابلة سيليا وأصطحبها لمبيت، ستحب سلمي ذلك، فهي تحب أن يشظرها أحد. لكن سيليا قالت إنها تفصل "ماكياتو" لقرابه من مكبتها. لم أحاذلها. سأقفاها لمدة ساعة على الأكثر، ولا وقت للجدل

في مكان اللقاء، قالت "دعنا يلتقي في ماكياتو؛ هل تذكر هذا اللقطة؟"، طبعاً أذكره، هي التي جاءت بي هنا لأول مرة كما في وسط يوم عمل لا ينتهي في ميسي الأمم المتحدة القريب، وقالت لي بدلال إنني أترقت ميسي في العمل وأستحق جازرة، وإنها ستأخذني لمكان جديد تبعثها وفادتي لها. همست أن قلعة مختارة تعلم بوجود هذا اللقطة، وجمعتي أعدها ألا أدل أحداً عليه دون استئذانها. لكنه تمحّل بعد ذلك بأسابيع قليلة لللتقي موظفي الأمم المتحدة كلها؛ لا شيء يبقى سراً في هذا المكان.

موعداً في الخامسة. وصل قطاري بعد الظهر ولم يكن لدي ما أعمله، فذهبت لشراء بيجين من شارع 21 وعدت طلب أبي أن أحضر له بعض البيجيل. سألت إن كان يريد شيئاً فقال بيجين لم يقل بيجين من مونتريال، ووجدت من العت أن أخترته من هناك. لن يكون طازجاً بعد اثنتي عشرة ساعة في القطار، ولن يأكله. ومن ثم قررت شراءه من نيويورك. أتذكر هذا المحل؛ كان بأحدنا إليه ونحن صغار. تسكمت في الحادة الأولى حتى شارع 21 حيث اشترت المظلوب، وعدت سيراً على الأقدام. لا بد وأن هبتي مشعة تماماً الآن رواد البار يشقون أنفاله، بل شيئاً أكثر من الأنف. مريحاً من العود والاستفاد والانشغال، كأنهم لا يهولهم شيء. وقتهم محدود ويريدون إنعافه فيما أتوا له - بعض اللهو أو الإسبرسو أو دردشة؛ كي يهكوا أعباء العمل ويصعوا مسئولياته حاتياً - قبل أن يركضوا لموعد آخر، أو عمل آخر، أو سهرة أخرى غالباً ما تجمع اللهو والعمل سوياً. يرتدون بدلات عاتقة، بين الرمادي العمق والأسود، وربطات عنقهم

عجولة تماماً أو شحاة عن رقابهم قليلاً. قمصانهم فاتحة، ولا أحد فيهم يطر ملابس الآخر أو يهينها. هم يعلمون أنهم كلهم يرتدون ملابس باهظة الثمن. ربما يتوقف واحد ليدي إعجاباً بربطة عنق أو بصوف بدلة عاتقة لكن ذلك هو الاستثناء. القاعدة أن تتجاهل هذه الأشياء وترفع عنها - بعد أن تكون أنتقتها حتى صارت جزءاً مني لا يأتي ذلك إلا بعد مرار، شال الألبسة البديعة، وتبدل سريعاً إن خرجت من الحلية. أعرف بعض الوجوه هنا، فقد عملنا في نفس المنظمة. هناك وجوه تطلّ تذكرها بلا سبب؛ ربما تقابلنا في أحد اجتماعات التنسيق التي لا تنتهي. نرى بعضنا، ونعرف ربما بعض أسمائنا، لكن لا شيء يدعونا لتوثيق المعرفة أكثر. أعرف هيتهم تلك جيداً، فقد كانت هيتني لسنوات طوال. أما الآن فأجلس وحدي، لرتدي ملابس نكاد تكون رثة، أنتظر سيليا التي تأخرت في الليني، وأحمل كيساً ورقياً به بيجيل لأبي.

اتصلت بأبي لأسأل عن موعد وصول سمي، فقال لي بضيق شديد - أعرف هذه البقرة - إن "سملعي هانم" موتت قطارها، ولن تأتي قبل منتصف الليل. منتصف الليل؟ سألت، وماقادة عيد الميلاد إذن؟ رد عليّ بمقاد صر أن هذا ليس عيد ميلاد بل عشاء، ثم تسامد بسحرة عما إذا كنت أنتظر وجود بالونات وطراطر، وطلب مني ألا أناحر من الساعة.

في الخامسة والربع دقي جرس تلفوني، سيليا - اتصت بك منذ نصف ساعة، لكن تيمونك كان خارج الخدمة. فمن أنت الآن؟

- ما كياتو مثلما قلت.

- آسفة، لكني سأناحر قليلاً هناك "حادث" في درفور، وسأصطر للبقاء في البيت لساعة أخرى حتى أنتهي من إعداد البيان.

- حادث من أي نوع؟

- المعتاد.

- أين؟

- في القفاش.

- كبير؟

- لا، المعتاد، التعاصيل لم تنضح بعد، لكن هناك حوالي خمسة قتلى.

- حوالي؟

- نعم، التقارير متضاربة.

- ماذا يقول موظفونا في الميدان؟

- كل مكتب يذكر أرقاماً مختلفة. أنت تعرف، هذا جزء من المشكلة ومكتب الأمن العام يريد التأكد من الرقم، قبل أن يقرروا لهجة البيان.

- هل لديك فكرة كم من الوقت سيستغرق هذا؟

- ربما ساعة أو ساعة وربع. لن يستغرق الأمر أكثر من ذلك، هذا حادث اعتيادي. سأؤكد فقط من الرقم، ثم أصط لهجة، وأمر المسودة من المدير ومن البعثة في الخرطوم، وأرسلها للدور الثامن والعشرين.

- سأنتظر، لكن تذكرني أن لدي عشاء، بيت أبي في الساعة.

- ألا تستطيع التأخر ساعة أو ساعتين؟

- هل محرمي؟ هل نسيتي أبي؟

- سأقتل ما في وسعي، وسأحيطك علماً بالتطورات.

- سأنتظر.

"سأنتظر"، فت لرئيس بعثنا، "سأقضي الليلة هنا وأعود غداً".

في البداية رغب بمبادرتي، فلم يكفّ النهار الذي قضياه في معالجة المشكلة، ويجب عليه أن يعود بالطائرة للخرطوم قبل الغروب. فواعد تشغيل الهليكوبتر تقتضي ذلك، ولا حيلة لنا. سأقضي الليلة هنا، كي أتحدث أكثر لهؤلاء الزوارح الثلاثة الذين قبلوا بأن يشهدوا على ما يحدث في المعسكر. سأؤتي شهادتهم، ثم أتحدث للمشرفين المحليين على المعسكر، للتأكد من سلامتهم وعدم تعرض السلطات لهم بعد رحيلي، ولخلق بطاقة الفقد. لكن رئيسي عاد واعترض:

- ليس لديك تصريح من أس البعثة بالمبيت في المعسكر، وقواعد

المنظمة تمنع مبيت الموظفين دون هذا التصريح، بسبب التأمن.

- ماذا التأمن؟

- بمهم ياسيدي، آخر احتراعات إدارة الأمن وشئون الأفراد؟

تناقشا، وانفصا في نهاية الأمر على تجاهل هذه القواعد البيروقراطية. يجب أن يظل أحدينا، وبمهي المهمة التي أتينا من أجلها. لقد مرت شهور ونحن نتحدث عما يدور في المعسكر من انتهاكات، وما تعرض له الزوارح من اعتداءات تحت سمع وبصر السلطات، والسلطات تنفي وتقول ألا دليل. شهادات عمال الإغاثة والأطباء الذين وثقوا حالات الاعتصاب، والأعضاء المحطمة، والأطراف المبتورة - كل هذا لم يجد مصداقاً لأن أحداً من الزوارح الأحياء لم يجسر على الإدلاء بشهادته. نهبط

بطائراتنا على الأرض الطينية الحمراء، وعشرات الأطفال يحيطون بالطائرة غير عابئين بحوادث التراب التي تلغهم. تخرج من الطائرة فيجربون نגיע العائنين، ثم يمشي في سيارتنا الكبيرة ذات الدفع الرباعي التي تطلق عذبة زوايح أخرى من الأثرية. شق الدفقات والطرق الترابية مسرعين نحو المعسكر. يمر بجوار صموف العيش الصميج التي يقطعها النازحون مد سوات على أمل العودة لقرهم، ويطر الجميع مُعلقين عموكا. يصل لقلب المعسكر، وينتهي بسرعة من تشكيلات استقبال السلطات لـ.

نُمنوا السلطات يحاولون بشق الطرق إصاعة الوقت: يصرّون على تناول العشاء معهم. برقص بآداب منتظرون بأن ذلك يُشكل إهانة في الثقافة المحلية، وما يتم إحداثي في الصورة تصبح هويته العربية محورية فجأة. أخذتهم يلكتي المصرية فيدركون أن حيلهم الثقافية مكشوفة، فيقتلون لغيرها. وبعد نصف ساعة من المراوغة ينتهي بنا الأمر بما أتينا له. الحديث للنازحين. جلس تحت شجرة وهم يلتصقون حولنا. يتحدثون جميعاً في وقت واحد، يصرحون معظم الوقت نكزّرين مطالبهم التي يعرفها، وتُبرّرين من سوء الحال في المعسكر، وتُطالبون بتوفير الأمن لهم. سألهم عن الاعتداءات، فيقولون إنهم يتحصنون لها يومياً. سألهم عن المعتدين فيقولون المجنودين. سألهم عن هوية المجنودين، فيقولون إنهم العرب، وإنهم في كل مكان، ومنهم من يعمل في المعسكر، بل منهم نازحين متكرّرين، بل منهم عمال إغاثة. أترحم هذا الكلام الرئيسي، وبعد صبراً شتياً فشيئاً لا نريد المزيد من هذا الفهرار، نريد كلاً ما نُحدثنا مطلقاً ومتناسكاً وقابلًا للتصديق، ويصلح لإثبات ألتهم والإدانة. نريد

كلّاماً مثلنا. لكن النازحين ليسوا مثلاً. إلّا اليوم. هذه المرة أتري شابان في العشرينات، ومثاق في الخامسة عشرة، وقالوا لنا كلاً ما نُحدثنا وسوّوا للمعتدين، وقالوا إنهم يستطيعون التعرف عليهم ومستعدون للشهادة استدعى رئيسي المشرف العام على المعسكر، وحشّه مسئولية سلامة هؤلاء الثلاثة قطعاًه الرجل، وقررت أن أبقي لأتري المهمة. لن أترك هذه الفرصة تمر.

اتصلت سبيلاً:

- أين أنت يا يوسف؟

- في الفلستر.

- ماذا؟ كيف؟ ألم ترحلو؟

- ساهني الليلة، الرئيس عاد مع الفريق. لندي عمل أنهيته هنا، وساعدوا

هنا. أنت في المكتب؟

- نعم.

- لا تسهر كثيراً.

كانت تلك هي المرة الأولى التي أنقصي فيها الليل بدافور، فعلمني إما في العاصمة أو خارج البلاد في أديس أبابا، أو بربوبي، أو بدجانبيا أو أبوجا، أو بربوروك لا أتني هنا إلا نادراً، رغم أن هنا هو موضوع عملي. تغرّ شكل المعسكر كثيراً بعد رحيل رئيسي؛ هدأت الصلّة، وعاد النازحون لعشهم، تغرّق عناق الإغاثة، وعاد معظمهم المعسكر عائدين لمكاتبهم، وتولّى مندوبو السلطات القيادة مرة أخرى. تحولت في المعسكر بعض الوقت بصحبة أريكو، أحد موظفي الإغاثة، مصحوبين

دائماً بمدوي السلطات "لحمائنا"، ثم جلست مع الشهود الثلاثة وحدا. تحدث الشبان بطلاقة عن الاعتداءات التي تحدث الآن من قبيلتين مختلفتين، لكنهما درساً القانون في جامعة الخرطوم لمدة عامين، قبل أن يقدمهما القتال عن الدراسة. حكبا لي عن قربيهما، حكائتي مختلفتين ولكنهما متشابهتان. جاء العرسان وهاجموا القرية حرقوا العيش التي يسكن بها أهل القرية أولاً، ثم قتلوا المواشي وألقوا بحث بعضها في بحر الماء الوحيد ليستموه هاجموا الرجال قتلوا من قتلوا، وقطعوا سيقان من لم يقتلوا، وفر الباقون. وعندما بدأت القرية في العراخ من سكانها هاجموا النساء، واعتصموا عدداً منهم بكابة في أهل القرية، ثم قروا كداسة التراب ملطاً أتوا. قالوا إن بقية سكان القرية رحلوا في نفس الليلة، سراً على الأقدام، بعد أن جمع كل منهم ما استطاع من متاع، حتى وصلوا للمعسكر لكن أهل القرى الأخرى أخرجواهم أن المعتصمين عاودوا الكثرة في القرى الأخرى، فشكلوا أكثر من بقي فيها. لم يكن في أي من هذا يحدث، سمعت هذه القصص عشرات المرات. سألت عن الوضع في المعسكر، وكيف تحدث اعتداءات هنا رغم وجود السلطات والأمن المحلي، وهنا أثير الفتنة بمسألة الشبان.

تحدثت بنات وبوصوح وهي نظري عبي. قالت إنها واليات تدعين لجمع الحطب كل يوم، وفي كل يوم تنحصر لمصايفات من الحراس والمتمردون على المعسكر، لكن للمصايفات أمر عادي. المشكلة في الهجمات التي يشنها الجيويدي من وقت لآخر على أطراف المعسكر سألته عن التعاضيل، فقالت إن هناك في المعسكر من يبلغ الجيويدي بكل المعلومات

التي يريدونها، وسكنت لي أشخاصاً بعضهم وسبهم القبي والوطني. لم يكن من يسهم المشرف العام الذي وصفته بأنه مسكين لا يفهم ما يجري حوله، ولكن هناك آخرون يحمون تحت رناسته، ولديهم صلات مباشرة بالأم، "وهي الذين يهددونها"، قالت سألته لماذا يهددونها، فأجابت بأن الحكومة تحاول إجبارهم على الرحيل من المعسكر إلى قرى أخرى أقاموها لهم بعد عن قراهم الأصلية وعن أراضيهم مئات الكيلومترات، لأنهم يعرفون الأرض الأصلية لحساب القبائل التي نهاجمهم، ومن يرهب من الرحيل لهذه القرى يتعرض للاعتداء. سألته إن كانوا قد طلبوا الرحيل من أهلها فأومأت. سألته عن ردهم، فقالت إنهم رفضوا سألته إن كانوا قد تعرضوا للتهديد فأجابت بالإنجاب. استعسرت إن كان شيئاً قد أعقب هذا التهديد، فقالت بمرتها الثانية إنها تعرضت للاعتصاب هي وأهلها وأختها.

رفع الساني قذح الماكياتو، وسألي إن كنت أرهب في شيء آخر. شكرته، وطلبت قذحاً آخر ورجاحة مياه فولرة أوماً وجمع ما كان على للكتلة ومضى الموائد صغيرة ومتقاربة ولونها أبيض. للقاعد بلا مساند ظهر - ربما كيلا يبقى الرهائن أكثر من اللازم معظم المصائد عالية بلا مقاعد. يقف حولها الرواد، ويشربون قهوتهم بسرعة، ويتبادلون حديثاً أو معلومة أو وثيقة مبررة، ثم يرحلون لا أحد يظل جالساً مثلي كل هذا الوقت. ملك لله بأسيايا لا أحد من رواد القهبي يظفر إليّ ينحركون من حولي. يسحبون مقاعد، ليسوعوا عدد الجالسين حول مصدة أو يتخفى آثان جاتاً ليتحدثوا معهم في سراتهم العامة للشقة ثقة، دون أن تستقر

عبر أحد علي ولو بالصعقة. كأنني مصعدني قطعة من فراغ هل أسكت
بمسي الآن وهي تعتقد هذا الشعور بالقوة والنعوذ؟ هل اعتقد الآن ما
قلت إنني لا يمكن أن أعتقد بهذا؟ هل أريد أن أكون في بدلة أحد هؤلاء،
مختلفًا بالصبر من عملي وفي نفس الوقت معتقدًا أنني شخص هام؟ معتقدًا
أن عملي هام للعالم، وإن كنت أذكر ذلك من باب التواضع؟ التواضع
ليس صفة متواضعة، بل هو صورة متقدمة من العزور. التواضع يقتضي
أن تكون في مكانة مرتفعة، وتهبط بعقلك عمدًا لمستوى من هم أدنى،
كرم منك، لا أن تعتبر نفسك في هذا المستوى. كي تكون متواضعًا يجب
أن تعتبر نفسك فوق مستوى الآخرين ابتداءً. كنت متواضعًا حينذاك،
لأن الآن فلا أستطيع التواضع، وأنا بلا وظيفة ثابتة أعيش على مذكراتي
القديمة في منزلي المتهالك مونتريال، وأنتظر بأن أقوم بأبحاث من أجل
كتاب لا وجود له. ليس هناك ما يدعوني للتواضع الآن. لكنني فعلت ذلك
باحثياري. ذات يوم أيقنت أن شعور القوة هذا رائف، وأن ما أعتقد
بموعد ما هو إلا شبح للنعوذ. هل أفسدت بعصي الآن، وعيبي لا ترتفع من
فوق هؤلاء الذين يشبهون ما كنته يومًا، وأنا أعتقد هذا الذي كنته وتركته
طوعًا؟

دقي جرس التليفون: سيلها مرة أخرى:

- نعم!

- لرجوك لا تقتلني، مازلت أنتظر.

- ألا تعرفون حتى الآن كم قليلًا هناك؟

بلى، لكن لسنا نعرف إن كان من بين القتلئ مسلحين

- أي مسلحين؟ ألم تقولي إنه اعتقد في معسكر البارحون؟ هل البارحون
مسلحون هذه الأيام؟

- لا داعي لمسحربة يا يوسف! هناك أشياء كثيرة حدثت منذ حينك
من بينها ظهور مسلحين فعلاً داخل معسكرات البارحون من أعضاء
حركات القتمرد. هناك تقارير حكومية تقول إن ماوقع ليس اعتدائًا،
وإنما اشتباك بين عناصر نسحة من الجانبين. وهذا قد يغير لهجة البيان
بالكامل.

- واضح أن شيئًا لم يتغير على الإطلاق. طيب هل تعرفين كم من
الوقت أمامك؟

- هانت، ربما نصف ساعة أخرى، متى مسافرو؟

- غداً في الصباح.

- لا بد أن أراك قبل أن تحضي مرة أخرى. ألا يمكنك تأجيل موعد
سفرك غداً؟

- لدي أشياء في مونتريال ثم ما العارق بين اليوم وغداً؟

- سيكون لديها وقت كافٍ لمحدث بدلاً من هذه الهرولة.

- يمكن أن يقع حادث آخر غداً، في الكومون أو الصومل.

- طيب لماذا لا تأتي للمكتب؟ أنا حالية لا أعمل شيئاً فقط أنتظر،
ومكثنا الحديث.

- سيبدأ أنت تعرفين جيداً أني لم أصح قديمي في هذا المي.

- طيب طيب، سأبدل فصارى جهدي، لكن لا ترحل دون أن

تقول.

- سأحاول.

أصدر التليفون صغيراً قصيراً يعني بقرب بغداد شحنته الكهربائية عظيم، هذا مكان يقتضي لا أدري ما الصعب في أن أشحن تليفوني كل ليلة؛ لماذا أسي هذا؟ وبالطبع لا أعرف أين وصعت الشاحن، ربما يكون في أي مكان في حقائلي، وربما أكون قد تركته في المنزل أو حيث كنت. الفضة على الأعباء، نحيت التليفون جانباً. سأحاول أن أقفل من استحدثلي له لأقصى درجة، كي أتمكن من الاتصال بسيليا، ومتابعة تطور الموقف.

أنهيت حديثي مع الفتاة والشايب بعد ساعتين تقريباً. قصت الفتاة علي بأشنع تفصيل ما حدث لها ولأختها وأنها، وخلال حديثها لم تتميز برة صوتها ولا مرة واحدة، لم يرق أو يصعب، لم يدعها شه تهيدة، أو يوافر احتياق صوت كما يحدث للشر. كانت كأنها تروي قصة مستقلة.

أعرف أنها صادقة، لا أحد يستطيع أن يخرع هذه الحالة النفسية هذه حالة يُدقق فيها الإنسان مشاعره تماماً كي يتمكن من التماسك وعدم الانهيار، وهي نصيب صحابا هذا النوع من الصعب، والتاجين من الناس الكبري. حتى عمال الإغاثة الإنسانية يُصابون بدرجات منها دون أن يدرون. ويطولون هكذا، يتفقدون من آماسة لأخرى وهم يظنون أن مشاعرهم قد تبدلت، ثم يبهارون مرة واحدة يقولون إنهم "احترقوا"، كالمصاييح هذه الفناء "محرقة" ولا ريب، صادقة ولكنها مجمعة في فونتها. أصافت أنها تعرف الغنصير الثلاثة، وكلهم من حراس الأس في المعسكر، بل إنها رأتهم بعد ذلك أكثر من مرة، وأشاروا لها بإشارات مائة مدكرين إياها بما فعلوا بها. سألتها عن أبيها وإخوتها، فقالت إن الإخوة غير موجودين،

ربما قتلوا أو لجؤوا للمعسكر آخر، وأن الأب علم بما حدث ولكنه ضعيف لا يستطيع عمل شيء، ولا يستطيع الخروج من المعسكر ومواجهة الحراس، ومن ثم استمر في إرسالها وأختها لجمع الخطب برعم ما حدث. قالت إنها مستعدة للمحصن الطبي، وللشهادة أمام القاضي، والإدلاء بتفاصيل عن متصبيها تذهبهم هذا بالعصا ما أبحث عنه. أثبت على شحنتها ووعدها بالحماية، واتفقا على أن تنوَّعه في الصباح مع أربكو إلى المديرة؛ تحرير البلاغ والإدلاء بالأقوال، ثم أطير عائداً للحرطوم. اتصلت بسيليا أبلغها وطلبت منها أن تلغ رئيس البعثة بما انتهت إليه، وذهبت للنوم في غرفة صغيرة مُلحقة بأحد مكاتب داخل المعسكر. عرس علي المشرف أن أذهب للنوم في استراحة الحكومة عرفت، كما عرفت عرس أربكو أن أذهب للنوم في استراحة الأمم للتحفة، فقرر أن يبيت معي تضاماً.

لا بد وأن الساعة كانت تشارف على التاسعة حين سمعت ذلك الصوت القدي لم أنسه بعدها أبداً! صوت يأتي من باطن الأرض، كأنه لرتجاج منتظم للترية، كما لو كانت هناك بطون ضخمة في باطن الأرض ندف بصوت مكتوم، فيتحوّل لدهبات نهراً من تحت أقدامنا. نظرت لأربكو فالتفت نظراتنا هل هذا هو ما أظن أنه؟ أو ما يجيباً. هرعت نحو الباب - لا أدري لم - فامسكتي من ذراعي، وجديني للفرار.

- لا تقل شيئاً جنونياً. اجلس ها.

- هل هؤلاء هم الجنجويد؟

- لا بد وأنهم كذلك.

- كيف حدث هذا؟ أبلغت بهم الوقاحة أن يأتوا ونحن هنا؟

الوقاحة لم تنقصهم يوماً. ابق ساكناً ولا تحدث صوتاً.

- وماذا تفعل؟

- لا شيء. نظل ساكنين هنا، وأغلب الظن أنهم لن يهاجموا مكتبنا

- أغلب الظن؟ وماذا سيحدث بالخارج؟

- سيهاجمون البعض ادع ربك ألا تكون النتيجة مأساوية أكثر من

المتحد.

- ادعوا؟ ألا تفعل شيئاً آخر؟ ألا تتصل بأحد؟

- ستتصل طبعاً، لكن هذا ليس ضرورياً. الأبناء تتفعل وحدها هنا.

البلد كلها تعرف الآن بما يدور.

- والأمن؟

- سيأتون. لكن بعد أن يكون الجنجويد قد رحلوا.

- وماذا لو خرجنا الآن؟ بالتأكيد لن يتصرفوا لموظفي الأمم المتحدة.

يمكننا الدخول عن التاجيرين.

- هل فقدت صوابك؟ ماذا. سخرج أنا وأنت هذافع عن أربعين ألف

من المدنيين؟ اسكت واجلس هنا حتى يبرأ. هذه الأمور تحدث بانتظام

ولها قواعد، لو خرجت ستعرض حياتك للخطر.

يحدث عن تلغوي، وحدثت أنه ما زال مشغولاً. اتصلت برئيس

البعثة وهم يرد. اتصلت بسبيلها وأخبرتها بما يحدث، وطلبت منها أن

تبلغ الرئيس فوراً طلبت مني أن اعطي نفسي ولا أعمل شيئاً حوثياً.

أشار لي أريكو أن أغطي جرس التلغوي حتى لا يرن. فعلت ذلك ثم

جلست أنتظر ولم يحدث شيء. جلست هناك في هذه العرفة الضيقة،

أنا وبيلتي العائقة، وتلغوي المتصل بالقمر الصناعي، وأريكو المتحرس،

ستمع نوتج أقدام الجناد وهي تنهش في الخارج. لم يكن هناك أصوات

صراخ، لا شيء درامي، مجرد هذا الارتجاج في باطن الأرض وأصوات

قرقعة وهمهمات، ولا شيء آخر. أصوات شاشة التلغوي وكان رئيسي

هو المتصل، يطمئن على سلامتي وس معي، ويأمني أنه أبلغ أعلى مستوى

يمكن من السلطات بما يحدث ليحدثوا إجراءات لوقوعه، ووعده بالتدخل

العوري شكرته وأصغرت الخط، وعادوت الجنوس صامتاً. وظلنا هكذا

لمدة ساعة أخرى، نحن في العرفة المعلقة، وفرسان الدمار في الخارج.

نظر أريكو لتلغوي، ثم قال إن الجنجويد قد رحلوا. جاءته رسالة تبينه

بذلك من خارج للعسكر: شوهدوا يعادرون البلدة. خرجنا بسرعة من

العرفة المكان ساكن بالخارج ممسكاً، لا صوت ولا حركة. دقائق وبدأت

الحركة تدب في المكان. خرج الناس ليضطروا ما خلفهم الهجوم من دمار.

دقائق أخرى وبدأ الصوت والولولة، ثم علمت أن هناك خمسة قتلى.

هتاتين وخايبين وأحد الحراس الذين تتحرك الآن في مجموعات كبيرة،

يغلب عليهم القصب، وبعضهم يهتف ما يحدث في طريقه. دقائق ووصل

رجال الأمن فراد ذلك من قباح المجموع. لم يستغرق الأمر طويلاً حتى

تحوّل الأمر لمواجهه بين الخارجين ورجال الأمن الذين طوقوا الممسكة،

وقبل أن يرحلوا قتل في اشتباك مع الأمن. أريكو احتجى، ثم شاهدته بعد

فترة يتوسط بين الجانبين عن بعد، أما أنا فمكنت أسير كالثان لا أعرف عما

أبحث. لا أصدق أن هذا يحدث من حولي، وأني بلا فائدة لهذه الدرجة

أما الآخرون فكانوا يعلمون ذلك، ولم يحاول أي منهم اللجوء في أو حتى الحديث معي. برزت مع مجموع، لا أعرف إلى أين كان رجال الأس قد انسحبوا من المعسكر، واكتفوا بتطويق المكان في حين تولى غمائل الإعاقة التفاوض بين السلطات وبين النزاحين.

سرت مع جمع صغير سار ثم توقّف، وسمعت جوفلات ودعاء وولولة جديدة، وهناك رأيت المحتجز. كأنهما بقايا سيارة محترقة. لم أكن أول الأمر لهما عندما أشار لي صبي بأن هاتين هما الفتاتين. فقط عندما دققت النظر أدركت أن هذين الشابين بقايا بشرية. قطعنا من السواد المتخضمّ مختزج بهما بقايا قماش محترق. علت أصوات الجمع، ثم تقدم رجال ومعهم ملاكات جمعوا فيها هذا السواد، ولقّوهما كأنهما هما جثتان حقيقيتان. تحرّك الجمع بالهتاف وأنا معهم، وظلنا سائرين حتى شعرت بيد قوية تجذبني، وتسحبني من وسط السائرين. التفت ورأيت أبريكو تمسكاً بي بقبضة من حديد. لم أقاوم، وسرت في يده حتى أودعني في المكعب من جديد، وأغلق الباب وخرج جلست بلا حراك حتى عاد، لا أدري كم من الوقت مرّ، قال لي أن ساعة قد سرت، وحرّ رأسه في مروج من اليأس ونفاد الصبر. علمت منه أن الشابين المحترقتين للفتاة التي كنت أحذنها اليوم وأحبتها، المختصة رقم 2. أشعل الجسجود فيهما النار، ووفقاً بشهادتهما بحترقان حتى تمسختا، ثم عادوا وهم يكبرون. قال لي إن أحذاً التقط لهما صورة بتليغوبه الشبان اللذان تمحّذا إليّ اليوم أيضاً من بين القتلى، وحارس يبدو أن النخوة دفعته للشدح، ومحاوله إنقاذ الفتاتين، فأرداه أحد الفرسان المخبرين قتيلاً.

التليغون بهتّ بحائبي وأنا لا أنفرك. رد أبريكو وسمحته يحدث سيليا ثم رئيس البعثة كرّر عليهم ما ذكره لي، وأضاف أنه رأى صورة الفتاة وهي مشتملة، وأن أحداً من المعتنقين لا يبدو وجهه في الصورة. صمت ثم عاد يحدث سيليا، قال لها ألا تعقّ أصلاً على موضوع الصورة هذا لأنهم ملتصقون. صمت ثم أردف أن هذه فكرة عبث، ثمناً مثل فكرة الصعق على النازحين كي يشهدوا صد أناسي محمدين. صمت ثم أحاب: إن هذه ليست أول مرة طعناً، وأضاف أنني بنهر، ثم طلب منها معاودة الاتصال بعد ساعة لأني مشغول.

اتصلت سيليا مرة أخرى:

- أوشكت على الانتهاء تحققت من كل التفاصيل، اتضح أنهم أربعة قنص وغير مسلّحين. كتبت صيفتين للبيان، واحدة "بليس" والثانية "بأسف"، وأرسلت الصيغتين لمدير الإدارة ومنتطرة ردة غالباً سأرسل الصيغتين لمكتب "الأمن العام" فور أن يُسمح لي. هو لا يتدخل في الصياغة لكن يصرّ على أن يرى كل شيء. أرسله للطابق 28. بعد ذلك سأنتظر رد المكتب، ثم أصعب البيان في صيغته النهائية، وأرسله لمكتب المتحدث الرسمي. نصف ساعة أخرى على الأكثر أكنت سعيداً أنك تخلصت من كل هذا الهراء؟

- سعيد جداً. ولا تنزوي نفسك، إن لم تتمكني من اللحاق بي يمكنك أن تلظي في المرة القادمة.

- المرة القادمة؟ هل تمزح؟ أنت لم نأت لنيويورك مد عيد الميلاد للناضي. من أين أنت آت على كل حال؟

- من مونتريال.
- مونتريال؟ بالفطار؟
- نعم، وسأعود بالفطار أيضاً.
- أمارلت لا تركب الطائرات؟ لابد وأنتك عطلت. كم من الوقت استغرقت الرحلة؟ لا بد وأنتك سهكت! ياإلهي كم أنا أسفة.
- لا تأسفي، فقط حاولي أن أراك قبل أن أسفل القطار التالي.
- ألا يمكنك أن تبقي في نيويورك ليلة أخرى؟
- سيها!
- حاضر، حاصر ساكون عندك بمجرد أن يقرّر الأمين العام ما إذا كان بأسف أم يدين!
- أنا جالس هنا.
بطارية التليفون في السرعة الأحمر. لينها تكف عن الاتصال كل عشر دقائق، من يصعد التليفون كثير، لكني لا أستطيع أن أقول لها ذلك، ستصايق سانتظر، ماذا لدي لأفعله في أي حال حتى يحين موعد العشاء لدي أبي. لا أريد التأخر عليه، لا أستطيع أن أتأخر، فهو يتوقع مني التأخر، كي يؤكد نفسه أنني غير منظم ولا هائلة مني. مسكين هذا الأب! طبعاً كلما عبر منظموين مقارنة به! لكن ما العائلة؟ ما عائلة كل هذا النظام وهذه الدقة؟ كيف لا يدرك عبث دفته ونظامه هادس؟ كأنه عملة تسير بنظام حديدي وعقري نحو الغناء، يسير في مساراته الخالدة، ثم يأتي من يدوس على حياته، ويغير كل ما فيها. وهو لا يهتم. يريد أن يأتي دائماً في المنعاه، حتى لو كان العالم سيستهوي غذا. أراهم أنه لو علم بموعد موته لدعب في

الموعد بالضبط ليلقي حتفه في المنعاه لا هائلة من الحديث معه. حاولت مرات، لكنه كان يمتعني بما له من حجة قوية ومن سلطة أبوية، ولم أنشأ أن أربط في المناقشة، لم أنشأ أن أصرخ في وجهه أن كل ما يعتقد فيه وهذا، أن كل هذا وهم، وأن الأشياء الحقيقية تحدث دون موعد ودون نظام، ودون منطق، كاللوت، كالظلم، كالعجز.
ليلي لم تتراجع مثلي، بن ذهبت لأحر الطريق في معارضته، واتصت بها الأمر أن تركت له أمريكا بمن فيها، ورحلت عائدة لمصر مسكية هي الأخرى مساكين كذا والآل هناك سيسي. لا أدري لم أتى بها. لا بد وأنه يريد إنقاذها من براش "أمها الجحومة" ماذا يعرف حقيقة عنها؟ عن البنت أو عن أمها؟ لا شيء! بالكاد يعرف من سلمي، لكنه يريد إنقاذها مع ذلك. يريد أن تكمل دراستها بأمريكا وتستقر بها مظلماً أراد لها لماذا لا تكف عن محاولة إنقاذ البشر؟ ماذا ستفعل تلك المسكية في أمريكا؟ ألم يكتمه ليلي؟ وسلمي تسألني عما يجب أن تفعل؟ ثمخشي بالتليفون كل يوم سد وصلت، ونطرتي بالأسئلة، عن جدتها، عن أبيها، عن أمها، عن حائتي وروحها، عن كل شيء آخر. أنت خالي وقضيت معظم عمرك هنا لكنك أيضاً تعرف مصر وسامرت في أماكن كثيرة ولديك حيرة. تقول ذلك كأنها تسع من كتاب. تسألني ولا إجابات لدي. ماذا أقول لها؟ ماذا يمكن أن أقول لها عن الحياة هنا أو هناك؟ عن اختيارات الحياة المصرية التي يمكن أن تعبر كل شيء أو لا شيء، عن الإطلاق. ماذا يمكن أن أقول لها سوى بعض الكلام الباهت عن الإنسان وحشته في كل مكان، عن الأمل الزائف والدعاوى التي لا تتحقق. لا شيء لدي لأقوله لها.

لا شيء البتة. استمع لها، وأنتهم ببعض التعاهات. أحييها إلى أمها وإلى أبيها ثم - حين يفشل كل ذلك - إلى نفسها. أعمل مثل الأطباء النفسيين الذين لجأت لهم: أسألكم هي عن شعورها ودأبها ثم أتركها لنفسها.

أتى شخص، واستأذن في وضع ملابسه على المقعد المقابل لي. أومأت له موافقاً، فالمكان صيق والمقعد شاعر منذ فترة. هيا يسلياً: أسألي الأمير العام أن يقرّر هل يأسف أم يذنب. ليتني كنت قد أصبرت على الجلوس في القهوة الأخرى على الأقل كنت أكلت شيئاً، وتعاذبت هؤلاء المتعدين والذكريات التي يحسبونها لي. هل أنتقد ذلك العالم معلاً؟ هل أنتقد الشئ؟ أروقه تنصح بالسلطة التي عمر فيه، مع أنه لا سلطة له السلطة تنبع من العواصم، ثم تأتي وتصب في أروقة هذا الشئ الأسطوري؟ تسير في الممرات وتكاد ترتطم بها، فيتحيل لك أنك في قلب السلطة، لكنك مجرد حجر صغير في مجاريها. يمكنك أن تقصص عمرك كله لا تدرك الفرق بين الأمرين، ويمكنك مثلاً حدث لي أن تستيقظ فجأة على الفارق فتدرك أن تضيق ببقية أيامك في هذه المجازي، وتقرر خاركاً. لماذا أهلك في أي أنتقد هذه الممرات إذا؟

اتصلت سيليا ومرر في أريكو التليفون. قلت لها "إني بحير، وأحببت على بضعة أسئلة وأنا سأسألك، ثم أعطيت التليفون لرييسا. قال أشياء كثيرة عن الأسف والأسى، وعنى أن أكون بحير قلت: "إني بحير، لم يحدث لي أنا شيء، لكن كل من تحدثنا إليه قتل، حرفياً". كثر التعبير عن الأسف، وقال إن هذا الحادث لن يمر. سألته "ماذا سيعمل كيلا يمر؟" قال إنه تحدث مع هوبوروك، وسيعقد مجلس الأمن الليلة، ليصدر بيان يتوقع أن يكون

شديد التهجة. سألته بمغضب كيف يمكن لبيان من المجلس أن يعالج المسألة التي وقعت، والتي ستقع ثانية وثالثاً. سألتني ساحراً عما أريده أن يفعل: يرسل جيش الأمم المتحدة للمعسكر؟؟ وددت بأن سحرته غير لائقة، وأنه إذا ثم يكن بوسعها حماية هؤلاء الناس فعلاً، لما جاز لنا إلهاسهم بالحماية قال شيئاً مأسحاً عن حقائق الحياة فانفجرت فيه وقتت له إن هذه حسنة، وإن دم من قتلوا الليلة في رفته هو شخصياً قال لي متونر زيادة عن اللزوم، وأعطى التليفون لسيليا. طلبت من الهدوء، وقالت إنه سيرسل لي هليكوبتر مع أول صوب لإعادتي. أقفلت الخط قال أريكو إن عليه الخروج لأن هناك عمل يجب أن يتم، وسألتني إن كنت أستطيع البقاء ساعة دون ارتكاب حركات أخرى فأومأت.

خرج، وبعدها بقليل خرجت أنخول في المعسكر. ربما يغضب أريكو، لا بهم. لم أستطع البقاء في تلك العرفة؛ كلما انعق الباب سمعت أصوات ارتجاج الأرض المكتوم تعود. خرجت أسير لا أروي على شيء، وبعد قليل وجدت نفسي مع مجموعة من الشباب يشرب الشاي أمام إحدى العيش. بعد ساعة أخرى كنت في مقهى المعسكر، ثم مال علي شخص يبدو أنه كان يُدسّن الشيشة معي، وأعطاني تليفونه المحمول.

نظرت في الشاشة للوهلة الأولى لم أنهم ما ذلك الذي أنظر إليه: مصباح أو شيء كهذا يتراقص ليه، وعندما هبت كان الوقت قد فات لأقول "لا". كانت تجري في وسط حلقة وشار مستتلة فيها، وكلما ذهبت للاحية من الحلقة دفعها أحد الفرسان بعصاه، فأعادها لتتصّب الحلقة وألسنة النار المشتعلة فيها تتحرك حركة غير منتظمة، ربما مع الريح. بعد

دقائق قلّت حركتها. تقف في المتصعب، ثم تحرك خطوة أو اثنتين في اتجاه يمينها، أحدهم فتعود لمتصف الحلقه. ثم نبت في مكانها، واقفة، وثبتت النار ثم هدأت شيئاً فشيئاً، ثم تحركت فجأة كأنها جالسة، وثمّ بالقيام لكن حركتها لم تكتمل، وظلت هكذا واقفة في شبه حركة للأمام والى الخلف، وتترك عليها خطاً رفيعاً من القدحان.

قرب منتصف الليل أخذت سبيلاً مرة أخرى؛ لتراجع تسلسل الأحداث ودقة البيانات. قلت إن تقريراً حكومياً يدعي أن أهل الغتابين هم الذين أشعلوا النار فيها، لتخلص من عار سلوكهما البغال، وأن أسلحتهما حاول التدخل لإنقاذهما، فهاجمهم البارحون مما حدا بالجنود لإطلاق أعيرة نارية غديرية دعاءً عن أنفسهم أمام آلاف البارحون المحتشدين صدهم، مما أدى لعمى قتل أثنائها رجل من الحرس وشاب من البارحون، وقالت السلطات إنها تشك في وجود عناصر مسلحة بالمعسكر هي التي دبرت كل ذلك. صرخت في سبيلها، ربما لأول مرة في حياتي، فلزعتهم بشدة وطلبت أن أعطي التليفون لأريكو بعد ساعة اتصلت وقالت إنهم لن يأخذوا بتقرير الحكومة اعتماداً على روايات عمال الإغاثة، ولكن ذلك سيقتل من لهجة البلاد، وأن هناك مناقشات جارية في المجلس بين هؤلاء الذين يصرون على أن ينس المجلس الحكومة؛ لتفادها عن حماية البارحون، ومن يريدون الاكتفاء بإبداء الأسف حيال ذلك. أغلقت الخط في وجهها، ثم مات التليفون مماتاً سقطت في الفراش حتى الصباح حين جاء فريق أمن الأمم المتحدة، واصطحبني للطائرة التي عادت بي للمحطوط.

الساعة الآن السادسة والصف يجب أن أغادر القفص لأصل في الوقت المحدد؛ كيلا يظن لي أنني تلك النظرة التي أمقتها. نظرت لكيس الجيحل الذي ساحمته له. ألم يحط أي بلا عمل مدعين؟ هل توقفت ذاكرته عند تحقيق رغبته برؤيتي شخصاً مهتماً بعد الجهد والبال الذي أعقته على تعليمي؟ كان يريد أن أصبح محامياً ورفضت. حيث أملة عندك، لكنه أهدى بعض الرضى حين التحقت بالعمل في الأمم المتحدة، وحمدت الله أنه توقف عن متابعة تمصيل حياتي بعد ذلك. لم أقل له إنني "احتزقت" ولم أعد أطيق النظر في وجه زملائي أو رؤسائي، أو الميسر أو الطائرات قنت له إنني أكتب كتاباً في هدوء منزلي بمونتريال.

سألني بصح أسئلة ثم صمت تشككاً. سيبر عندما يرى اليحيى، ليس لأنه سيأكبه، فأعجب الظن أنه لن يفعل، لكن لأنني تذكرت إحصاره بحبري، مثلاً يحترق الآل، حين يصر أن أعود للممر في الساعة؛ لأشرف على ترتيبات عيد ميلاد سلمى. أي ترتيبات تشك التي سأشرف عليها؟ هل سيرتك الدكتور درويش أمراً هاماً كترتيب عشاء بحره في يدي؟ بالطبع لا. ستقول كيني كل شيء، وسيظل هو شخصاً فوق رأسها بالحقها. ودوري أنا؟ لا شيء، مجرد اختبار لروى ما إذا كنت ولداً طيباً، وأحافظ على مواعيدي. كاني مارلت طفلاً وهو بريني ربما معك باسمي في هذه الإقامة دق جرس التليفون. سبيلاً مرة أخرى صعدت على درو، لكن البطارية أسلمت الروح قبل أن أسمع صوتها. لم بعد هناك الكثير من الوقت على أي حال، سأنتظر عشر دقائق أخرى ربما تظهر، ثم أذهب كي ألتحق بالعشاء.

4

عين جالوت

تركنت سيارتي وأحدث القطار، لا يوجد هناك أماكن لركن السيارات، كما أن المتحف يُعلق في الخامسة وهي أسوأ أوقات الفروقة حين أنتهي من الزيارة سأعود بالقطار وأظّل بالمسجد حتى أنتهي من درس المغرب، ثم آخذ أسيرة، وننوخه لعشاء طليق أحتها ساعها الله! لم نورطني في عشاء مع رجل لا أحبه ولا يحسني؟ سأكون صبيفاً ثقيلاً، مُتألفاً من الجلسة ومن الخالسين وما يفعلون، وسيكونون هم غير مُرتاحين لوحودنا. وإما أن نتبادل حديثاً نافعاً حول الرحام والطقس، أو ندخل في مناقشات أشبه بالعراك آخر ما أحبّ هو مخالطة العرب المتأمركين! الحديث مع الأمريكيين أنفسهم أفضل وأكثر فائدة، لا، وهذا شيخهم. رأيت له كتاباً

مد سوات يصف فيه العرب بأنهم أمة سقطت من التاريخ لكن لم يتم دعها! سألته أول مرة التقيته عن هذا، وبدأ حديثاً كاد أن ينتهي بحافة لولا تدخل أميرة. لحدا تأحدي لعشاء في بيت هذا الرجل. قالت إنه عيد ميلاد سلمى، وأنها رغبة ليلى التي تعاملها أميرة كابنتها مد وفاة أختها. والله زني لا أفهم هذه العائنة. الدكتور درويش مأفون كاره نفسه وأخته، وابته ليلى عكسه مماثل لكنّه لا تقل عنه قوة، والخليفة سلمي ثائفة، وأبوها وحالها بلا دور تركتها أنها تأتي لأمريكا وبعثت، على أساس أن أباهما ها. لكنها أصرت أن تقيم البيت عند جدّها الذي نكرهه والذي فانت له أمريكا عن فيها. ثمّ وُظفنا نحن في هذه الحركة، واشترطت على خالتها أن ترعى لها ابنته ونصعبا نحت عيها، وكأنا المحلل ماعليها، منها لله أميرة، مد ماتت أختها وهي لا تعرض ليلي طناً حتى لو كانت نزوة. ساهمته الله، سوات ناقصة عقل، لكن طيبات.

سأمر عني لتسجد قبل الذهاب لتلك العشاء المشؤم. جمعي شاب بعد صلاة الظهر، وطلب الحديث عن أمر شخصي لا بد وأنه بحث عن زوجة، لو كان يبحث عن عمي لقال. سأسأل أميرة إن كان لديها عروسة. خرجت من محطة "ميترو"، وسرت باتجاه المتحف الصغير الذي أقامته إدارة الإطفاء. يقولون إنهم سيوس متحف كبيراً فيما بعد. سرى. وصلت أمام المتحف، فوجدت عربة إطفاء واقفة بقرب الباب قبلة للناظرين. بصعة رجال يقعون أمامها يتأملونها بإجلال، وكأنها هبطت من السماء أو صاعدة لها. دفعت سبعة دولارات رسم الدخول، ومررت من البوابة الإلكترونية من الذي يأخذ هذا المال؟ ومادا يعفون

به. أينثرون مقتبث جديدة بصنوه لمتحف؟ تجولت في أرجاء القاعة لحظاتها، نظرت للحوائط والمقننات، والمقننات، والمقننات، والمقننات، والمقننات، والأسماء، والصور، نظرت لكل هذه الأشياء بسرعة، ثمّ توجهت لدكة خشبية كوسط القاعة، وجلست.

ما هذا المتحف البائس؟ لو تركوا الأمر لي لبثت لهم متحفاً أفضل عشر مرات! متحفاً حقيقياً عنقبات حقيقية، بأوراق التخطيط والأفلام التي كتبت بها الأفكار الأصعب، الملابس التي ارتداها المحفظون، السجاد الذي جسور عيه، أكوام الشاي التي احتسوها وهم يمشرون في المقننات، التليفونات التي استخدموها، الرسائل الإلكترونية، الكمبيوترات، حسابات البوك، حوالات السمر، أدوات الشكر، أدوات التدرّب، تذاكر السفر، بطاقات الصدور للطائرات وتذاكر الحفلات، وأسماء المقننات مدونة عيها، كل ما سخدم في صبح هذا

أنا الذي أعرف حقيقة ماحدث. أنا الذي أعرف الصورة الكاملة. أنا رقم صفر أنه الرقم المكمل لأي رقم تعرفه. أنا الذي أعرف من أين جاءت المعلومات اللازمة لتعيد صرّة بهذا التعقيد، كيف تمّ الحصول على المال ومن أين، كيف تمّ تعذيب المقننات وتدريبهم وكيف تمّ إنصاف كل القطع مع بحيث تمّ الأمر بهذا الإقناع أفراً تقرير السلطات الأمريكية عن الحادث، وأصحت بيبي وبين نفسي. أسمع الانتهاكات التي يرذنها العرب لأمريكا، وأصحت أيضاً كل طرف يحاول تبرئة نفسه، ولصق التهمة بالآخر هل فكر أحد منهم ألا تناقض بين روايته وزواية الآخر؟ أنا الذي أعرف حقيقة ماحدث، دور الذين ذكروا في التحقيقات، ودور الذين لم يذكروا.

أجلس هنا في هذا المعرض التذكاري، أقرب الصور والمقتنيات، والكتابات وصور بعض من ماتوا، ونحيات أهلهم وأحبائهم، ولا يترك هذا في نفسي أثرًا، لا شيء.

أنا الوحش. أنا الذي «تعتقت للهجوم» وشعرت بموجة عارمة من التشفي لم يقلل منها إلا صمود «الرجلين» طيلة هذا الوقت الذي سمح لأعداد كبيرة بالحياة. كنت أريد الخمسة وسبعين ألف، كلهم. لا تسألني عن الموتى، فلا أريد أن أسمع عنهم شيئًا. أنظر للوجود في الصور المعلقة وتعليقات الأهل والأحباب "نحن نعتقدك يا حبيبي"، "فككنا معك يا ليري"، و"ريبيكا، ستظلي في قلبي إلى الأبد". كلمات جوفاء، لا تعني شيئًا لا أحد يظن للأبد. كلنا ميتون، ميتة أو أخرى، ما الفارق لدى الموتى؟ لا أعرف شيئًا عن هؤلاء الضحايا، ناس فزوا مثل كل من يسي سرحهم الله إن كانوا يستحقون الرحمة، وسبأهم إن استحقوا العقاب.

لكن موتهم في حد ذاته لا يعني شيئًا. كم من الناس يموتون كل يوم، في هذه اللحظة، في هذه الثانية؟ هل نقيم لهم المتاحف، أم كان لدى هؤلاء رخصة بالبقاء أكثر من الآخرين؟ هل كان لديهم حق في «عيش أطول من قتلوا» فينبههم؟ هذا هو أحلهم، هذه هي حياتهم، وهذا موعد موتهم، لم يسرع فيه أحد أو يؤخر. كتب لهم أن يكونوا هم الذين يموتون في هذا الحادث بدلًا من أن يموتوا تحت عجلات سيارة، أو بأغنية مسرطة، أو بانفجار لغم أو في زلزال. لا أعرف عنهم شيئًا، ولا أريد أن أعرف. لو كان الأمر بيدي لأخذت الخمسة والسبعين ألف كلهم لو اقتضى الأمر أن أقتلهم بيدي ما ترددت. لكن كتب لهؤلاء النجاة، دون إرادتي،

مثلما كتب على هؤلاء الموت. ولست معرض الشعور بالأسى على أحد، ليس أنا.

ما تلك الترهات التي وصحوها في الصحف؟ ألم يجدوا من الطائرين سوى هذه الباعقة؟ وحطام الرجس كله، لم يجدوا منه ما يضعونه هنا سوى هذه التفاهات؟ لم لا يفتحون باب التبرع؟ من الذي يقرر أي الأشياء يدخل صحن قائمة المقتنيات؟ وما هو المعيار؟ هل يمكن إصاعة القبائل المفقودة التي قتلت أبي، أو قبائل الإصاعة التي أصادت للقتال وجه أبي كي يذهبها؟

سمعت عن هذا المتحف التذكاري فجئت لأراه بنفسي. من الذي سيأتي للزيارة هنا؟ من هؤلاء الناس؟ لا أظنهم من أهل الضحايا. لو قُتل أبني في العملية ما جئت هنا لأذكركه. أحتاج التكلية قاعة للتذكر؟ أم هم حائزون يبحثون عن مأساة يتعاطفون معها؟ أم شامتون سرًا يأتون للفرجة على الإمبراطورية وقد صعدت؟ أم أطفال المدارس يقادون إلى هنا كي يكرهوا أكثر؟ أسمع من سكان صوت المعلم "الوثائقي" الذي يشه القائلون عن المتحف التذكاري: إنهم يحولون الأمر لعبادة، "يرل هاربر" أخرى، وهناك شخص يقول إن الرجس كما يمثلان السلام العالمي لأن التجارة تصنع السلام، بإسلام!

بحر الرور ويظنون في بثلث. لا بد وأنهم يتساملون عشا يمعنه هنا العربي هنا؛ الشماتة أم المرحلة على ماعله مواطنوه؟ وحفل صغير يعطي النظر ناحيتي، ثم يقترب من أبيه أكثر. لا تظنوا طويلاً، فأنا لا أختلف عن الباقي، هؤلاء الذين سفلتوهم عندما تغادرون، في القطارات المسافرة

تحت الأرض وهو قها، في أماكن عملكم، وفي وسط بيوتكم وبين سالككم. كلنا نشبه بعضنا في أعينكم: أنا بملثني الرومانية، ولحيثي المشدبة التي غديها الشيب، وقامتني الضئيلة وصوتي الخافت، والآخر بلحيته المشددة وجلبابه القصير وسحنه العاصبة وصوته الجهوري، والثالث بالشورت وكأس البيرة في يده. تحاولون ما حيفنا علانظيلوا النظر، تشككوا أكثر، وتحدوا على قلب رجل واحد: كراعتكم لما نعددي عرما

يملكني الخلوس هنا وأصطاع دور الصحة. يملكني أن أعطب فيكم من "حرائم أمريكا" يملكني أن أنقص عليكم قصص بيروت؛ مخيمات اللاجئين، وما تحت أنفاس البيوت التي قصعتها طائراتكم المروّدة بأحدث تكنولوجيا الموت - تلك التي تدخل في بند التجارة من أجل السلام. أنا الناحي من مذابح طالت كل من أحببت، يملكني أن أحدثكم عن القتل الجماعي، والقتل الفردي، والقتل عن طريق الاستحمام، والقتل الخطأ. يملكني أن أحكي لكم حكايات مؤثرة عن استهداف المدنيين للترويع، وللصعق وللإلغام، ولكسر الإرداة. يملكني أن أروي لكم عن طائراتكم التي دارت نصف دورة في السماء، حرق أطلق عليها مقاتل سادح قديمة من مدفع عيار 16 مثل لا يمكن أن تصيها. عادت الطائرة فقصت الحلي كله في عرب بيروت. ماذا كان ذلك الطيار يفعل؟ هل كان يعكر في أن سكان الحلي من المدنيين الأبرياء، وأن صاحب المدفع أبه لا يُشكّل خطراً؟ حقيقةً على طائرته؟ أم كان يعتقد في قرارة نفسه أن هؤلاء الناس لا قيمة لهم، وأنه يستطيع قتلهم جميعاً إن شاء، دون أن يمي ذلك شيئاً؟ هل فعل ذلك لشرف في نفسه، أم لأن التعليمات التي لديه تقضي بهذا؟ أعرف

الإجابة على هذه الأسئلة. فأنا الذي أطلقت قذيفة المدفع الذي أعلم أنه لن يصيب الطائرة. ألم لا ي أعلم اليقين أن الطيار سيعود ويقصف الحلي بأكمله. ولم أؤد ذلك؟ لا ي أريد أن أقصع وحشيتي أمام هؤلاء الذين مازالوا يتوهمون أن العرب إنساني، وعنده مياديه. هكذا يرى الناس الحقيقة عارية في وجوههم، ويدركون لا ي مدى هم وحدهم أمام هؤلاء الوحوش، ويهممون ألا خيار أمامهم سوى القتال لحماية أنفسهم، أو الموت على يد الغربي الغازي الذي لا يفهم غير القوة.

لم يكن لدي أوهام حول هذا الأمر في يوم من الأيام، لكنني صيرت على من قالوا لنا أن يهادن، وأن نحاور، وأن دعوا بوجود قوى في العرب تقبلنا، ووعوا أن التاريخ تجاوز الصراعات القديمة يسا. كذبت مرارهم وكذبوا. صيرت عليهم، وتحملت ترهاتهم وإدلائهم لأعسهم على عتبات العرب علهم يتبع لهم الباب، لكن لم يلبهم سوى الدن واليهوان، مرة بعد مرة، وهم لا يفقهون. استطع أن أنقص عليكم قصص النساء والأطفال اللاجئين من مياه الشرب في تقنية الممارات وهم لا يعرفون؛ أس العطش سموتون، أم من الغضب على أمريكا وأوروبا التي وعدتهم بالحماية ثم تحلت عنهم، أم من اليأس من إصلاح حالهم، أم بقذبة أمريكية الصنع نأثهم فتربحهم من عذاب الدنيا؟ استطع أن أنقص عليكم قصص المدنيين الذين بقوا في صبرا، ودخل العملاء، الوحوش يوتهم يطلقون النار عليهم واحداً بعد الآخر، وحيش "الدعاف" الإسرائيلي يطوّف المكان ويطلق غابال الضوء الأمريكية؛ لتضيء للقطعة ظلام الليل. ينس الحاروس والمحرورس. استطع أن أنقص عليكم كيف معدت الطلقات من القنلة في البيت الذي

كنت أحتج، فيه، فذهبوا من وجدهم بالسكاكين، وبجوت أنا لأنهم حين ذهبوا أسي وقمت بجيشها فوقى فلم يروني. ظللت عتيثاً تحت جيشها أشمر بها تود عتيثاً فشيئاً. لكنني لا أريد أن أقص عليك شيئاً من هذا، لأنني لا أريد شغفتكم فرائعة، شغفتكم التي لا طائل من ورائها لم أتق يوماً بكم ولا بعودكم، وحين رفعت الرجل مع من رحلوا كنت أعلم أنكم وعملائكم آتون لعقابها بمنها كنت أعلم أنكم ستعاقبوننا لأساً وقصاً أمامكم وأمام عملائكم وقتلاً "لا". بجوت، أنا المقاتل، وديع جودكم أسي اللدية فلا تحذوني عن قضية حياة المدنيين. لم أكن في يوم من الأيام حاتلاً، لم أنتظر منكم غير هذا. ولدت مقاتلاً في نعيم فطر عليه السماء قبلكم الموسمية، وأقتصر منكم من أستطيع وأقتله. هكذا عشت، أعرف جودكم ويعرفوني منهم جيداً قواعد اللعبة بيساً، فلا يحدثني أحد عن احترام حياة الأبرياء. لا أنا ولا جودكم ما به المدنيين الأبرياء صحاباء، خسائر حرب، يموتون علماً يكون موتهم ضرورياً يموتون اليوم فوقى وغداً فوكت أنت أنت ياس منظر إلي الآن من وراء هذه التذكارات ونسأل عسك. أسألها جيداً كيف سلتني في المرة القادمة؟ وأنت واقف على جيشي، أم وأنت رائد على ظهرك في سكرة الموت تحاول تبين ملامح وجهي.

لكن أنتظر، لا تسي. الفهم. مد يمين فست علي أميرة أو مسلمي اعترفت لها فيما يشبه العصر أنها سرت كتاباً من مكتبة في شارعاً. ضلعت أميرة وطلبت منها إعادة الكتاب للمكتبة استعربت مسلمي. إلا نقول لها دوماً أننا في صراع مستمر مع العرب الصليبي؟ ظلت أميرة معها

ساعتين تشرح لها أننا في بروكلين، ولما هي ساحة قتال. لم تفهم مسلمي معنى ذلك وسألني - دون أن تذكر قصة الكتاب. عدم فهم شائع قلت لها إنني لا يمكن أن أخرج سلاحاً وأؤدي به جاري في هذا البلد، أنا كانت ملتة، مله علي حقوق الخيرة. لكنني سأقتله، بلا تردد، إن كان ذلك جزءاً من قتال. لا أدري إن كانت قد فهمت. لكنك، ياس منظر لي في رية وسط هذه المفتيات الشخيفة، جاري في الترو أو الشارع. ولك علي حقوق الحار منك في ذلك مثل جاري الذي يسكن أمامي في بروكلين، وأرسل له الكعك في العيد، ويرسل لي الهدايا في عيد الميلاد. أما حين يادي سادي الحرب، وتكون أنت أو هو في الطريق، فإنكما تكفان عن أن تكونا جرياً، وتصبحان مجرد صحتين يزعمك هذا، اليس كذلك؟ لكن لم؟ ماذا ستفعل أنت حين تقابل في العراق أو أفغانستان ونحدي - أنا جارك - جالساً أدنى الرجعية في طريق الصاروخ؟ هل ستوقف العملية وتناديني كي أخرج من طريق الأذى؟ أعيب عليك.

الساعة تقرب من الخامسة، ويجب ألا أظل أكثر من هذا رؤو المتحرف رحلوا وجدهم أكثر من مرة، وإن ما زلت حاليماً لكن يصعب علي معاداة المكان؛ كأني هذه المفتيات ملكي، كأنها جزء من بيتي. يجب أن أذهب مع ذلك، يجب أن أعود للمسجد في بروكلين، ثم أذهب لهذا العشاء. والله لو لا إصرار أميرة ومحيتي لمسلمي ما ذهبت طية هذه البت. رغم توبهاها فهي حامة طيبة، مثابرة ومتهذبة، ولديها فصول قوي يدفعها للسؤال عن كل شيء. سئذ من لم أقابل تاة لديها هذا الحرص على التعلم. حادة الذكاء، وروحها نقية لم تقصد رغم مشاتها في بيت متقسم. من

بدري، لعلها ورثت حب العلم والجندية عن الدكتور جدها، وإن كان هو قد أساء استخدام هذه الموهبة، فلعن حميدته تأخذ طريق الصواب. أميرة تحاول إقناعها بالبقاء هنا، وبمكتبي تدبير مسحة دراسية لها وحشها على الالتزام. وأميرة تقول إن ليلى أمها يمكن أن تساعد هذا. الأم هي الحلقة الأهم، فالجد رجل غرّف لم يعد أحد يهتم برأيه، والأب بلا قرار. حراك الله حرام يا أميرة إن أفلحت. يست يهذه القدرات يمكن أن تتحوّل لطاقة للحير إن أحسن إعادة تربيتها وتعليمها، وأميرة قادرة على ذلك بإذن الله. سأرى أباهما وجدها هذا المساء، لكنني لن أجدتهما بشيء من هذا. ودكرت أميرة ألا أجدتهما، فلا يجب أن يبدو وكأننا حريصون على هذا الأمر أكثر مما ينبغي. أميرة كهيّلة بإقناع البست، وبعد ذلك نعدت ليلى أمها وإن شاء الله يستقيم الأمر بعدها.

كنت أظن أنها ستقاتل حتى النصر. بعد حرب 1967 دعنت ماتفى من حشمان أبي الذي قتله القليلة المعنودة، وأودعت أبي وأختي في النجيم، وخربعت لثقتال مع من خرجوا. عشرون عاماً وأنا أقاتل، في الأردن وفي لبنان وفي أوروبا. عشرون عاماً تربيته برجالكم، ورجالكم يترقبون بنا. تقتلهم ويقتلونا، بدم بارد أو ساخن حسب الأحوال. إن تمّ القتل في بلد عربي فهو عاراً بقصص جوي، وإن تمّ في أوروبا فهو بدم بارد: طلفة من مسدس تؤذع في الجمجمة، أو بعض التفجيرات. كلّمنا قاتلكم هرمتونا، وحفنت نلّزاً أكبر. فعد لمركة أخرى تلحق بكم لنّا أشد، لكنكم لا ترجعون، بل تجدون طريقة ما كيّ تعاودوا الكرة،

وتسحقوا بها خسارة أشدّ تعتقدون أن هراً ما ستردنا عن قتالكم، وهو لن يكون أبداً. كنت أشكر لقادتي تكرار هزائنا، فيقولون إن هذه غرورنا نحسرها، لكننا لا نهزم إلا إذا تركنا ميدان القتال. صمودنا معتاح الأمل، وبداية النصر وإن بعد. وأين النصر البعيد؟ سلّمت نفسي عشرات المرات، في المحيمات والحدائق، وحلف أكياس الرمل وهي العربات. وحلّمت إلى أن النصر لن يتحقّق إلا حين نفل للمركة إلى أرضكم أنتم.

ومن ثمّ قرّرت المحي. إليكم في غفر داركم. عند أكثر من مائة عام وأنتم تقاتلونا على أرضنا، وحين الوقت الذي نفل فيه القتال إلى أرضكم نحن داوود وأنتم جالوت الطاغية. لم يهزم داوود جالوت بمصارعته وجهاً لوجه، جالوت أقوى وأصحب، وأقنر على المارلة. لكن داوود انتصر بالمهيلة حين سدّد الحجر لغزى الطاغية الصلاني فأرداه من الألم. بحث عن عيبكم، وسدّدت لها صخرة قاصمة. وقفت أقرب انهيار البرجون، وشعور النصر النهائي يملّوني شيئاً فشيئاً وصعت كلّ القطع معاً، رصصتهم ورثت تسلسهم في حلقات نفسي بعضها لبعض. لا أحد يمكنه أن يلترك مدى عبقريته التحليل لشيء كهذا لا أحد عيري كان يستطيع جمع الأصداد كلها في مظومة واحدة، بحيث تساعد بعضها البعض دون أن تعرف بعضها أو ما تفعله، لكنّها في النهاية تؤدي للنتيجة المرجئة. لم أزل مثل هذا السوع يتحدّث هكذا من قبل من يمكن أن يصدّق أنّ جعلت الدبّ والحمل يميلان سوياً، يكملان عمل بعضهما، دون أن يعرف أنّي سمها الآخر أو يراه وصعت الأجزاء في مكانها، في متاعمة

حق. ماذا ستفعلون فيها؟ نحن بالقون، هاهنا، حتى آخر يوم لنا ولكم. صحيح أنني ودعت القتال، لكنني بالي كي أؤذيكم، وأقتل من أديتكم لنا، لا أكثر ولا أقل.

الآن أعط بالقانون وعدم العنف. لا أحمل سلاحاً ولا أدعو إليه، بل أتم الصلاة في مسجدنا الصغير ببروكلي، وألقي دروس العقيدة والسنة على من يريد الاستماع، وأدبر لشباب مسجداً للدراسة ووظائف، وزيجات صالحة. لا أكثر من ذلك. لا أدرب أحداً على حمل السلاح، لا أقيم أحداً للقتال، بل لا أنصح به أحداً. كل ما أعله هو تقوية هوية شبابنا، وإعادة تربيته، وإعادة عياله عن التسقوط في براثن المصادرة المادية التي تغروبه بها. كل ما أعله هو الحيلولة بينكم وبين السيطرة على هذه الأراضي التي تنمو بين ظهرانيكم أحبيهم من سيان من هم، ومن أين باتون، ومناهضة المصير الذي ينتظرون بهم إليه. أبصرهم بمعاني دعاؤكم، وأرهبهم كيف تكيبون بحكايي. واحد لنا وواحد لكم. أحمي هذا الشباب، وأصم أصلاً بسقط هريسة لدعايتكم الرحيمة حول المساواة وحول الحرية الظاهرية. أحمي الشباب والحررة، وأترك له بعد ذلك أن يقرر طريقه بنفسه. إن قرر أن يسلك سبيل الجهاد، ووجد في نفسه المقدرة عليه، فسأني من يساعدته ويأخذ بيده ليس أباً، بل أخرون ثم لا تروا؟ يمحرون من بين أيديكم ومن حلقكم. فعاداً أتم فاعلون بي وبهم؟ أنفثون قوايتكم كي تصبوا الخناق علينا أكثر؟ إن فعلتم ستبتون ما قلناه دوماً، وهو أن حديثكم عن الحرية والمساواة محض غفاق، وأنكم ستفلسون على هذه الشرايات حين تحتاجون لذلك، مثلكم في هذا مثل من كنتم تقانون. أسترسلون بما

تكاد تكون سحرية. لو كان من الممكن رسم هذه العمية لصاروا أشهر من لوحات دافشي، ولو كانت موسيقى لصاروا أعظم من ناعسة بينهوس. هذه هي أم العمليات بحق، ولن أبلغ هذه القمة مرة أخرى.

وقفت أقرب أنهار الرحيم، والفرح الذي ملا به قادتكم وسائل الإعلام كلما علا صراخهم ونهيدهم ووعيدهم، كلما تأكدت من عمق الألم الذي أصابكم. ومن قلة حيلة قادتكم طلست أن هذا الصراخ سير، ثم يعفون لما أصابكم. لكنهم لم يعفوا، بل أصعوا في عيهم. لم تمنعهم الصبرة برون الحقيقة، بل تكاد تكون قد أعمتكم أكثر. أنني حماقة تلك التي تمنع المرء بعيداً عن سبب الله، فيعزوه لما يمكن أن يكون فيه شعاعاً، ويريد المشكلة تقاسماً؟ لم يحظر على بالي أبداً أن يكون هذا هو رد الفعل؟ قلت فترة ومر، وبدأ العقلاء في الانبعاث لأصل المشكلة. لكن سوات مرت، ولم يحدث شيء من هذا سوات مرت ولم يحدث شيئاً إطلاقاً، لم يتغير شيء. فقلت عرب جبالوت لكن الألم لم يجعله يتوقف عن الطعن، بل زاد طفيلاته عسى.

فهمت. أخيراً فهمت! لا أنتم ستتصروا ولا نحن نتصرون، بل سواصل قتال بعضنا البعض إلى الأبد. نطعمكم ونطعمونا دون أن يسقط أحداً ميتاً. لن يخرج أحد منا متصراً إلا لو استسلم الآخر، وهو لن يكون لا خسارتكم ستردكم عن عيكم، ولا هزاعنا ستردنا عن حقوقنا الحروب، هذه المعارك المستمرة بسا، نضبط إيقاع القتال بيننا ولا تنهيه. لم يبق لنا سوى أن نؤذي بعضنا، بلا توقف ولا نهاية. وهكذا صرت ألقبها كالشوكه في عيكم! كل شوكه تدميكم هي شوكه ألق في عيوسا

للسجون، وتشكّون في العرب والمسلمين أكثر، وتخلّفون الإجراءات للحيلولة دون تسرب أبائنا للعاصب دامت العود؟ فلتفهموا! لكن كلّ طعمة صعدا ستبت صحة دعاويها، وتقوّى عزيمة شبابها وتصبّحهم على انتزاع حقوقهم منكم. فوئنا نبع من صعباء نحن أباء داوود، لا أنتم أنتم أباء جالوت؛ صعلكم يأتي من قوتكم وكراهيتكم لا تزيد من ترابطنا ومن عزماء وهو ما يريد من تربصكم بها، وتضيّفكم عليها. وهكذا، نحن الإنسان، متداخِلان في هذا العناق المميت الذي يدمينا سوينا، ولتر من سيتحمّل الألم أكثر.

الساعة الخامسة، سائر كركم الآن، وأذهب لمسجدنا ولعشاء سلمى يمرّ عليّ أن أترك هذا المتحف؛ أنا القطعة الناقصة في مقتنيات القاعة التذكارية لقنالنا الذي لا ينتهي. وإن كان القانون على أمر المكان يستأثرون بتحديد قائمة المقتنيات، فإني مرسل لكم واحداً من كلّ يوم ليحسّ بها، ويكمل الصورة، على هذه الدكّة الخشبية في المتحف التذكاري لقدّرنا المشترك.

www.mlazna.com
RAYAHEEN

5

ماريك

ظللت أُحدّق في شاشة الكمبيوتر غير مصدق! بيورك؟ ماريك هاء في نيورك؟ بعد كلّ هذا تتقابل بالصدفة! ماذا جعلني أكتب إليها؟ حطرت على بالي مثلما يحدث كلّ عام، نخرج ذكراء بجافة من حيث لا أحسب، ونحتلّ تفكيرنا ماكتب لها في العادة تأخذ أسبوعاً حتى ترد. هذه المرة ردت بعد دقائق. رسالتني وردعا ملتصقان في قائمة الرسائل بحملان نفس التزيّج. كنت مازت أُحدّق في شاشة الكمبيوتر حين ظهر اسمها الجميل على الشاشة؛ ماريك هذه الحروف التي تدخل رؤيتهم البهجة هي قلبي وتعمري بموجة نمان لا أدري من أيّ بقعة في عصى الجافة تأتي. ماريك في نيورك، ولعدة أسبوع. كنت لها على

المور رذاً من كلمة واحدة ملتقي؟ أرسلته قبل أن أفكر في عواقب هذا العرض وجلست أحدث في الشاشة بعد دقيقة ظهر اسمها ثانية. فبحث الرسالة وأنا أكتسب تقول 'معم' ونسأل أين؟ ارتسمت ابتسامة طاعية على قلبي لا تفكير الآن في العواقب، سأرواها، سأرى ماريلك. راديت حماسي وقصرت المدة بين رسائلنا. بعد عدة مبادلات اتفقا على اللقاء في بهو الفندق الذي نزل به في تقاطع الجادة الأولى وشارع 49، في الثامنة والنصف مساء نفس اليوم.

سألتني ماريلك. مهم كنت أفكر حين عرضت عليها اللقاء؟ كيف سألقاها؟ كيف سأنظر إليها، وكيف نقابل؟ هل أحتصنها أم نسلم باليد كالغرباء، أم نقبل بعضها على الخلد كالأصدقاء؟ وماذا سقول لبعض؟ ستحدث عن أسباب تواجدها في نيويورك سأفصح عنها كيف وجدت محة بإحدى المنشعبات ها لمدة عام أوشك على الانتهاء، وسقول لي ما أتى بها ستسألني عن أحباري في مصر، وأحبار سمي، وسأسألها عن تطورات حياتها منذ رسالتها الأخيرة في العام الماضي؛ هل انتقلت لاسترداد مثلما كانت تُحفظ، أم ظلت في ليدن مثلما كانت تريد، ومصور بيتها الصغير ثم بصمت، ومرتشف شيئاً من شرابها، ربما يقاطعا البادل بسؤال. ثم ستأبى الضمت. هل ستسألني عن حياتي العاطفية؟ هل أسألها عن هذا اليوناني الذي ذكرته في رسالتها؟ لا، لا أريد أن أسمع شيئاً عن يربانها أو عن عمره. هل ستطرق لموضوع المعتقد؟ هل ستحدث عما، عما حري؟ لم يلتق وجهها لوجه منذ كنا غارقين في الحب، منذ اتفقا على أن تأتي في عيد الميلاد وتقيم معي حتى ترتب أمورنا

نحدثنا في التلغراف مرة، وتبادل رسالة أو اثنتين كل عام، لكننا لم نقابل هل تغيرت؟ أي ماريلك ماريلك.

زلت في محطة شارع 15. وسرت بأنعمه الجادة الأولى الجوى دامي. عبرت الجادة الأولى ومشيت إلى العنوان الذي ذكرته. لا أتني كثيراً إلى هذه الخفاف من المدينة. وجدت الفندق بجوار مبنى الأمم المتحدة، مبنى مظلم عدا بعض الأنوار المتفرقة في طوابقه العليا. ماذا يفعلون في الأمم المتحدة في هذه الساعة المتأخرة؟ عبرت الشارع ودحت من باب الفندق، فرائت مكتب استقبال صغير تغف حلقه منوطة واحدة. سألتها عن البهو، فقالت إن هذا هو، فلما بدا عليّ التردد أشارت عليّ بالبحث عن أريد في البار. دخلت من باب صغير، فوجدت مطعماً مستظلاً يُعَلِّق على الشارع وهي وسطه، على اليمين، غصن الزائفة ماريلك مع رجل في أواخر الخمسينات عني أريكة نصف دائرية، وأمامها نائرت أوراقي على المصعدة وكأس من شراب هي، يشعرا الأضواء العاطف المقصود من عد كتيبها، وبظارتها المستديرة الرقيقة، وابتسامتها الكبيرة، وشعبي السلي المتوبة في سحرة خضيرة، وخديها الورديين، وعنفها الأبيض المائل للحمرة ترندي قميصاً رجائلاً أبيض، ومن فوقه سترة داكنة، وأرى بظالها الأسود وحدها من أسفل المصعدة. كتيبها الصغير، وجسمها المتماثل الذي أذكره كأنه كان بالألمس معي. هي، ماريلك التي أحبها، رغم السنوات ورغم ما فعلته بي. فم كنت أفكر حين دعوتها للقاء؟

رفعت عيها من الأوراق ناحية مدخل البار، فرائتني في وقتي للتحفة عت ابتسامة وجهها فأصامته أكثر. تطلع جلسها بحوي

وقطع ما أجزم أنه غزل من ناحيته. قامت من خلف للضدة فمشيت نحوها. خرجت من وراء المنضدة وهي مرتبكة بعض الشيء، ولقد كنت بحوري. ماذا فعل الآن؟ أأند يدي لها لم اتبع درعي؟ لم تنتظر فتحت ذراعها واقتربت معانقة، معانقتها مصطربة، ثم أطلنا العناق أكثر قليلاً بما يفعل الأصدقاء. أراجع كل ما رأسه للحلح قليلاً، ليري وجه الآخر دون أن يتواعد جسمائنا، وانسما لبعضنا ابتسامة العارف بكل شيء، بالحب وبتعقيدات الدنيا والعفس، ابتسامة العارف المستسلم الراض بالمقنوم معاً، ثم تعانقا من جديد، لحظات، ثم تباعدنا. أحدثني من يدي، وقلمتني للرجل الذي كانت تجلس معه منذ دقيقة. فلان العلاني - لم أستوعب الاسم الهولندي - رئيسها في العمل ثم قلمتني باسمي الأول. "لقمان، صديق قديم" وسلم الرجل عليّ في اهتمام غير مثير، وقال شيئاً ما حول ساعات العمل التي لا تنتهي وحبّة ماريك، ثم أشار لها بالذهاب لتعني بصديقها، وربت على كتفها. شعرت بعضّة. "لماذا يصعب يده على كنهها؟".

جسما في آخر البار. سألته عن رئيسها، وما يبدو أنه معازلة، فصحكت وقالت إنه ربح سببه ولا يحظر منه، لأن نوباء يبة، ثم سألت في سحرية إن كنت أعلم ردت يدي مستسلماً أن ماحيتي، فصحكت مرة أخرى وأسكت يدي مُبعدة إياها لفصيدة. سألني عنا أتني بي ليوپورك وقلت لها، وسألته عما أتني بها، وقالت لي شيئاً عن مناقشات بين شركات الأدوية التي تعمل في إحداهما، وهيئات الرقابة على الأدوية، ومنظمة الصحة العالمية، وتذكرت أنّي قرأت شيئاً في جريدة الأمس عن

هذه المناقشات. ابتسمت وقلت إنّني لم يحظر بهالي عندما قرأت عن هذا الموضوع أن يتسبب في لغائنا فابتسمت وقالت شيئاً سألته عن أخبارها، فقالت إنها لم تنتقل من لندن، وما زالت تلعب لعبها في أمستردام بالقطار كل يوم، لأنها لا تقوى على مغادرة مدينتها الصغيرة. قلت إنّني كنت سأغضب كثيراً لو تحولت عن مدينتها الصغيرة بعد كل ماحدثت، فقالت عيناها إنها مهمت الإشارة ولا تريد الحوص في هذا الموضوع، وانتقلت لسؤال عني حكيت لها تطورات العام لماصبي منذ تكاتينا. استغرقي بيوپورك، وعجيتي للمدينة ولسكني بروكليس، ريارة سمي ابنتي وإعجابها الشديد بالمدينة، ورعيتها في الانتقال هنا والدراسة، ورثما الحياة معي لو قررت أنا البقاء بيوپورك. قالت إن هذا حيار صعب بالسبب لعنافة في سنّها، وسألته عن رأيي. رفعت يدي في استسلام قائلاً إن البت تسأل عن الأسئلة التي أسألها نفسي منذ كنت في سنّها، فابتسمت مولقة.

سألته عن تطور الحياة في مصر، وناقشنا قليلاً في السياسة. ثم انتقلنا للحديث عن هولندا، فالتفت لي إنها انضمت للحرب الديمقراطية المسيحي، وتعمل في مشروعات لإدماج المهاجرين في المجتمع المحلي في لندن. سألته كيف تجد الأمر فلم تحب إعباطها، وأصافت أنها اكتشفت لأنّي مدى كانت سادحة حين ظنت أن العمل السياسي تحكّمه المصلحة العامة. أطرفت وأنا أمكر بيبي وبين نفسي. ألم أقل لك ذلك منذ سنوات طويلة؟ ومن موضوع لموضوع، نتحدثا عن كل شيء، عن تفاصيل عملي وأبحاثي في السرطان وأبحاثها عن السياسة في مصر وفي أوروبا،

ولها جرس العرب والمسيحيين، والمشاكل بينهم وبين الدولة وللمجتمع في هولندا، والسياسة في أمريكا و"الحرب على الإرهاب"، وعلاقتي بسلامي وعلاقتها بعمقها بأهلها، وعلاقة أهلها بالعمدة بجمعها، وثوق ماريك لأن يكون لها أولاد، ووالديها وأحبها، والبيت في ليدن، والموسيقى، وباح، وديوار سعيد الذي سمعته ولم يتفقه قط، وسبحت في فرصة للعشاء معه سد شهرين لكنني لم أذهب كسلًا، وبحثي بالأحقق وصحكت، وقالت إنها ولا ريب إحدى لحظات الغباء الذي يختبرني من وقت لآخر لم أرد على الإشارة، وواصلت الحديث عن كل شيء إلا نحن لم نتناول عشاء، بل قصبا الساعات الثلاث في الحديث، ثم جاء الشافي ليعلم قرب إعلاق للكلان، ويقترح أن تنقل لمطعم في الطابق الأحمر إن أردنا استكمال الأمسية. بمت سهكة، فاقترحت عليها إنهاء السهرة هنا، وأوامت موافقة قائلا إنها لم تسم جيدًا، عد وصلت. صمنا ونحن لا نعرف أين يقف كل ما بالصط. ثم سألني إن كانت نوبة عملي في الصباح، فقلت "لا"، قالت إن حسنة المديونات لن تبدأ قبل الحادية عشرة، واقتربت أن تناول طعام الإفطار سويًا فوافقتها على الفور، واقتربت بدوري مطعمًا جديدًا بقرب مرلي في بروكليس، واتفقا أن يلتقي أمام محطة جسر بروكليس في الثامنة. فبثتها على خذلها، وتركها ورحلت.

حين هبطت من الكوبري في طريق صلاح سالم دقي تليعوني للحمول نظرت لنشاة وأنا أوصل القيادة، ونزمت على رقبها. أوقفت السيارة على جانب الطريق ورددت. جاء صوتها الرحيم حذرًا أكثر من العادة.

كنا في شهر نوفمبر وبقيها مطر مُكْر تكسو الطريق. السيارات الملمرة تلقى بردًا ماء مُشبع على رجاج السيارة. قالت إنها لن تستطيع المجيء في عيد الميلاد، سألتها لم؟ فقالت أشياء لم أهمها عن حاجتها لأن تكشف نفسها أكثر وتعلمها أكثر قبل أن ترتبط بأحد. استوصحتها، فقالت لي إنها ستشرح لي كل شيء في رسالة، لكنها أرادت أن تسمع صوتي، وأن تقول لي ذلك في محادثة وليس في رسالة. قلت لها إن ثاني وتقول لي ذلك وجهًا لوجه، وأن هذا أفضل عند الرب من التليفون فصحكت وقالت إن صوتي في التليفون كافٍ عند هذه النقطة. قالت إنها فكرت كثيرًا في الموضوع، وأن هذا هو الشيء الذي نحتاجه، وأنها تعلم يقينًا أنها غمبي، ولقي توأم روحها، وأنها مستعدة في هذه اللحظة أن تقرن بي ولأبد، لكنها أيضًا تعلم أن ذلك مستحيلًا، لأنها هي ولأخي أنا، ولأننا لو حاولنا أن نتحلى عن أنفسنا، كي نتمكن من الحياة سويًا فسنفقد أنفسنا "لا أنت تستطيع الاستقرار في ليدن، ولا أنا أستطيع الاستقرار في القاهرة. كلانا لديه مشروعات لا يمكن تحقيقها في بلد غير بلده". "وطهوري سيعقد علاقتك بسلامي أكثر". "واختلاف الدين، أنا أريد أن يكون أولادي مسيحيين" اعترضت، توسلت، استقرت قبها وعواطفها، وحاجحت عقنها، وفعلت كل ما استطعت أن أنكر في فعله وأنا وقف على حافة صلاح سالم، والسيارات ترمي بماء مُشبع، لكنها كانت قد حرمت أمرها. قالت. "هي هي نفس العظمة التقليدية، حب واستحالة" وبكت، ثم أعلقت الخط وحدثت نفسي ألف وحيدًا في طريق صلاح سالم، أكثر وحدة من أي وقت مضى.

التقيا عبد محطة جسر بروكلي في تمام الساعة، ثم هم أيّ ما حيّدا لكننا كما متفطنون كنا في حالة من المرح لا يمكن تفسيرها بغير الذي يجمعنا ولا نتحدث عنه، كأننا نريد أن نقنع كل لحظة ممكنة. تناولنا إبطارما ونحن نحصل بالطعام هذا رباتي، بالسلام. وهذه قهوة، تصوّري؟ هذا جريبي بالحبوب، وهذا بيبي وذلك سلمون، معقول؟ هاك أيضا سلطة فواكه وأنواع من الحب، وعصير برتقال، ونوت، نوت حقيقي أحمر وأسود. هذا الطعام رائع. تناول إبطارما معنا، كأنه كل الإفطارات التي كان يمكن أن يتناولها معنا. ويتسلّل إلينا شعور متزايد بالأمان يدفعنا للتأثر من المناطق الخطرة. امتدحت الطعام ثم أصافت في تلاعب أن هذا الإفطار يكاد يلع في جودته إبطاراتنا في ليدن، فابتسمت وقلت "يكاد، لكنه يحتاج لمزيد من المرنان كي يلع هذه المرتبة" فصحكت وسألني إن كنت أذكر المعكرونة التي أعددها سويا في بيتها بليد، فأجبت أنها كانت بالبروكلي والريشون الأسود. أبدت اندماشا من تذكرني لهذه التفصيلة، فنظرت لها شعابا ولم أزد.

استجمعت شجاعتها أحياء، وسألني عن حياتي العاطفية، فهررت كهي في لابلالة مشيرة لعدم وجود ما يستحق الذكر. صمت، ثم سألتها عن يومائها، فابتسمت وهرّت رأسها دليلا أن يكون هاك شيء. "لم تتطوّر الأمور أكثر من حدود المعامرة الأولى التي ذكرتها لك في رسالتي"، قالت، "لم يكن هناك، ولم يكن بيبي من التوافق الروحي ما يمكن البناء عليه"، ورمقتني بظفرة متسائلة عما إذا كنت قد فهمت، فأومأت وصمتا. أردت أن أسألها عن توافقها الروحي وما إذا كان قد شمع لها، لكنني ترددت لا

أريد إمساد بهجة هذه اللحظات، لكنها فسدت وحدها. بدأ يتسلّل إليّ ذلك الألم الذي شقّ جسي، حين قالت أنها لن تأتي للقاهرة، نفس الألم الذي شقّ جسي في كل مرة نحدثنا فيها، وتكاتبنا وتحاصصنا حول حنا واستعائته كم مرة قررت قطع الاتصال بها كي أتغادي هذا الألم! والآن، بمحض يرادني ألقاها بهم كنت أفكر حين اقترحت ذلك؟ ما الذي كنت أتوقع حدوثه؟ أن تحتلب هي هذه المرة؟ أن أحتلب أنا؟ أن تنق أحياء، وعيش في سعادة إلى الأبد؟ ما هذا الذي فعله بنفسه؟ وكيف ساعد بعد ذلك حياتي الخالية من الأمل؟ ماذا بكأ المرء جراحه بيده؟ وهي، العاقبة، الأبعد نظرا والأكثر حكمة، ماذا وافقت علي اللقاء؟ هل لديها بعض الأمل - مثلي - في أن تنق، في أن يتتهي بها الأمر سويا؟

قارت الساعة على العادرة والصف، فابتها نصرة الرحيل

- متى ستتوين من عملك اليوم؟

- ليس قبل العاشرة مساء، لكن يمكنني الإفلات منهم غدا في الخامسة عصرا.

- وهل لديك خطط بعد ذلك؟

- لا، أين سلمي؟ أين تلتقيها غدا؟

- لا، سلمي في زيارة لوالدتها.

- دعنا نتقي إننا.

- بكل سرور.

تأملت دراعي وسن خارجي من الطعام، ثم تبادلنا قبالا صديقة ورحلت. وقعت خطوات أرقها حتى دخلت محطة القطار، ورحلت بشوري إلى المستشفى

تقدبنا أول مرة في بعض المدينة، مد سبع سوات بالصبط، في حلقة دراسية نظمها الجامعة، أعجبت به مد وقعت عيني عليها، لكنني كنت مرتبطاً، ومن ثم لم أسمى لاستكشاف هذا الطريق. قالت لي - فيما بعد - إنها أعجبت بي مد تلقانا الأول وحاولت استكشاف موقعي، لكنني أحرثها بطريقة غير مباشرة أنني مرتبط. لا أذكر ظلك، لكنها تؤكد أنني كنت أنقني مكلمات تليفونية عديدة، وأنا ابتسمت معتذراً ذات مرة كنت أحادثها، ودق جرس تيموي قاتلاً إن هذه مشكلة من "صمعي الحمر"، فأحجمت. لم يحدث يساً سوى هذا الإعجاب الحفي، إعجاب بركاوي إمكانية تطوره، لكنه يظل مؤجلاً. بعد ذلك مشهور أرسلت لي صوراً التقطتها لمشاركين في الحلقة الدراسية حينها، وبعدها بعام أرسلت لها، وليقة المشاركين أحرهم عن بحث طيني قمت به في المجال الذي كنا نبحثه أثناء الحلقة الدراسية هزئت منهتة، وبعد ذلك بعام كامل أرسلت توصيبي عني وميلة لها ستقصي عدة أسابيع بإحدى مستشفيات القاهرة، وهنا تطورت الأمور.

كنا في أواخر أغسطس عندما وصلت رسالتها التي تبني فيها بوصول صديقتها للقاهرة، وكان الجو حاراً المدرجة تدفع اليأس وفي وسط الفيض، وأن أصبح عرقاً في صالة منزلي الصغير، رددت عابثاً ومتسائلاً عن طبيعة علاقتهم هي وصديقته، فأحدثت رسالتي على تحمل الحد ورددت قاتلة إنها "مستقيمة"، وإن الكثيرين يعتقدون أنها غير لئام، الأمر الذي يثر أعصابها. ثم سألتني ما هو الأمر الذي دعاني للاعتقاد بأنها كذلك؟ هم أجد بداً من الظاهر ببجدة ما ذكرته مرثاء، فقلت لها إن حديثها

في التعامل مع الرجال ربما تكون مستولة عن هذا الانطباع فجاء ردها مباشرة، قالت إن ظني هذا يعني أنها حالة مفقود الأمل فيها، حيث إنها شعرت بالاحقاد محوي، وظلت أنها عثرت لي عن إعجابها. أصافت أنني كنت وقتها مشغولاً بأمرأة أخرى، ولكنني لم يحظر عني بالها التي يمكن ألا ألاحظ إعجابها، بل وأن أظن بها ليل للساء. ثم سألتني عما إذا كنت مازلت مشغولاً بهذه المرأة الأخرى؟ هكذا وأصافت نصف اعتذر عن أسلوبها المباشر الذي وصفته بأنه "أسلوب هولندي أصيل".

تبع هذه الرسالة "الهولندية" سبعمائة وثلاثون رسالة أخرى خلال عام، ممتلئة رسالة كل يوم من كل مئة. كانت هذه الرسائل بمثابة اعتراضات متداخلة، عن كل شيء. كأن مسأ قد أصابها، لم تترك موضوعاً إلا ونجدتها فيه وبصورة تامة نكاد نكون جارحة. أخرج كل مئة أسوأ محاولة عن نفسه وعن الآخرين، كل ما يعتقد أنه عيوبه، أحلامه التي تحسب عنها وتلك التي لا يجرؤ على التعبير عنها، دونه التي اقترعها وتلك التي يمتنى لو أنه قد فعلها، كل شيء، كأننا نتجرد عمدًا من كل فاع ومن كل ادعاء قلنا لبعضنا كلاماً قاسياً ولكنه صريح، وأعجبنا حالة الصراحة المتبادلة فأكملنا. 365 اعتراضاً من كل طرف، فتح كل ما قلناه للأخر مثلاً لم يعمل من قبل، ربما لأساً لم يكن نظر أب ستفتي. لكنا في أثناء ذلك أدنا بعضنا لا أكاد أذكر من ذلك العام سوى هذه الأمسيات التي قصيتها أمام شاشة الكمبيوتر، قارئاً لاعتراضات وكتاباً لها.

ثم اقترحت عليها أن يلتقي، هكذا دون تفكير مثلاً معت اليوم سألتني ماذا ملتقي؟ فقلت كيلاً نقصي بقية عمرن بسأل ماذا لو كنا قد

التقياس؟ وافقت، بشرط أن يكون هذا هو عنوان اللقاء، لا أكثر. اقترحت أن نتلقى في ميسيا، فسألتها لم لا تأت للقاءة فقالت إن سفرها ليلد آخر كي تقابل رجلاً هو خطوة صحيحة لا يمكن أن تأتيا في الإطار الذي جددناه لأعسا، وهي لم تزر فيسبيا من قبل ولا أنا، وس ثم يمكن أن يتم اللقاء في سياق "ريارة" كل منا لثينيسيا. ضحككت، وقلت إن هذه عملية معقدة، وإن لا أمانع في السفر للقاء امرأة ومستعد لزيارتها في هولندا. ضحككت ولم تفرص، واتمقا على أن أزورها في مدينتها الصغيرة ليدن في الأسبوع الثالث من سبتمبر. أعلنت بهولنديتها الأصيلة أنني سأنام في غرفة منفصلة أثناء زيارتي لها، ولن يحدث يسا أي شيء. اعترضت مُسئلاً كيف سعرف بعضنا فعلاً إن لم نتخطى هذه الحاجز الذي يشوش الرؤية بين الرجل والمرأة؟ وقلت إنه إن أردنا معرفة حقيقة مشاعرنا، وما إذا كان ما يسا يتخطى مجرد الإغذاب يجب علينا أن نمارس الجنس، كي نحصل من هذا الموضوع، ويرى بعدها إن كنا فعلاً نريد أن نكون معاً. ردت ساخرة إن هذه حجة رحيصة وقنعة: "لا جنس، وستام وحلك في غرفة منفصلة". وقد كان.

أحدثت القطار من مطار أمستردام حتى ليدن. خرجت من باب القطار. وجدت تلك الشجرة البديعة تنتظري بإتسامة عريضة وذراعين مفتوحتين. ترتدي شيئاً أبيض تعلوه شرة قصيرة من الخيز الأرقى، وبطال أسود شعرها أقصر مما رأته أول مرة في بربورك لا يصل لكعبها. نظرها ليحبص طويلاً، وإتسماماتنا نحن الاثنين تقول أشياء كثيرة، مثل: "ماعد الجيرون؟" "أحقاً أنت هاء؟ وأنت؟" "تري هل سيعلم هذا

لدي فعلة؟" "هل يمكن أن تكوني أنت، فعلاً، هي؟" و"كلانا يعلم أن هذا الأمر لن يتجمع، لكن لم لا نحاول؟". ثم خرجنا من الرصيف، وقادتنا حارح المحطة إلى تاكسي صغير اطلق كالبحر نحو سرلها، وهي لمسك يدراعي مع كل انحناء حادة من التاكسي. قلت لها بصوت هامس إنني لم أكن أعلم أنهم يقودون بهذه الطريقة في هولندا، فابتسمت وهزّت رأسها مائة، وأصابت بصوت لا يكاد يُسمع: "يبدو أنك أحصرت معك سائقك الخاص". ابتسمت وهررت رأسي، وسكتنا حتى خرجنا سالين. دفعنا الحساب، وقال لها السائق الأبيض شيئاً بالهولندية، وتضاحككت معه ومضيا.

بيتها رقم 7 في شارع له اسم طويل لم أفلح في حفظه. البيت أبيض، من طابقين، في صلب طويل من بيوت مشابهة تمتد بعرض ميدان مستطيل تتوسطه حديقة هادئة. أمام باب البيت مربوط للدرجات. تحت واجهة البيت نافذتان زجاجيتان شديدتا الارتفاع، يقسم كلأ منهما عود من الخشب الأبيض. فتحت الباب مرتبكة قليلاً، ودخلت خلفها وأنا أشد لارتباكاً. اقترحت أن نعد للطاق العلوي ونصيح أثنائي في مكانيها، ثم تربني المزل. فتحيتها. سعدنا سلباً حبشياً صيقاً رأيت أعلاه صورة الفصيدة بالإبحرية لم أتيقن تفاصيلها، وصوراً أخرى على الخائط يبدو أنها لعائتها. في أعلى السلم وجدت ثلاث غرف. قادتي لواحدة منهم، وقالت: "هذه غرفتك"، وابتسمت وهي تضغط على ضمير الملكية ابتسمت ونظرت حولي قالت إنها غرفة بروتستانتية، ليس فيها شيء رائد أو زخرف: فراش، وحرافة ملابس، وصعدة صغيرة. أشارت

للحشام بجوار العرفة وقالت إننا مشتركة في استعماله، فحدثت مستمناً بالآلة اعترافاً لدي على المشاركة، تورد حذائها وهي تبسم. أرثني العرفة الأخرى التي اتضح أنها عرفة للعسل، ثم تجت باب العرفة الثالثة قائلة إن هذه عرفتها هي. نظرت عبر الباب فلم أجد مرءياً، فابنست قائلة إن الفراش يصير في العدا، وستحتاج مساعدتي في نقله. سألتها أين كانت تام فقلت في الفراش الذي أصبح الآن في عرشي. أي أي سامام في فراشك! كنت أطش أب اتفقا على عدم السماح بذلك! لكنني هارئة من نظرفي وقالت لي أن أسترح وأغير ملابسني إن شئت، وأتأنا بمكن أن نخرج للعشاء بعد نصف ساعة، أو نعد شيئاً في المنزل.

توقفت وأنا في طرفي للطابق الأسفل وقرأت القصيدة؛ تمكني من رجل يبحث عن العردوس الأرضي، وظل يبحث عنه ثم مات عندما بدعه، ساعته أذكر أن العردوس أو الحميم إنما يكونان في الرحمة نفسها وليس في المنتهى. هبطت السلم الخشبي الذي يترع حذته، فوجدتها جالسة في أريكة وثيرة، مكسوة بكتان أبيض مطفي اللون تقرأ الصحف. أرسلت صفحة للبريدة لأسفل عندما رأته، وسألني إن كنت قد أرغمت. أحييت بالمادة، وسألني إن كنت أريد العشاء بالخارج أم أريد أن تظهر في؟ حقق قلبي. لماذا يشعر الرجل بالإحباط عندما تظهر له امرأة؟ لماذا يشعر وكأن هذا عمل حميم؟ أبيت الدهاشاً مصطبغاً من أنها تستطيع الطهو، وقلت بي أفضل تأنق طعامها هي، فضحكت وحزنتني من النتيجة وقالت أحذني لأرى بقية البيت صالة من جزئين بها أرثت بحجاب الباعدين للظلمتين على الشارع، والذي تحجبه ستائر من الكتان تهبط من أعلى

لأسفل، ثم متضدة صغيرة وأربعة مقاعد في الجزء الآخر، وحلقة مطبخ مفتوح أبصر الجدران، ومن حلقة تبدو حديقة صغيرة في الصاء الخشبي للمزحل باب معظمه زجاج يعصل المطبخ عن الصاء، وتعلوه ستائر من الكتان أيضاً. حجرة الحديقة الزاهية تبدو واضحة من حجب الستائر وباب الصاء، المطبخ بسيط وأنيق سحبت مقعداً وحسنت أرقبها وأحذتها، وهي تعد الطعام. أحزنتني أبنا ساكن معكرونة بالبروكلي والريزون، وسألني إن كنت لا أحب أيهما، وبذأت في إعداد الطعام، وبدأنا في الخبكي.

حكيت لها عشا مر بي ضد النقي في الحلقة الرسمية لم يكن هناك حديد لم أذكره في رسالتي، لكنها أرادت الاستماع مني مباشرة، ثم أحدثت تقاطعي بأسئلة تستوضح بعض النقاط في كل قصة قصصتها. ثم أخذت تسألني عن أفكار أخرى قلتها:

- ماذا كنت تصعد حين قلت إنك لا تحب عملك؟ هل هو الطب الذي لا تحبه، أم المستشفى الذي تعمل فيها؟ وكيف تمشي أمك بارع في هذا العمل لهذا الدرجة؟ هل يمكن أن نبرع لهذه الدرجة في شي، لا تحبه؟ ولماذا وصلت هذا العمل كل هذه السنوات إذن؟ هل تظن أن المشكلة في نوع العمل فعلاً، أم أنك غير راض لأسباب أخرى، ربما لا تراها أو لا تريد أن تراها؟

.... -

- لا، أنا لست محبلك النفسية، فقط أريد أن أفهم. لأن كمعاناتك تحسني، وأشعر أني أفهم الروح التي تحركك فلقدت، لكن هذه نقاط غمضت علي.

- الوحش!

ضحكت بصوت عال:

- لو أنك الوحش فلن أُن في العرفة المجاورة، وسيصرف خوفي.
نابلساً قُبلاً صديقة، وحل كل ما للنوم في عرفت. ولم يأت الوحش.

استيقظت في الصباح على صوت موسيقى "باح" الآتية من الطابق الأسفل. هبطت السلم ووجدتها حيث كانت جالسة بالأسفل، مسترخية في الأريكة الكاثية بوس الجرائد. دفعت رأسها وابتسمت: "هل أيقظتك الموسيقى؟" أشرت برأسي نائياً، فأصاحت: "لا أدري لم؟ ولكني أحب الاستماع للموسيقى الكلاسيكية في الصباح بصوت مرتفع جداً". قلت لا اعتراض لدي طالما كانت مقطوعات للهارموني وليست للألآت الحسية، فصحكت وعلقتني كانت ترتدي بلورة فضية سوداء، وبطلاناً أسود، وشعرها الأشقر يبدو أكثر صفرة مما هو عادة، أو لعنها الشمس التي كانت تنسلل من الشايدة وتنعكس على شعرها مشيت للباب المغصلي للحديقة فقلت إن هناك قهوة ساحية في المطبخ. صبيت لنعسي كوني، وحررت به للحديقة الهواء شعش مع لسعة برد جميلة حين تحمي الشمس امتشقت الهواء وشعرت بأن أكسجياً جديداً يدخل صدري وبوقظني فكرت في لقاء الهواء هناك، وهي رتي المسكيتين اللتين تتحلقان تنوث هواء القاهرة مند سوات ما الذي يجبرني على ذلك؟ سألت نفسي للمرة الأولى: ما الذي يدفعني لبقاء بالقاهرة رغم كراهيتي لما كانت إليه؟ كيف أفعل هذا بنفسى؟ كيف أعيش في مكان أعلم أنه يأكل مني جزءاً كل يوم،

- هل تفضل الكثير من الزيتون في المعكرونة؟ هل تروعود الزيتون في مصر، لم أنه يروح فقط في فلسطين؟

واصلنا الحكي، وصبت لنا كأسين من البورتو الذي قلت إنه شرابها المفضل. لم أكن قد تدوقت من قبل، فأنا أفضل السيد، لكنني أحبته من يديها. قاربت الساعة عني متصف الليل عندما اقترخت أن نجلد للنوم. صعدت لطابق الأعلى وعبرت ملاسي واعتصمت، في حين ذهبت هي لجمع بعض الأغراض في المطبخ، والتأكد من إغلاق البوابات وغير ذلك سمعت صوتها وهي تصعد السلم ثم صوت المياه يتدفق في الحمام بعد دقائق خرجت، فحررت وحيتها كنت أرتدي ملابس يوم رمادية، ووجدتها ترتدي ملابس يوم مشابهة صحبكنا وقلنا إننا شبه مريفاً لكثرة القدم، العريق الرمادي! ثم قلنا شيئاً عن النوم والصباح والإططار، وخطت العبد، ونمينا لبعضنا يوماً هادئاً، وذهبت لمرتها. عند الباب استوقفتها:

- هل ستتركبي أنام في تلك الغرفة معاً؟

- طبعاً!

- لكنني أخاف من النوم وحدي!

- لا تخف، الدار آمان.

- وأخاف من الظلام.

- هناك مصباح بجوار الفراش.

- طيب ماذا أفعل لو هاجمني الوحش؟

من بني ومن روجي؟ هل هذه خربة ما يجب أن أدفعها؟ ولماذا يحب أن أدفعها؟ لماذا لا أعيش هنا، في هذه المدينة؟ أطلقت يراسها من الباب.

"إفطار أيتها السيدة؟" هزئت رأسها موفقا، وعدت للفاحل.

عليها الذهب وإحصار فراشها الخفيف. سرى في شوارع لندن اللطيفة حتى وصلها الشجر، وجدت فراشها قد وصل من المحارن، لكن السيارة التي يعتري أن تحمله لفسرل أن تأتي قبل العدة، بما بقي أنها ستقصي ليلة أخرى بدون فراش تطوعت وأقمتها بأن يحمل الفراش لفسرل. لم تكن المساعدة بعيدة، وكان الفراش ممتككا ومرحوضا بعناية في لغة محكمة.

حملها وسرى عبر شوارع لندن، ومن عارقون في الصباح من مطرنا - هل تعلمين أن الملاحين في مصر يحملون فراش العروسين على عربة، ويظهرون به شوارع القرية قبل أن تدعبل لمزلها ليلة الدخلة؟

- لاء لم أكن أعلم، ونحن لسنا في الريف.

وصدا، وميك بعد لأي من اتصال الفراش الثقيل لمرتها، ثم نصعبه سوفا، ووضعنا عليه المرتبة التي نامت عليها بالأسس. ألفت بنفسها على الفراش تحتره، ووقفت أرقها في اتسامة صامتة انتبهت لظرفتي، فارتبكت قليلا وقامت. وحررا تجول في شوارع المدينة نصف النائمة.

أرتني المتزهر الذي حدثني عنه في رسائلها، وقالت إن الناس أصبحوا يتجنبونه، لكنها تدعبل إليه كل يوم كيلا يتم التحلي عنه نهائيا لفسكارى ومتعاطي المحدرات. أرتني الشوارع التجارية المختلفة بالشباب والشوارع الخربة التي يقطها المقراء والمهاجرون، ثم مررنا من عند القاعة التي تعبر المدينة أكثر من مرة ووقعا عند الجسر الصغير فوقها، ثم سرى في شوارع

أخرى بدت على صعيها مياي قديمة، كنيسة، ومجلس المدينة، ودار الأوبرا، والمحكمة. وحدثني عن كل مبنى وتاريخه، ثم عدنا للمنزل.

- قلت إن علاقتك بابتست سيسي متوترة، وبها لا تنظر إليك حين عائدك، وتظل صامتة معظم الوقت. ما أدراك أن الأدب ليس ديك؟ أعلم أنك فعلت كل ما في وسعك لكنها هي لا تقدم ذلك. وإذا كانت لا تحبك مثلما تشك، فمن نظن المستول عن هذا؟

...

- كيف يمكن أن يكون هذا صحيحا. إنها في الخامسة عشرة، كيف يمكن ألا يكون الخطأ حطاك؟ إنها طفلة، وغالبا عاصية منك ومن أمها ومن العالم كله. من وجبك أنت أن تكسيها وتكسب حبها تقول إن أمها متعصبة وموتورة، ألا نظل أن سلمي ترى ذلك وتكرهه فيها، وتكره أنك تركتها وحدها مع الأم الموتورة، أو أنك أنت الذي تسببت في جرح أمها؟

-

- لا بد أن هذا أمر صعب عليها.

-

- لكن لماذا تستسلم أنت لفعت الأم؟

- ليلى فقدت عقلها ولم يعد لحوار معها فائدة. بدأت بالتصرف ثم انتهى بها الأمر لحسن مطلق لا أستطيع إيجاره على العقل، لا أحد يستطيع. طلبت مساعدة ليها، وهو أمر صعب على نفسي، لكنه فشل وأعلن بأنه من التناهم معها.

- وكيف تشعر سلمي إن وجدت امرأة أخرى تظهر في حياتك؟
 هررت كتهي دون أن أحسب. فقُرت بحري الحديث إلى أبويها، وقالت
 إن أسامها يعيش في المدينة ذاتها، ويمكنه أن يتناول معا طعام الغداء. وافقت
 فالتصفت به فوراً، وربت الفداء. دهشت منها ومن نفسي، سأقابل جريماً
 من عائلتها، بعد يوم من لقائنا الأول الحقيقي. وكلانا يرحب في ذلك. هل
 نحن جبانين أم ماذا؟

عندما وصلت للمستشفى علمت بحجر وفاة "إدوارد سعيد". لم أكن قد
 قابلته، لكنني كنت أحبته كأنه أبي، وأحياناً كأنه أنا. وكانت ماريك تدعي
 أن بيتنا شيئاً، شكلاً وموضوعاً، وليسب ما تركت نفسي أنعرف في هذا
 الحب المجهول من طرف واحد لشخص لم يسمع عني ولو عرصاً. اليوم
 مات "إدوارد سعيد"، وشعرت بموته وكأنه فقد شخصي. دقّ تلفوني
 ووجدت ماريك على الجانب الآخر من الخط.

- ثمان: سمعت عمّا حدث لسعيد؟

- نعم.

- أنا أسفة جداً.

- وأياي هذا.

- هل ستذهب للجنازة؟

- لا أدري. يأتي صفة لأذهب؟ يقال إن المراسم متفكّرة على المائدة.

- تلعب بصفتك أهلك الروحي.

- حسناً، لكنّه لا يعرف ذلك!

- لا بهم أن يعرف، المهم أن نذهب، ولا اعتقد أنه كان سيمنع لو
 علم. سأتي معك. لنذهب وندع أهله يطردونا.

- ستأتين؟ فعلاً؟ لكن المراسم تبدأ قبل الخامسة؟

- لا أعتقد أنهم سيقفون بدولي. ها: هذه مفارصات لانهاية فيما
 يبدو. سأحصل على تفاصيل موقع الكنيسة لاتي بعد ساعة عند محطة
 سنترال بارك في الجادة الخامسة، وسأذهب سويّاً.

أني معجزة تلك التي حملني أشارك في مرسم وداع لرجل الذي
 نصته أبا روحياً لي ولم أكنه في حياتي، وتناطّ دوسي وتواسي المرأة
 التي نصّبتها روجة روحية لي وأنا أعلم أنها لن تكون لي؟ أجلس في أحد
 صغوف الكنيسة بين أقارب المتوفي وأصدقائه ومعارفه ومتلفيه، أستمع
 إلى رثاء يحبه من لهم حقّ الحديث عنه، وبارسوم يعرف موسيقى باخ،
 وماريك ممسك بدراعي وترتد علي، وأبواب قلبي تنهار، والتموع تأتي
 بلا قيود؛ أرغب من اليكاه فقصّني ماريك وتدعني داهناً قليلاً، ودموعي
 تسيل دون أن أعرف إن كنت أبكي الميت أم الحي أم المستحيل.

توجّهنا لمحطة ليدن، في شارع المحطة أشارت إلى مطعم بيع وحيات
 مصرية، وأمامه بالفنيط مطعم آخر يبيع وحيات إسرائيلية، وكلاهما يصع
 صبور سدوتشتات فلامن وشاورمة. صحكنا وقالت إن المطعمين لم يتقاتلا
 بعد، ربما بسبب معاهدة السلام. أحداً القطار إلى لاهاي. جلسا صامتين
 أرقب المحقول المصغر، وقطعان المواشي الهائلة. وصلنا لاهاي، وبدأنا جوارتنا
 الصباحية بمحكمة العدل الدولية. كان الجو بارداً. وقمنا لتأخذ صورة لنا

أمام المحكمة: وصعدت الكاميرا على نظام "التصوير الذاتي"، وجررت
 ثقب بجاني وهي تمسكة بمحطتها الصفراء السوداء. اختربنا من بعض
 فلسفها كتي، ثم وصعت يدي على كتفها متحرجاً لم أبسط يدي عليه،
 وإنما كورتها وتركتها بالكاد تلامس كتفها صحنكاً - رغم أن ارتباكاً،
 ونكت غداً الكاميرا. قُصاً بجولة كاملة في لاهاي الهادئة، حتى وصلنا
 للميدان الرئيسي الذي ينتشر فيه الحمام والسياح القليلون الموجودون
 بالعاصمة، ووجدنا رجلاً يهتف "توت صبح آمون" فطلبت أن تنقطع
 صورة في معه. تناولنا طعام العشاء في مقهى يكثر أحياء المدينة حركة. مدَّ
 ماضيه في الساحة الممتدة أمامه بين الأشجار، وتحت شمسيت كبيرة
 أعدت الإضاءة العمومية تبعث بصور حافت يبدو حزيناً في الظهيرة الملبدة
 بالغيوم، وهناك أربعة أو خمسة رجال فقط في الساحة كلها. جاء البادل
 وغذت بالهولندية، وماريك تومس وتقول "يا، يا، برما" وجه الرجل
 الحديث لي، وهو يكمل ما حُفَّت أنه قائمة الوجبات الخاصة، وأنا أومئ
 وأردت "يا، يا، برما" وهي تكلم صحنكها حتى ذهب. قالت إنني كنت
 أرد في المواضيع السليمة حتى ظنت أني أهم ما يقول طلباً طعناً وعدوا
 للحديث. حكيت لي قصص المهاجرين المسلمين بهولندا وأنواعهم، من
 القلة القليلة التي تندمج في المجتمع إلى هؤلاء الذين يهربون ولا تسمح
 لهم الظروف أو المجتمع بذلك، وهؤلاء الذين لا يهربون الاندماج بل
 ويحاولون تغيير معالم المجتمع كي تنم وعاداتهم
 تناقش بعض الوقت في معنى الاندماج، وقالت إن من حق الأقلية
 المهاجرة أن تطالب المجتمع المضيف بالتأقلم مع عاداتها، وأن يصبح لهذه

العادات صدى، لكن هذا الحق يُجر ضحية هؤلاء الذين لا يهربون في تغيير
 عاداتهم، خاصة حين تكون الأقلية المطالبة بهذا الحق بعضها غير رابعة في
 التأقلم مع المجتمع المضيف على الإطلاق. نَحْنُنا عن العمل التطوعي الذي
 تقوم به في أحد المراكز المتخصصة في مساعدة المهاجرين على التعامل مع
 النظام الصحي للعقد. استأذنت بالمسابقة وأجرت عدة مكالمات تتعلق
 بهذا المركز، وسمعتها ترّد برما وأحدثت أقدنا، فخرجتني وواصلت
 الحديث. ثم قُصاً وذهباً للمشي قليلاً بالمترو الرئيسي، وضحكنا من قصة
 متره ليد الذي نعر على السور في كي تحافظ على طابعه اللذي. سألتني
 عن انطباعي، وقلت إن لاهاي تبدو كمدينة هجرها أهلها، على الأقل
 مقارنة بالقاهرة ردت بأنّها هي التي تعيش في ليد نجد لاهاي هادئة
 وعاطفة أكثر من اللارم. مررنا وجلسنا وسراً حتى المساء، ونحن نتحدث
 ونصمت، دون أن يكون الصمت ثقیلاً بيننا؛ نصمت، وأشعر أننا مازنا
 متصلين - كأننا نتحدث لكن بلفظ صامتة.

في الثامنة وصلنا أمام كنيسة قديمة قالت إنها تدعّب إليها في بعض
 الأحياء عندما تكون في لاهاي. انبسمت وأنا أعبر رأسي في يأس عابث.

- صحيح، مازلت لم تفسري لي قصة الكنيسة هذه؟

- بلى، لقد فسرتها حوالي عشر مرات في الرسائل.

- لقد شرحتها عشر مرات بالعريزي، لكنك لم تفسرها!

- حسناً، سأحاول تفسيرها بعد غد فهذا سذهب للمستردام،
 ولا يصح الحديث عن الدين في هذه المدينة بعد غد سذهب لشاطيء
 قُربم ترى المحيط. قلت إنك لم تدعّب لشاطيء المحيط من قبل. سأعذرك

لهذا، وساعتها لن يكون لديها شيء يجعله سوى القدر
- طيب، بعد غد إذا.

- الآن هناك حمل لعرف التشيلو الشهير بيتر وسيلي في هذه الكيسة:
سيزحف مقطوعات تصديقك للمصّل "باح" لمدة ثلاث ساعات: هل تريد
المحضور أم أن لديك مشكلة في الدخول للكيسة؟
- هل عجز حي؟ ولم سيكون لدي مشكلة؟

- لا أعرف، واضح أن لديك شيء ضد الكائنات، يعني ربما باعتبارك
شئنا كسليم وكذا.
- ومعلقة هذا بذلك؟ سؤالي لك عن مسألة الإيمان برمتها، ليست
عن الدين الذي تبعته.

- يعني تدخل؟

- طالما أني أضطر للصلاة!

لم يكن أحد مضطراً للصلاة، فهذا البيتر وسيلي من شعاف أرواح
الجمهور حتى دعت عيوشا من أثار. وماريك سعيدة كطفلة، ونحتلس
الظفر لي من وقت لآخر، وعيني وجهها تشامه عريضة. سعيدة هي لأنا
معا، ولأنا بشعر بهذه الراحة الكاملة بحوار أحدا الآخر، أم سعيدة
لأنها تراهي حالت في قلب الكيسة، وكانت تظن أن ذلك سيُسبب
مشكلة؟ قلت لمعني ربما هي سعيدة لأنا بشعر بالراحة معا، حتى
ونحن في قلب عالمها هي كما حالسين في الصف قبل الأخير، ملتصقين،
والجمهور الغليل مورع عني الصعوف الحشبية، يحتلس بعضهم الظفر
نحوها من حين لآخر أعرف هذه الحالة أنا الوحيد صاحب البشرة

الداكنة في الكيسة، ولابد للجمهور الأبيض أن يتأمل هذا العرب
ماذا يفعل هنا؟ هل يتعلم كي يرتقي ويصبح مثلاً؟ هل هو يا ترى دليل
على أن هناك أمل في هذه الشعوب؟ أم أنه يتظاهر كي يحدع هذه الشُّعراء
للكيسة؟ أعرف هذه الحالة وأكرهها، لا أريد أن أكون دليلاً أو عية أو
حتى غودينا لكني قليلة لا أبه، أهتم للجمهور العسوي، أملاً باطري
من ماريك الحميلة، وأعرق مع الموسيقى التي تعمر حبات الكيسة الحالية
من الزخرف، ولتصني روعي، إن استطاعت، من أجل باح
نخرجنا من كيسة الموسيقى في الحادية عشرة، وقررنا أن الوقت قد
ناشر على العشاء، فعدا للسرل وتناولوا بعض المأكلة، وقصا بطقسا
المسائي حول الحفام المشترك، والقبيلات الصديقة، ثم ذهب كل ما للنوم
في غرفته

في العاشرة تماماً رايت وجهها المشرق يظهر وريداً وريداً على سلم
محطة جسر بروكلين وشعرها الأصفر القصير يتهدى حول وجهها مع
صعودها لنسج نحو الشارع، رأيتي وانتمت ابتسمتها العريضة الحالية.
عند الدرجة الأخيرة من السلم مددت لها يدي، فأمسكتها ولقبتني مي
فاحتضنتني. استسلمت لحصي. طال عانقا والتصفا أكثر. جسمي كله
يمسك بها. لا أريد أن يفلتها. لم أكن أعرف أن أعرف أن أعرف جسمي يمكن أن
يكون لكن منها إرادة مستقلة. لم أكن أعرف أن أعصاني يمكن أن نشاق،
وأن تشعر بالتصني بأحد، وأن تهدأ هكذا في حصه. كأن كل جرحه مي
يطالبي بالأدع هذه المرأة تتعد لا أريد تركها، وهي لا تتركني. تراحمنا

برأسها للوراء قليلا كي يرى بعضا أفضل، لكننا ظللنا ملتصقين احمر وجهها قليلا من الخجل، لكننا لم نبتعد.

عددا ودقا وجهها في حصى بعضا، ثم نظرا لبعضا مرة أخرى عيناها حمرانان هذه المرة، من الذمخ، وهي عيني مثل دمعها، وهي قلبي المقيم. التصفا لا ينري مادا يعمل بنمسيا. بعد وقت، لا اعدم كم، تراجعنا قليلا وإن ظللنا لمسكون بعضا البعض. وصعت دراهي حول كتفها، وأمسكت هي بذراعي الأخرى، بلعت ريلي، وسرنا نحولنا عيني شاطي، النهر، وبذت صابي بيهورك من الساحة الأخرى. أناس من كل لون وصف يجلسون على الأرائك الخشبية المنتشرة في المكان، يباهيون يلتقطون صورا لواجهه بيهورك البحرية كما تبدو من هاء وآخرون يركضون أو يتزعمون وكلاهم. جلساء، وسرنا، والتقطنا الصور لبعض الأرواح المحتاجين ليد تلتفت.

"لا مفر. أنا أحبك"، قلت. "وأنا أحبك"، قالت. "أنت توأم روحي"، قدا. وكل هذه السموات لم تمر، وكل هذا العذاب لم يكن، أو لا بهم. عمرت لك ما بقيته على يديك، أنا الذي لا يعمر. واعتبرت هي عن الألم الذي سبته، وقلت "لا داعي"، فقد كان الحق معها ربما أعنى الحب بصري عن الصعوبات، لكنه لم يعمها هي من رؤيتها، وهذا لا يجعل الخطأ ساطعا. اعترفت بأنها كانت غفلة، وبأن حبا كان مستحيل التحقق. لا أحد ما يمكنه أن يصبح شحضا آخر حب واستحالة مشما قالت أو مات، وسرنا نحو الشقة التي نطقت فيها. صعدت معي لتراها، هي التي لم تر أيدا مكانا يعيش فيه. وانسمت وهي تقول إن المكان يشبهني، واعتصت

أني لست بهذه الغرضي، فقالت "عنى العكس" شرها سويا كاشا من البورتو، وقلت كاذبا، إن أشره مد رحلتي إلى ليد مد عشر سوات. صحتت وقالت إنها أقتعت عه مد رمس عاتريا المرل ونحولنا في بروكليس طيلة النهار. لا عرف كيف ترك بعضا، ولا كيف نطل سويا ثم قالت ربما، بعد سموات أخرى، ربما في نهاية طريقنا أو قبلها بقليل يمكننا أن نكون سويا. دكرتني بأسا فكرنا ذات مرة أن سرور فيسبا سويا، ربما يمكننا أن نتقل للعيش هناك، هي وأن، في يوم ما. ومصطلحا على أن تكون فيسبا هي مكانا المشترك، الحقيقي أو الخيالي، المدينة التي يمكن فيها للحب أن يقهر المستحيل مشما تقول القصص، المكان الذي لا يكون فيه للواقع المقدرون، وأن نعني آخر أهلكا هناك. اتعقا على فيسبا، ثم سرت معها إلى محطة جسر بروكليس حتى تلتحق بالقطار الأخير، وتناقنا طويلا، ثم تفرقا على أن يلتقي في اليوم التالي عند سنترال بارك.

أحدثني ماريك من يدي، ولقت بي أمستردام حيا حيا. استأجرنا دراجتين لتتقل بهما، واكتشفت عندها الفرق بين أن تعرف ركوب الدراجات، وبين أن تقود دراجة في مدينة بها الآلاف من فائدي الدراجات لكني صعدت وعصت في إمام الحولة دون إصابات كان الجو باردا أكثر من الأسس، ولم أرند ملابس ملائمة. وهي تصحكت من لوتجاني من البرد أحيانا، ونفسي في أماكن معلقة حتى أندا أحيانا أخرى. أهدنا مركبا له سقف من الزجاج نحول بنا في القنوات التي تربط المدينة ببعضها. ومشيا كثيرا، يتحمل سرنا توقعات عديدة للطعام، أو الذم

والقهوة. وفي كل ذلك، وساعة بعد ساعة، كانت الحقيقة تتجلى أكثر لكلنا.

هذه توأم روحي، وما كنت أظن يوماً أن أقول كلمة كهذه، وسأحجل لو سمعت نفسي أقولها، لكنها الحقيقة هذا شعوري، وشعورها، وكل شيء فيها يقول ذلك بلا مواربة. أصبح أكثر ارتياحاً مع بعضنا، كأننا عارفان بعرفان كيف يوائما بمعانيهما سوياً دون تدريب. لم أحفظ لهذا، لم أتوقع هذا، كنت أمل في أن يجمع الأمر، لكن ليس بهذه الدرجة، وليس بهذه السرعة. أنا أحب ماريك. دفاعاً عن نفسي، يمكن أن أقول أن ذلك حدث على مدار العام، عبر الرسائل وكل هذا، لكنني لست واثقاً من صلاة هذا الدفاع. لا أعرف، حقيقة لا أعرف، لكن شيئاً عبر مألوف حدث لي خلال هذه الأيام القليلة، كأن باباً افتتح داخلي ودخلت هي مع وملائت المكان. أو كأنها مدت يدها داخل روحي فالتصلت بها، وسارت روحها عبر أليدينا حتى سكنتني.

أنظر إليها وأعرف أنني لست وحدي سعيدة هي، مضطربة بعض الشيء، لكنها سعيدة لا تكاد ابتسامتها العربية تغرق شعيتها. ولديها عاززان طليعتان لم أرهما من قبل، لا يكادان يحيطان من مرط الانسام. احمر أنفها وشعثها أكثر، وتصيب عينها وتدمع أحياناً. ثم تنق، وتروح بعيداً، وأخمن ميم تفكر، ثم تعود إلي مرة أخرى. أعرف أنها عني، لم أكن واثقاً من شعور أحد مثلاً أنا الآن، ليس ميماً أو حيرة، لكنني أعرف. أنظر إليها وأعرف، لا أحتاج أن تقول شيئاً.

نامت على كعبي في القطار، وهي عطة ليدن احتضتها، وسرا لبيتها

وأنا أطوقها بدراعي، وفي صالة البيت تماقنا بحق، وعلى الأريكة الكناية قبئها وقبئتي، وطللنا على الأريكة حتى بدأ الصو، يتسلل من الحاندة الكورة فصعدنا لغرختها، ولم نستيقظ إلا متأخرين في اليوم التالي.

وجدتها مستيقظة عندما فتحت عيني، فاستيقظت في مكانها بالفرش لكنها مستيقظة، وتظهر إلي بعيني. ابتسمت، فابتسمت، خشيت أن تكون مرتكة، أو مادمة، أو غاب ظننا، لكن ابتسامتها اتسعت، ومدت يدها وسمدت وجهي. قمت يدها، واحتضنتها. تشغل أصابعي شعرها الفصير وأعلى رقبتها، وهي تستكين برأسها على صدري. قلت:

- صباح طيب

- قل يوماً طيباً الساعة العاشرة والنصف. لم استيقظ متأخرة هكذا

منذ سنين.

- اتضح أن الفراش جيد، فيما أرى، وأحسب أن تركيب أيضاً

قلت متظافراً، فلكرتني:

- هيا، يجب أن تنهض

بهفت، رائحة الحزن، ودعيت نحو الحمام غفوت مرة أخرى، ثم

شعرت بحركتها في الغرفة. نظرت إلي في لوم

- سألته لإعداد القهوة، وسيفرضي مشاركتك لي في احتسائها.

فهرزت من الفراش بمجرد خروجها اغسلت وارتدبت ملابس، وبعطت الدرج الخشبي الذي صرت أحبه، ولحقت بها عبد المنضمة بجوار الحديقة قرباً سريعاً أن يؤجل زيارة الشاطيء، فالجو ملته، ويدور أنها تستعطر، كما أن الوقت تأخر، والهار قصر في كل الأحوال.

أنظرنا بشيء، حفيف وجرجا. دها لمحل بيع تسجيلات موسيقية، حيث اشتريت بعض الشرائط التي كنت أبحث عنها منذ فترة، وأعدتني هي مجموعة لمعية السورامو الهولندية الأولى، ومجموعة أخرى لموسيقى "باح" دها بعد ذلك في جولة قصيرة في المدينة، تحبها توقف للقهوة وتناقشات أخرى. تحدثنا عن عملها، وقالت إنها تريد أن تتركه وأن تعمل شيئاً له عائد عامة أكبر، مثل العمل في مستشفى عام، أو على إصلاح نظام التأمين الصحي. اجتمعت ساعراً؟

- مستشفى عام؟ أه لو رأيتني المستشفى التي أعمل بها في القاهرة! لو كانت مسلحاً لما اختلفت كثيراً!
- لهذا الحد؟ لماذا؟

- لماذا؟ لأننا بلا أسرة في أحوال كثيرة، وبلا أدوية في أحوال أكثر، وبلا أطباء مؤهلين دائماً، ولدينا سيل لا ينقطع من المرضى لا يمكن لنا بأي حال أن نعالجهم رعاية لائقة، فعمل كل ما مائش هناك المحلل الذي يحاول دائماً فعل الخير، لكنه مضطر بحكم الظروف لأن يحتار قلة من المرضى، لئلا يلقوا رعاية حقيقية في حين يتحلى عن البقية، وهناك من يحاول أن يكون عادلاً، فيوزع الرعاية المحدودة المتاحة على الجميع بالتساوي، حتى لو أدى ذلك إلى تعاقب مرضهم جميعاً، وهناك من لا يأبه ويحاول بدل أقل جهد ممكن إزاء هذا السيل العارم من المرضى، حتى لو ماتوا جميعاً، وهناك طلبة الانتظار الذين يجدون في هؤلاء المرضى فرصة لا تحصى لتجربة خبرتهم المحدودة فيهم، خاصة وأن نقص عدد الأطباء المؤهلين يجعلهم أقل وقوفاً تحت الرقابة والإشراف، وبالتالي أكثر

استقلالاً. يتعلمون فيهم بحق، بطريق التجربة والخطأ!

- هذا شيء مريع!

- نعم.

- وكيف تعيش مع هذا الوضع؟ كم مضى عليك هناك؟

- سبع سنوات.

قلتها وصمت. اضرورت عيادها بالدموع واحتضنتني. قست لها ألا تأبه، وإنني تعودت وليس في الأمر شيئاً يستحق الدراما، لكنّها ظلت تختصني، وتقول إن هذا شيء مريع، وتسال كيف احتملت كل هذه السنوات؟ ثم لا أعرف ما الذي جرى بالضبط بعد ذلك، لكنني شعرت شيئاً غريباً باختناق في حلقي، وبدأت أبكي في صمت، ثم انقلب البكاء لنشيج مسموع، وهي تختصني أكثر. كنا جالسين على سور حجري قديم بجوار جسر صغير على قبة ريفية، وأنا غشي، في حصنها، وجسمي يتنفذ من حين لآخر. لا أذكر كم من الوقت مرّ عليها حتى هدأت. ظللت صامتاً برهة، ثم قلت إنها قد تصطرّ للعودة للسور لتعير سترتها لليلة، وصحكت، وضحكت وقتلتي، ثم غر كما نحو البيت.

سألتني لم أحس عواطفني داخلها لهذا الحد؟ وكيف لا أكره أن أكره عملي مع كل ما أراه فيه؟ حاولت أن أشرح لها.

ليس هناك من حل آخر، لو تركت الأمر لعواطفني لما عشت طويلاً في مصر. كل شيء يجري بنفس الطريقة تقريباً، بأشكال مختلفة ولكنّ بمس المنطق في المستشفى هناك أناس يموتون. ربما ترين نتيجة الإهمال مباشرة أمام عييك، لكن ماذا عن أشكال الإهمال الأخرى التي تقتل

الآلاف ولا تربها بعبيك؟ ماذا تفعلين بهذا إن فهمته وأدركته؟

هزت رأسها في أسى، وقالت

- لا أعرف. لا أستطيع أن أعرف أفرا عن هذه الأمور أسمعك، وأسمع الآخرين يتحدثون، لكنها تبدو لي أكبر من قدرة البشر العاديين على الاحتمال. أنت لا تعرف لأي مدى أحترم هؤلاء الذين يعيشون في هذه الظروف. لا أرئي لهم، بل أحترمهم وأرهم أقوي، وقوى البشر بشكل من الأشكال. أتعرف أول ما يجديني إليه؟ هذا المربع من إدراكك للمأساة الإنسانية والتعاطف في نفس الوقت حتى طرقتك في الفكاهة، تجمع بين إحساس حاد ومرهف بعنق المأساة الإنسانية، وفي نفس الوقت التعاطف والرغبة في النجاة. لا أدري كيف تفعل هذا، ولا أعني قدرة على فعله.

- الأمر بسيط، ولا عظيمة فيه على الإطلاق. أنت تكبرين وتعدين نفسك تحت عجالات منظومة شديدة الفسوة تهرس من مجز فوقه، وحين تهرسك أول مرة تصرحين من الألم، لكن عليك القيام والمشي، حتى لو على قدم واحدة. هل تشاهدين أفلام الحرب أحياناً؟ أتري كيف يستطيع الإنسان التأقلم مع أسوأ الظروف؟ هذه هي الفكرة العامة، وكما هذا الرجل وهذه المرأة. معهما ساءت الظروف، فابك تحاولين أن تكلمي اليوم الذي بدأ. ماذا يمكنك أن تفعلين غير ذلك؟

لا أدري، الأمر كله أكبر من قدرتي على التحيز. لقد عشت حياتي كلها هنا، بين ليند ولاهاي وأستردام، ولما سهرت ذهبت لباريس والمديان ثم إلى نيويورك والتي عثرتها معامرة مثيرة وأنا

محظوظة، كن ما أعرفه عن الناس الجمعية أعرفه من آخرين، مث، من مهاجرين ألفاهم هنا، من كتب، من التلفزيون ومن ثم لا أستطيع أن أدعي القدرة على إصدار أي حكم. من أنا غير فتاة مرفهة؟

- أنت امرأة في عناية الدكان، والرقعة، والصدع، ولديك قدرة مذهبة على التمتع لروح الآخرين، وعني بهم تذكيرهم. وما يهتم في موسهم خلف هذا التفكير. لم أر أبداً أحداً هكذا

قلت، غلظاً. ابتسمت وقالت في هدوء، ولكن بجديّة تامة:

- يمكنني أن أستعجم بعض هذه الكلمات في صمتك. أنا لا أكاد أصدق ما يحدث لي. لا أصدق أي وجدت هذه الدرجة من الاتصال مع شخص آخر. ومع شخصيتي من عالم آخر تماماً، ولكنه مع ذلك كأنه أنا أخرى.

صمت وتفرق دمع في عيني، فاحتضنتها صحتت مرئكة:

- ماذا؟ هل هذا دوري كي أبلل معطفك؟

ضحكوا وسرنا متشابكي الأذرع بجوار القفا بانحاء الطعام الذي سلتني فيه بأحبيها. كنت متبتهج هذا اللقاء دخلنا المطعم، وتوجهت لتزورها لشاب وقبته هو أكثر شقرة منها مهذب ولكنه بعيد عياد لا تلتصحن عن نظرتة كأنه يراك من خلف رحاح نافذ أحاديث عامة، عن هولندا ومصر وغير ذلك من توافه حديث عندما لا يكون للناس ما يتحدثون فيه فذكر شيئاً عن دراسته، وسألني عن عملي. تبادلت ماربك عن صديفته فاجابها بأنها رحلت، وأن الأمور عاصمة بينهما صمتا حميميا لغترقا، ثم سألني عن رأيي في الأحداث التي تجري في الشرق الأوسط ابتسمت

وردت بين قطعتين من الخبز أي لا أعرف عما يتحدث بالضبط، فلم أسمع الأخبار منذ عدة أيام. احمر وجه ماريك ونظرت لي معانة. قال إن هناك أحداث عنف في الضفة العربية، وهناك قتلى يسقطون يوميًا منذ ثلاثة أيام. كنا في أول أكتوبر، ولم أكن معًا قد شاهدت أو سمعت حريقًا واحدًا من ذلك. صمتُ سألني عن رأيي في كيفية تسوية هذا الصراع، وبدأت أشرح بالضيق من سر المحادثة. حاولت الاختصار؛ لكنه كان يشعر بالرغبة في المتابعة فيما يبدو، فشرح لي وجهة نظره بأن العرب ارتكبوا خطأ حين غاصروا هجرة اليهود لفلسطين في القرن الماضي، وأنهم لو فعلوا مثل الهولنديين الذين رحبوا بكلّ المصلحين، وأفسحوا لهم مكانًا لما نشب هذا الصراع أصلاً. قلت شيئًا عن العارقي بين اليهودي والنصارى عن ملجأ من الاضطهاد، وبين الحركة الصهيونية التي كانت تبحث عن مكان تُعليه من سكانه وتستوطعه هي، واحتلها طمعًا حول سر التاريخ، فقال إنه يطمح حدة شعوري كوني فلسطينيًا، فقاطعت ماريك، متصابقة بعض الشيء، ومذكرة إياه بأني مصري. صمت لحظة، ثم واصل، وشعوري بالاحتياق يردد. انصمت، ومازحته حول دقة معلوماتي التاريخية حين الاتيين، ثم أقررحت أن مذهب لبيت ماريك، وشاهد الأخبار وسأحاول معرفة هوية القاتل اليوم. اعتذر بارتباط سابق، فقمنا، وتصفحنا وذهب في حين عدنا نحن للمنزل رقم 7.

جلست أمام التلفاز، ودخلت ماريك تُعد لنا كأسين من البورتو بدأت الشرقة وفهمت بعدها ما كان يجري منذ 28 سبتمبر في الأراضي الفلسطينية، ووجهًا رأيت على الشاشة رجلًا وبجانبه طفل، في الحادية أو

الثانية عشرة، يجلسان على أرض شارع بحوار كتلة أسمنتية لا تحميها ثمانًا، وصوت إطلاق رصاص لا يقطع، والرجل يحتتمي بالكتلة، ويدفع بالولد حنف جسمه؛ ليحميه من الرصاص في نفس الوقت الذي يحاول فيه أن يُشير بيده لمطلق الرصاص أن معه طفلًا. استمر المشهد ثواني، ويبدو أن صوتي كان يعلو لأن ماريك أتت بسرعة وأنا أصرخ "باللهي" في اللحظة التي تكوم فيها الولد قتيلاً بين يدي الرجل الذي سقط فوقه من الإغيار. حل علي صمت مطبق، وجلست بجواري واحتصتني. لكنني لم أبتك. ظلمت أحدى في التليفزيون في صمت. مدت يدها، وأغلقت التليفزيون. ظلمت حالت بلا حراك، وظلمت صامتة طيلة المساء.

التقيا في اليوم التالي كما التقيا، وسرنا قليلًا في المتز، ثم أخذتها لمحل برجر دورف وجودمان.

- أريد أن أشتري لك شيئًا.

- ما المناسبة؟

- لأني لم أشتري لك شيئًا أبدًا، وأريد أن أفعل ذلك.

- من برجر دورف وجودمان! هل تدفع لك المستلزمات أموالاً وفيرة لهذه الدرجة؟

- لا بهم، سأشتري لك شيئًا صغيرًا.

وذهبنا، واشترت لها طاقيّة من الصوف بستمانه دولار، وضحكتنا، ثم ذهبنا لمطعم جديد في حي كان في الأصل مقرًا لتجارة الجمجمة في النجوم، وتحول مؤخرًا لمطعم مطاعم وتناولنا عشاءًا فاخرًا. ثم سرنا طويلاً حتى

وحسنا لمركز ووكملر، وشاهدنا معرضاً عرائياً في ساحة المركز. سرنا طيلة اليوم وأذرعاً متشابكة، أو أيدياً، أو يد أحداً ممسكة بالآخر، أو دراعي ملتصقة حول كتفها، أو رأسها على كتفي، أو دراعها حول حمري. طيلة اليوم لم ينقطع تلاصقنا، كأننا بعض ما فاتنا، وما سوف يأتي. لماذا نفعل هذا بأنفسنا ياماريك؟

استيقظت مبكراً في اليوم التالي، ولم أجد لها في العراش. اعتسلت وهبطت بملايس يومي الرمادية فوجدتها في المطبخ. ألفت عليّ بحتة الصباح، وقالت إن القهوة جاهزة، وإيها استيقظت مبكراً فذهبت واشترت في الجرائد الإنجليزية. انسمت وشكرتها قبلتها في ظهر عفاها أسفل شعرها، وحلست أحسنى القهوة وأقرأ الجرائد. كانت صور محمد اليرة، الفنى الذي شاهدت قتله على الشاشة بالأمس، مملأً وأصعها الضحك، وقالت لي ماريك إن هذه صحفاً محافظة لا تسعى لحلف الإثارة، ولا تشر صوراً حادة كبد في العادة تحذراً قليلاً عن اللصوص، ثم مررنا لذهب لشاطي، سحبي سحبي القريب كان الجو مشمساً بعض الشيء، وسرنا في هدوء. تحذنا عن الأمس، وعفا يحدث في الأراضي المحتلة، وأمسكت يدراعي، وهي تشرح لي كم تشعر بالأمس عندما ترى هذه الأشياء، وكم يخطر قلبها على قسوة البشر وعبانهم الذي يندفعهم لقتل. في المحافظة استقرت في حصي، وعدنا رغب الطريق. سألتني كيف أشعر وكيف أتعامل مع هذا الأمر؟ هررت كتفي وقلت إنني لا أتعامل مع هذا الأمر، مثله في ذلك مثل المستشفى التي أعمل فيها، مثل الهواء للثورت الذي أستشقه.

- كثيراً ما سألت نفسي لم لا هاجر؟ لكنني أكتفي بالسؤال. لا إجابة لدي، لكنني أعلم أنني لن أفعلها أبداً.

- أعلم.

- كيف تعلمين؟

- لأنه هذا هو أنت. ولو هاجرت لن تكون نفس الشخص.

- طرية عادة لا أجمع في طرح هذه النقطة لأحد.

الأمر لا يحتاج للشرح، يحتاج للشعور. من يترك حقاً، من يمس روحك، سيعرف أنها لا يمكن أن تعيش خارج وطنها

- بالمناخ، ما حكاية الروح هذه؟ لقد وصلنا سحبي سحبي، بمحكك أن تعترني الآن

- لا تسخر مني، ولا يوجد اعتراف في كتيتي.

كما قد وصلنا بالعمل للشاطي. أمواج المحيط هادئة، كنداهي على شاطي، وعلى طويل دون سحب، وتلال صخرة من الرمل الأبيض يملوها بعض الغشب، ولا شيء آخر الجو مليء بالعبير ونسب المطر، وهناك بعض الريح سرنا على الشاطي. وقد تلغنا بكل ما معاً من ملايس. تلف كوفية من الصوف الأحمر حول رقبتها، وتبنت نظارتها الرقيقة على وجهها الذي اكتسب بجذبة مطلق. حككت لي عن إيمانها. ليس المسيح بالسبب لها شخصاً عاش بالعمل من ألفي عام:

- ربما يكون هذا هو الأمر وربما لا، لا عارق عدي. فهو فكرة، فكرة عن التسامح وعن التصحية، وعن رفض الإنسان إيذاء أخيه، فكرة عن الحب بين البشر. أما الله فهو في قلبي، هو النور الذي يصي في الطريق

لا يهتم الأدلة والبراهين، ليس الأمر متعلقاً بإثبات وجود أو غياب، وإنما يتعلق بأن تعرض في أعماقك، تتحد شيئاً نقياً بذلك على الطريق الصواب وعنى الحق هذا الصوء داخلك وداحي ودخل كل إنسان، وهذا هو الأمر.

- والكيسة؟ والطقوس؟

- الكيسة هي رابطة تجمع الناس سوياً، تجمعي وأهل ليدن نحن يشاركوني هذا الاعتقاد. ليس كيسة تقليدية، ولا نفس أما برونسات في نهاية الأمر إيماناً رابطة مباشرة بين كل فرد ما وبين الله، لا محتاج لوسطاء. لكننا محتاج كيسة تجمعنا على فعل «شعر» وعلى التضامن. تعرف، كثير من اجتماعاتنا تدور حول أمور دينوية مثل إصلاح المتره الذي حدثت عنه، أو مساعدة بعض المحتاجين، من الفقراء أو المهاجرين، عن تحسين المدينة وأموالها، أو حتى عن مصاعب روحية نقابلها، هي شبكة للتضامن.

- لا أعرفي لم، لكن كلما شرحتي الأمر كلما زاد معروفي منه. ألا ترى أن الموضوع برئته مريب؟ ما هذه الكيسة إن لم تكن قائمة على اعتقاد ديني. شبكة للعلاج الجماعي؟ مجلس مذهب؟ ولم تناقش هذه الأمور في مؤسسة دينية؟ أليست هناك جمعيات حيوية، ومجلس منية حقيقي وأحزاب؟ الأمر يبدو كأنه طائفة سرية!

- لا طائفة ولا سرية، هذه كيسة ومفتوحة للجميع. ونعم هناك كل هذه المؤسسات، لكننا رابطة روحية، وببساطة رباط روحي وهي، وهو ما يمكننا من العمل في هذه المؤسسات التي نتحدث عنها.

- ما زلت لا أستطيع أن أفهم هذه الحالة الروحية الدينية. هل أنت مؤمنة فعلاً؟ يعني بإله خلق العالم في ستة أيام، وبالجنة والنار والخلاص، وهكذا أمور؟

- كثير ما غير مؤمن بهذه الأمور، لكن الرابطة الروحية التي نجعلها شيء أقوى من مجرد الإيمان بالشكل الذي تقدمه المسيحية القديمة! كان المطر قد بدأ في الهطول، فقلت ضاحكاً إن الله يعاقبنا على هذه الهرطقة، لكن مراسي لم يرق لها احتياناً في مطعم صغير شبه مهجور، واستمرت في محاولة شرح أبعاد إيمانها وارتباطها الكئسي، لكن الأمر ظل مُستعظماً على ذهني. أعلنت استسلامي، لكنها رفضت وقالت إن هذا الأمر هام لها، وبصياها أن أفهمه بوصح أحدنا راحة من النقاش قصبتها في تناول ما تقدمه لنا الطعام المهجور، ثم استأنفت محاولة الشرح خلال طريق العودة، لكنني ظلت لا أفهم كيف يمكن أن تكون هذه الطيبة اليهودية المتفتحة بهذا التدين، وظلت هي لا تفهم كيف يمكن أن أعلق عيني عن "روحي" لهذه الدرجة.

اليوم لدى كل ما عمل حليلة النهار، لكننا التقينا وقت العشاء، لساعة واحدة لم تناول طعاماً، وإنما أحذنتي من يدي، وسارت بنا نحو الحديقة الثالثة ذكرتي بحاجة لحقبة لأورالي - كنا قد تناقشنا في الأوراق، والمحادثات عرضاً في رسائل مد عام - وقررت أن تأخذني لمكان تعرفه مشترتي منه واحدة. حدثتني عن أنواع الحفلات الجلدية، ووضحت لي نوعاً قالت إنه شهير، وبالفعل احترت اثنتين من هذا النوع، وتركت

لها (الإحتيار النهائي، فعلت، واشترت لي حقيبة بية اللون، سألتني إن كنت قد اشتريت شيئاً لسلعى فهززت رأسي مؤكداً أن لديها ما يكفي من الخفائب صمكت وقالت لي فعلاً أحمق، والآ وجود شيء اسمه ما يكفي من الخفائب ليست. احترت حقيبة صغيرة كان من المستحيل أن أختارها واشتريتها، وحرراً سريراً أخرى في الشوارع الساعة الثانية ويحب أن يعود كل ما نعمله، ولا نريد الافتراق. ثم استجمعا شجاعاً، وتباحثا حول سوكنا الضيائي، وتوجهنا لمحطة المترو

عندما لمزلها حيث جمعت أعراسي بسرعة، ورحلنا باتجاه محطة القطر في بداية رحلة العودة في شارع المحطة توقفنا لتناول بعض الطعام، واقتربت أنا أن محزب المطعم الإسرائيلي. كنت أريد أن أعرف ما هو هذا الطعام الإسرائيلي الذي يبدو لي وأنه مجرد شاورما وعلال مصرية. دخلنا للمطعم، وتولت هي الحديث حتى لا نقشي لكنني حسيتي للمعادية لكني لكة الدل بدت لي مصرية مائة بالمائة قلت لها ذلك مصحكت، وسألتني كيف يمكن أن أعرف أنه مصري من لكتته في الحديث بالهولندية أفست لها إنه مصري، وعندما عاد ليحضر الطعام سألتها بالعامية المصرية دون مقدمات:

— هو انتو بتعملوا الطعميه بالقول ولا بالخمس؟

— لا يا باشا بالخمس، أصل نفيس قول كفاية ها.

— هو للطعم ده بتاع مين؟

— بتاعي أنا وبمجموعه أصحابي.

— أسأل إيه حكاية الأكل الإسرائيلي ده؟

— أصله كان بتاع واحد إسرائيلي رمان، ورحا يشترياه منه، ولقينا أن الجماعه اليهوديين عاجبهم حكاية الأكل الإسرائيلي دي فحبها، إنفا إحنا كلنا مصريين.

— طيب وحياتك هاتلي طحينة.

عرفت في الصحك عندما ترجمت لها فحوى الحديث. تناولنا طعاما الإسرائيلي وتوجهنا للمحطة، وجلسنا ننظر القطر. كانت المناقشات قد اشتعلت وأستنا موعد رحيلي، وسبنا أن نتحدث عن الأمور الهامة: متى سلتني؟ هل سلتني؟ ما معنى ما حدث ها بيسا؟ كنا نتصرف كزوجين يعرفان أنهما سيطلا معاً، ولكسا ها في محطة، وسألتني فطار وأركبه، وأنصبي في حين نظل هي ها. لم تنمق على شيء، لم نحسم شيئاً، ولكننا نتصرف وكأننا اتفقنا على كل شيء، وحسنا كل شيء أحبها، ونحسبي، وشعر بالخجل من الإقرار بأننا وقعا في الحب بهذه السرعة. ماذا سمعنا؟ هل سنتقل هي لتعيش معي في القاهرة هي التي لم تر العالم الثالث إلا في شرات الأخبار، أم أعزب أنا، وهي تعلم أني لا أستطيع حتى إن شئت؟ كيف نصبا الوقت في مناقشة كل شيء إلا هذا. الوقت يمر، ولم يتبق على قطاري سوى ساعة أو بعض ساعة. حسنا في مقهى واسع في شارع المحطة، مقاعده خشبية كمقاهي وسط القاهرة، وطلبا شوكلاته ساحة قلت لها إنني أريد رؤيتها قريباً فأست على كلامي. قررت أن أكون هولندياً ولو لساعة، وسألتها إن كانت تريد أن تأتي وتقيم معي بالقاهرة. احمر وجهها، وقالت إنها تريد أن تجرب الإقامة معي.

لكنها ليست متأكدة من أن هذه فكرة طيبة، الوقت، والظروف، وغير ذلك. اقترحت أن نغرب، أن نغرب، لماذا لا نأت في عيد الميلاد القادم وتقضي عدة شهور محي؟ تحدث قليلاً واتقنا عسى ذلك. صحتك من قلبي لأول مرة هذا اليوم، وتعانقا عائلاً طويلاً على رصيف القطار، واتقنا على أن تأتي لتقيم معي في عيد الميلاد.

سألتني ماذا سأفعل هذا المساء بعد رحيلها؟ قمت إن اليوم عيد ميلاد سلمى، وسعود من واشنطن بعد الظهر، وسجعت كلنا بها. أمرت أمها، المصنعة على إدارة حياة سلمى عس بعد، أن يكون عيد الميلاد لدى الجد درويش، وليس في بيتي أو في مطعم، أو مكان عام، وأن يكون الجَد هو صاحب الدعوة، وأن يدعو عائلتها المحببة أميرة وروحها داوود العربي الأطوار. بيد أن كثرة التعديلات صاحبت الجد درويش، وهو الذي تعود إصدار التعليمات، فقرر دعوة كل من له علاقة بسلمى من قريب أو بعيد وهكذا أفسدوا جميعة عيد ميلاد ابنتي الواحد والعشرين. ربما هذا ما أرادته ليلى؟ مادامت هي غائبة فلا يجب أن يكون هناك عيد ميلاد حقيقي لا جديد في هذا.

نظرت لي طويلاً، وسألتني بحدّة، "ولم تقبل أنت بهذا؟" تناقشنا مطولاً، مطلقاً فعلاً ذات يوم في لندن، وقلت أشياء كثيرة وقالت أشياء، لكنها كانت حادة بعض الشيء، وقالت شيئاً في وسط حديثنا عن العارق بين احترام مطالب الآخرين، وبين السمية. ظلت الكلمة ترد في رأسي: "سلبية؟ أم؟". سألتني إن كنت سأقابل سلمى في اللحظة، فقلت إنني لست

متأكدًا بعد. هزت رأسها مستكرة، وقالت في ود: "أرايت؟ هذه سلبية". لم لا تقابلها في اللحظة ومعك ورد أو حلقة صغيرة، وتأخذها في تاكسي للبيت، أو تمشي سويًا؟ سيحبك هذا وقتاً لتحدثت معها قبل انقصاص شيفر. أردت أن أحتج على وصفي بالسلبية، لكن ليس هذا وقت النقاش، فماريك ستسافر هذا المساء. قلت إنني ربما أذهب فعلاً لمقابلتها في اللحظة بعد أن تسافر ماريك. سألتها إن كان يجب عليّ توصيلها هي أيضاً للمطار، فضحكت ولم ترد.

أحدثت اليوم أحارة، وفعلت ماريك نفس الشيء، والتفينا مرة أخيرة عند محطة جسر بروكلين. سرنا ونحدثنا عن كل شيء ثم وصنا لنفس النقطة التي نصل إليها دائماً. قالت:

- لا أستطيع الحياة في مصر، بل ولا أستطيع الحياة خارج هوليود، وربما خارج لندن. هكذا أنا، اكتشفت أنني هكذا، مرتبطة بهذه الأرض وبهؤلاء الناس الذين هم أعلي وجماعتي، والكيسة التي تسخر منها، ولا أستطيع. ربما نيويورك.

ضحكت، وذكرتها أن نيويورك في الأصل اسمها أستر دام الجديدة، وأن أسلافها هم الذين يوها، وبالتالي فهي لا تشكل شيئاً حقيقياً عما قالته. سألتني بجدة إن كنت أستطيع أن أعيش في نيويورك للأبد. سألتها كيف يمكن للحب أن يكون محدثاً جغرافياً؟ عصبت وقالت: "ليس الحب المحدد، بل إمكانية الحياة سويًا". هزت كتفي دافئاً: "ومصر؟" قالت "أعرف"، وصمتنا. لكن لماذا لا نحاول؟ حتى ولو كنا نحاول كي نعشل، ونشع من هذا الحب الذي لا يتركنا. لكن مثلاً لن يشعنا بالضرورة،

وهل تريد فعلاً أن تشفى. تناقشا من بعيد حول امرأة، وكل شيء قلناه من قبل، ولم يصل نتيجة لم يصل إليها من قبل. الوقت يمضي، وموعد الرحيل يقترب. قالت: "ربّما هي آخر العمر لنلتقي، وربما هي عمر آخر، زمن آخر". نظرت لها ولم أحب. هل هذه هي السيدة التي تتحدث عنها: أن أقبل عوقفها هذا؟ هل هناك طريق آخر "غير سليم" يمكنني من إبقائها معي؟ أخرجت من حقيبتها الطافية الصور التي اشتريتها لها وترددتها، والكاميرا وجوهرتها حملت الحقيبة التي اشتريتها لي على كتفي كي تظهر في الصورة، ألقنا رأسيأ ببعضهما، وانفطعت صورة أخيرة لنا معاً

6

مدرسة كوينسي آدامز الابتدائية

والشطى، الجو حار، حلق عدنان معقلته ووقف بالقميص، بلا فائدة؛ وطوبه الجو نكس على الأنفاس. ليس هذا بأسبب الأوقات للبحث عن الذكريات، لكنه لا يملك عبر هذا الوقت، هل يظل يواشطن سوى ساعات قبيلة، وصل مساء أمس، وقضى الصباح في تسوية بعض الأمور القانونية، ثم ذهب لبحث عن بيتهم القديم، وبعدها جاء لهما. أحد الترو حتى مبداء ديون ثم سار على قدميه إلى هنا، ثماناً مثلما كانت أمه تفعل حين تصبحة للمدرسة. لم يعد يواشطن مد أنهى المدرسة، وكل ما يذكره عنها، وعن الطريق والبيت مُتداخلاً ومُشوّشاً. كان قد طوى هذه الصفحة منذ زمن، وظن أنه سيها، مد ذهب للحمامة في ديترويت واستقر بها.

www.mlazna.com

ARABIAHENA

خرج من الباب، وسار في الممر الطويل المهادي للعصول من الخارج حتى وصل إلى السلم الآخر، ذلك الدرج الصغير والصيق، حيث كان التلاميذ الغوات يصبون الكمائل للسكاكين من أمثاله. هذا كان يتم التشكيل به، ربما مرة كل أسبوع. هذا كان يتم تجرده من أي مال يتصادف وجوده معه، وهو أمر نادر. لكن كان دائماً معه طعام، وهو ما كان الغوات يأخذونه، ويغفرون إليه في قرف، ويسألونه سحري عن اسم "المسحوق" الذي أعذته له أمه أول مرة أحابهم: "فون"، قالها بالعربية لأنه لم يعرف المرادف بالإجليزية، ولم يصدق الأولاد أنفسهم صخبوا بالصحك، ثنوا أحدهم بعضاً منه ثم يصفقه، وتبدلوا اسم نصف الرعيف المعروف بناية في ورق سلوفان شفاف وهم يصحكون، ثم فتته أمام عبيه وهو واقف بلا حول ولا قوة، من يومها أصبح اسمه في المدرسة "قول"، ولكن بالمعنى الإجمالي طيفاً.

دار دورة أخرى في عمرات المدرسة ثم خرج وقف أمام الباب شطحات. هل انتهت الرهارة هكذا؟ جاء إلى هنا بعد صرع طويل مع نفسه، وتسؤلات عما إذا كان من الأفضل أن يدع الملاصقي في حاله ويساه. سأل وتساءل، بل وبحث في كتب علم النفس، وبعد تردد وتفكير طويل قرر أن يأتي. جاء ليحاول استعادة نفسه التي كانت، ليحاول استعادة شعوره وهو طفل في الثامنة، أو العاشرة، أو الثانية عشرة. لكنه لا يشعر بشيء. لا عواطف خيافة تعتربه، ولا دموع تعالجه. جُلَّ تركيزه منصَّب على عمالة التذكر. هل كان هنا هو نفس الممر الذي يحتضن به في ذاكرته؟ هل كان هذا، فعلاً هو الدرج الذي بهببه عبده فتوات المدرسة ويحشى عبوره

كم من الوقت مر؟ عشرين سنة، تعرب فيها حياته كلها، لكنه حين سحبت له الفرصة عاد ليعني نظرة على يته القديم، ومدرسته الابتدائية واضطلي، وعدنان ينتصب عرفاً يسير على قدميه بحثاً عن مدرسة كوينسي أواخر الانتداب. كانت هنا في مكان ما، بحث على الإنترنت هذا الصباح في الفندق، وتأكد من العنوان 2020 شارع 19 بحي آدامس مورجان. ذكر موقع الإنترنت بأن علي لم يُسم على اسم شخص واحد مثقف يلقب الكثيرون، وإنما على اسم مدرسته الابتدائية. كوينسي أدمس المتخصصة بسبعين، وتومس مورجان المتخصصة للأطفال اللذين لم يكن عدنان يعرف ذلك. فكر أنه من معارفات القدر أن يذهب هو لمدرسة آدامس، هو الذي ينتمي كلية لجانب مورجان. لا بد وأن أباه أعطى المدرسة عنواناً وحيثاً في المنطقة، وإلا فما الذي جعله يرتاد هذه المدرسة رغم أنهم يقطنون في جيبا؟ هذا هو شارع 19، يصعد الشارع قليلاً كنت اقتراب من المدرسة، يذكر هذا، وهذا هو مبنى لمدرسة يوح من بعيد. لا بد وأنه هذا التمتع حوله وبظر نحو آخر الشارع، ليس هناك مبنى آخر يمكن أن يكون مدرسة. نعم، لا بد وأنها هذه إذاً. لكنها تبدو أكبر مما يتذكرها. استغرب، هادة تبدو الأشياء أصغر.

اقتراب من باب المدرسة وصعد ببطء درجات السلم الرخامي العريض حتى الأبواب تبدو أكبر. دخل من الباب وبظر لا يوجد بالمدرسة سوى بعض الموظفين. ابتسمت له سيدة بديقة، وأومات برأسها وهو يمر أمامها لا بد وأنها اعتادت هذا المشهد. أناس يأتون في الأجارت، لينقوا نظرة على حياتهم التي كانت لا يتعمرون على أحد، ولا يتعرف عليهم أحد.

كل يوم؟ أم أنه أخطأ في المكان؟ لا، لا مجال لخطأ. هذه هي مدرسة "كوبسي آدامز"، هكذا تقول الثلاثة، لكن لا يشعر بشيء سوى تلك الرطوبة الخائفة

سواء وهو يأتي هنا كل صباح. يأتي به أبوه في سيارته الشيعرولية من طراز إمبالا إنتاج عام 1974 بشكلها المصحح. من أين أتى أبوه بهذه السيارة المتهمة العارضة؟ من يوم ما وعي على الدنيا وهو يرى أباه يقودها؟ كان واضح العجز بطولها الذي قال إنه ستة أمتار. ذات يوم خرج عديان ليقبس طولها، فوجد يقف عن ستة أمتار بأربعين سنتيمتراً، فعاد للمرسل بسرعة وأحمر أباه متحدياً بالكشف. كان الأب يأكل شيئاً، حسناً على ما يذكر. احتر وجه الأب فجأة، وألقى بالملقعة في وجه عديان مباشرة. يذكر حيناً فطرات الحساء وهي تطاير في الهواء، والملقعة نشق طريقها لوجهه. أسطوانته وأصابت شاشة التليميون بدلاً منه، مما أثار الأب أكثر فقام ليمسك به، لكن الأم عطلته ثوانٍ شبيهة سمحت له بالفرار قبل أن يفتك به الأب العاصب. لا يذكر كيف انتهت الحادثة؟ لا بد وأنه اعتبر لأبيه، لا بد وأن الأم طلقت منه ذلك، ففعل اتفاقاً للشر مزّت الحادثة سلاماً، لكنه من يومها تعلم ألا يهدي ملاحظات سلبية بشأن الإمبالا.

ترتبط للمدرسة في ذهنه بالإمبالا أكثر من أي شيء آخر، ربما باستثناء المترو الصغير المجاور للمدرسة. تنفت بحثاً عن المترو فلم يجد سيبب للبحث عنه بعد قليل. كان لدى الأب سيارات كثيرة، ربما ستة أو سبعة، تُشكل أسطولاً من السيارات التي يُؤجرها للمكب الذي افتتحه، وعديان في الصف الرابع، يذكر ذلك اليوم، حيث أوصلته أمه للمدرسة بدلاً من أبيه

على غير العادة؛ لأن الأب كان قد ذهب ليهي بعض الإجراءات المتعلقة باستأجار المكب. كان حدثاً جليلاً للعائلة الصغيرة، به انتقل الأب من كومه سانتا أجيروا لصاحب عمل. في البداية لم يتجر شيء في حياة عديان، سوى أن أمه أصبحت تأجله للمدرسة أكثر، ربما مرة كل أسبوع وأحياناً مرتين، وكان يحب ذلك. إذ كانت الأم تأخذه في المترو حتى محطة ميدان ديون؟ شهره عربات المترو، والأصواء التي تضيء وتطفئ، وحنها على الرصيف حين يقترب القطار من المحطة، ويعنه جريان القطار بهذه السرعة الكبيرة تحت الأرض ودون عوائق. يذكر دهشته الشديدة عند حروجه من محطة ديون أول مرة. ظل السلم الكهربائي يصعد بهما لفترة طويلة، وهو لا يصدق أنه وكل هؤلاء الناس كانوا على هذا العمق. كان يحب كل شيء في رحمة الدعاب للملوسة مع أمه. إسساكها، بيده طول الوقت، اتصافه بها، اللصحات التي تطلعه إياها، صبرها عليه عندما يقف فجأة لمرحاة على شيء. نعمت بظرفه، بل ومشاركتها هذا الاهتمام وانخرطها معه.

لم تكن قلقة أن يتأخر على المدرسة، عكس أبيه المستعجل دوماً، بل هو الذي يذكرها أحياناً بأن عليهما الإصرار. كان كأنهم في مرحة، يتأمل الوجه العنيدة التي يراها في عربات القطار، ويشير لأمه لثري ما يرى فسكته بالهتامة متواظفة، فيصيحك ويدهش رأسه في حمرها، وتسبح على شعره.

الإمبالا كانت واسعة جداً، ومقاعد الأمامية عبارة عن كمية كبيرة محبّنة من الباب لنياب، فكان دائم الانزلاق من مكانه في انحناءات الطريق الكثيرة التي بأسفلها أبوه بسرعة في البداية يجلس ملتصقاً بالباب،

ويصرح بنظره في الطريق وإشارات المرور، والاتجاهات وأشكال السيارات الأخرى، ثم فجأة تدور السيارة في أحد اللفحات بسرعة، فيرل على الكبة نحو الأب الذي يستد له نظرة مريبة تمرّ به، أب يعتدل في جلسته، حيثه عذبان من أفكاره ويرحف عائداً نحو الباب، ويصعد أن يظلّ ملتصقاً به أطول قدر ممكن، لكنّه يصرح بأفكاره مرة أخرى حتى تدخل السيارة في انعطاف أخرى، وهكذا وبالإضافة لهذه الانعطافات، والقيادة الشريفة، واتساع الكبة الذي كان يشو بلا نهاية، والخوف الدائم من إثارة عصب الأب، كان هناك الشعور بالعتيان الذي يلازمه كلما جلس في الإمبالا لم يجرؤ على البوح بذلك لأبيه أخيراً، فقالت له إن كل الناس تصاب بدوار السيارات، وإن ذلك أمر مشابه لدوار البحر.

ثم يكن يعرف ما هو "دوار البحر"، فصمت. يدخل السيارة في الصباح الباكر وهو يغالب النوم، ويترقب مجيء الغليان، ثم يظل يقاومه ويحاول التشنّث بالباب عما جمعه دائم الصمت، صاحب الوجه إذا حدثه الأب أو سأل في شيء تلعثم وتناه يحدّجه الأب بعد صبر، ويعود للقيادة وهو بهز رأسه يأنس، فيعود عذبان للتكمون ومحاولة التناث. يمران على تقاطعات كثيرة من البيت للمدرسة، وبعد كل تقاطع ينظر عذبان لطريق الذي لم يأخضوه، ويتبسّ من قلبه لو أن أبه أحد ذلك الطريق بدلاً من الطريق المعتاد لا يدري لماذا، ربما لأنّه يعرف الطريق المعتاد ولا يريد، يحسم بشيء آخر. ذات مرة سأل أبه بل أي يقود ذلك الطريق الآخر، فطر إليه الأب بسخرية وأجاب بأنّه يؤذي لمكان غير ذلك الذي هم دهبون إليه. يتذكر ذلك ويتساءل عن هذه الطرق: سبي أسماءها الآن.

ثم يدخل منها وهو طعن، ورثما دخلها بعد ذلك، ولم يعرف أبها هي تلك الطرق التي كان يتحسّر وهو يحلقها وراءه في الإمبالا للسرعة. هبط درجات السلم، وسار على الرصيف يحملها المدرسة صاعده التلة بحثاً عن الشجرة الصغرى. سار دقائق قليلة، ثم لاح له سورة الحديدي. واصل الصعود حتى يبعه فإذا يمدو غتفتافاً سأل نفسه وهو يحدق بقلق في أرجاء الشجرة الملعب في وسطه هو، والتلّ شجرت الخراف صعب التسلّق كما هو. لكن لماذا يمدو غتفتافاً؟ هل كان هذا المسمى هذا؟ هل هذه دورة مياه أم عرفة لخادم؟ هل أعادوا بناءه؟ هل يُعاد بناء المترهات، أم تره أحياناً الانعطاف؟ ربما هناك متره آخر في الساحة الأخرى.

كان أبوه يرله من السيارة عند هذه الساعة، كي يتعدى إصاعة الوقت في الانتعاف من شارع كولومبيا، فيمر على الشجرة يومئاً في طريقه لباب المدرسة. يجب أن يكون ها إذاً، أو رثما في الجانب الآخر من للمدرسة باب آخر من شارع 18؟ امرأة سمره صوبلة القامة تدخل الشجرة من الجانب الآخر، وتحس عند المسمى الصغير الذي لم يتعرف عليه. فكر أن يذهب ويسألها لكنّه تراجع. ماذا يقول لها؟ نظر راحتها مرة أخرى، من بعيد تشبه تلك العتاة التي كانت معه في المدرسة، التميمدة الأجنبية الأخرى لم يكن يعرف اسمها. قال أحد العتوات إنها هدية، فأحدوا يتدرون عتاً إذا كانت ترثدي ريشاً، وتحمل سهماً. صحكوا، لكن تميمدة مجتهدة علقت في سحرية من جعل رملاتها بأنّ ليست هدية من الهدى، وليست هدية حمراء، فردّ كبيرهم بعلقة متسانلاً عن الفارق: أليسوا كلهم هنوداً؟ وهي ساعتها صار اسمها "البت الحمراء". كان عذبان يستلطف "البت

الحمره "لكنه لم يجرؤ على مخاطبتها يوماً، كما أنها كانت محل سحره، فلم يرد أن يريد من وضعه سوتة إن شوهد معها. هل يمكن أن تكون هي تلك الجملة في آخر المشرة؟ نظر بإمعان ناحيتها. ما الذي فعله؟ تخرج متلهلاً، وممسح وجهها. هل تبكي؟ ما هذا؟ يوم تذكر الماضي؟ لا، لابد أنه الحمر. امرأة سمراء طويلة تستريح في مترو ليس أمراً نادراً، صحيح إنها في نفس العمر الذي ستكون عليه أليس الحمره، لكن لا يمكن أن تكون هي. ذلك من هذه الترهات، دع المرأة في سلام، قال لعمري

واشنطن، والحر حائق. جمال يحاطره أن ملائسه غير ملائمة بالمره. هو الآتي من ديترويت لم يحضر بهالة أن يكون الجو بهذه الحرارة في واشنطن. اجتمع لعمري. "ملايسك دائماً غير ملائمة، وأنت طفل مثلاً وأنت في الأربعينات، لابد أن العيب فيك أنت". يذكر هذا الأمر كأنه مسمار يوحى فيه شعوره وهو طفل يرتدي ملابس غير ملائمة للبرد في الشتاء، وغير ملائمة للحر في الصيف، وغير ملائمة للشهر في حملات المدرسة، وأعياد ميلاد زملائه القليلة التي دُعي إليها. تشعر بالعار من نفسك وأنت ترتدي ملابس غير ملائمة، كأنك تفعل ورراً لا تريد للباس أن يروه، تحاول أن تحجبهم عن أعينهم بأن تحل نفسك تحاول أن تأخذ أقل حبر من المكان، والأ تاني في طريق نظرات الأطفال الآخرين في العنق، تجلس في مقعد حائبي، لا في الأمام حيث المجتهدين، ولا في الخلف حيث العتوات، بل في الوسط حيث لا يلاحظك أحد. وفي العاء أو المحطات تأخذ مكاناً قصياً، وتصبغ فطر الإنسان، وإن قابلتك أحد أو وحه الحديث لك تحاول أن تنهي هذه اللحظة بأسرع وقت ممكن. قضيت ليس حلاً مضموناً،

فقد جبر عليك التويد من التحقيق، والمريد من الرعة في الاحتفاء، دائماً ما سأل نفسه من أين يشتري أبواه ملائسه، أليست هي نفس المتاجر التي يشتري منها بقية أولاد المدرسة أعراسهم؟ ذات يوم رأى في مدخل محل بجوار مكتب أبيه بطلوناً من الجير يشبه ذلك الذي يرتديه أحد الأولاد المحبوبين، فاستجمع شجاعته وطلب من أبيه شراءه، لكن الأب قرعه لحشعه ومطالبه التي لا تنتهي، فصمت ولم يعد ثمنها. الملابس غير الملائمة، الأدوات المدرسية غير الملائمة، واللعب غير الملائمة، قرر أن يتوقف عن التفكير في هذه الأشياء، لو استرسل في التذكر هل يعادى واشتغل اليوم لو استرسل في تذكر لعمري المصحكة، والسحرية التي حررتها عليه طيلة سنوات طفولته، أو أدوات الترتيب على الجبهة التي حاء بها يوماً لهذا المشرة فجعلته أمثولة بين زملائه، لو أعطية الرأس والقفازات الأكبر منه مقاساً، أو الأصغر مقاساً لم تكن له صدقة واحدة طيلة هذه السنوات أو صديقاً للجميع بأي عه. الولد الأسمر الأحقر. لا، لا داعي للاسترسال.

نظر مرة أخرى للمشرة هل هذا فعلاً نفس المكان الذي كان يرتاده يومياً؟ ها كان ينتظر عبي، أبيه بعد المدرسة كي يقفه في رحلة أخرى بالإمبالا إلى البيت كان يحب هذه الرحلة ويكرهها في نفس الوقت يحبها لأنها تأخذ له لراحة البيت وعناية أمه وطعامها وتدليلها له. ويكره العودة لأن الإمبالا تكون حارة صيفاً باردة شتاء، فالأب لا يحب تشغيل تكييف السيارة عندما تقف في الإشارات. لا يدري لم، حين سألته ردة بأن التكييف يُعَبِّع للحرك أشد الوقوف. وجد عديداً ذلك الأمر عريباً. لماذا صممت شعروية محرك سيارة بهذا العاء؟ ألا يعرفون أن في أمريكا

إشارات؟ سأل أباه، وفاجأه السباب والوعيد الذي حصّنه به الأب عدته (كان ذلك قبل حادثة قيس طول الإمالة). استسلم من يومها لتقلبات الجو في السيارة أثناء رحلة العودة، وشغله ذلك لحد ما عى الشعور الطاعى بالعيان، وجمع أحياناً في النوم أثناء رحلة العودة، مغايل بعض التفرع من أبيه عند الوصول. في البيت ينام الأب بعد العداء، وتفرص الأم على البيت الصغير حظراً لتحويل والتحدث فينتهي الأمر بعدوان لدوم أيتها، لكنه عندما يستيقظ يكون الأب قد عادر المنزل إلى مكته الذي يظن به حتى العائدة مساءً قبل العائدة يكون قد تسَلَّل للفراش حتى يتعاضى عودة الأب المصحوبة بلعات يصتها عى سائق بالمكتب، أو ربون تأخر أو جابر ترك سيارته في مكانه المُفصل، أو البك الذي يُطالبه بالفلسط الربيع سوي أو - إن تعذر كل ذلك - على من يراه في البيت أولاً. لتعاضى كل ذلك يصتحي عدنان بما يشاهده في التلهف، ويتسلَّل للفراش في العائدة إلا حمس دقائق، ويظل يترقب يفرص قلبه في صلوحة عندما يسمع صوت محرك السيارة الضخم وهو بهذا تحت التأفدة، ثم صوت درجات السلم الخشبية الخمس، وهي تترنم ثقل الأب الصخم الخفف، يعقب ذلك نكة المفتاح في قفل الباب، وصخب الوعيد والسباب.

كما كانت هناك الأمسيات التي يصاحب فيها أباه للمكتب، وذلك في العطلات. يحاول عدنان التملص لكن بلا فائدة يقول الأب أشياء عى مساعدة الابن لأبيه، وعن أنه يأكل ويشرب طيبة العام عى حسابه، ولن يفتنه أن يرد بعض الحميم بمساعدة طيبة يقدّمها بتواجده بالمكتب، وفرد على التبعون يكره الذهاب معه، لكن المكتب لم يكن كله عذاباً،

فقد كان هناك سويتا، موظفة الاستقبال الهديّة الأصل، والتي كثيراً ما تأتي للمكتب مرتدية الساري الهندي الموزن أجمل مافيه، من وجهة نظر عدنان، هو أنه يكشف وسط جسمها بالكامل، يظنها وظهرها وحبيته، وأنه يمكنه الجلوس والنظر إلى هذا الجسد دون عواقب، خاصة إن لم يكن أبوه بالمكتب. كنما مالت في انحاء أو عيّرت وقتتها تعوّرت ملامح شيات وسطها وظلاله، وصار يعرفها كلها ويبحث عنها كانت تلك هي متنته الرئيسية في هذه المرحلة من حياته، هي والرببحر بطعم الجبن حين يجمع في انشراح دولار من هنا أو من هناك وحين يُعصر عنيه ويتجمل ملمس وسط سويتا، كان يتحمله حريماً مثل طعم الرببحر كذلك كان يحب الانشراح ل أبو رهندي، السائق العلسطبي. فهو يحكي حكايات مسلية عن مصر وفلسطون وبلاد أخرى يرغم أنه عاش فيها، ويحدثه أيضاً عن أبيه، ويحزّنه ألا يقلل صفعاته وإهاناته أمام الآخرين هكذا بلاد

يلدعه ما يقترحه عليه أبو رهندي. كيف يرد؟ يستب ذلك في المريد من الصّغعات، ورثما في الربط بالسل والصرب بالمرام مثما حدث في العام الماضي حين رفض الذهاب معه للمكتب والأسوأ من ذلك سيؤذي إلى أيام من الصمت المرعب في البيت كله، وسيخص على أمه. يرد أبو رهندي بكلام كثير لا يفهمه عدنان، لكنه يحب أن يسمعه. والحقيقة أنه كانت هناك مصادر أخرى للمتعة في للمكتب، حتى حين يكون الأب حاضراً، مثل وجبات الدجاج المشوي والخبز المحلّل والخبر اللياني التي تأتي في بعض الأمسيات، أو وحدات المول والمختص والتي يحضرها أبو رهندي في الصباح في العطلات (حيث إن الأب لا يؤمن بمبدأ الراحة الأسبوعية

للمكتب). لكن الذهاب للمكتب يعني أيضاً صياح فرص شعبة في قضاء
أمسيات هادئة وحسنة مع الأُم والتعلُّز، وفرص أكثر لتعرض لزيارات
الغضب المفاجيء للأب بما تحمله من تهديدات.

أدرك عدنان وهو واقف أمام مقتره أن كل لحظات طفولته احتلظ
الحُب فيها بالكرهية، والسعادة بالنعاسة استعرب أنه لم يكره في الأمر
بهذا الشكل من قبل. كان عاصباً وعذوباً من سلطة أبيه وتحكمه حين
غادر منزل العائلة إلى الجامعة في ديترويت. كان عاصباً على أبيه، وانعبر
عظييه حين ماتت أمّه بعد رحيله للجامعة بغامض وقام الأب بدورها دون
أن يحضر الابن العائب. برز الأب ذلك بتعاليم الشريعة التي تحمّد الله في
السرع وقت يحكم، لكنّها كانت القسوة التي قصمت ظهر البعير، أو لعنّها
كانت فرصة انتهرها عدنان ليعمل ما كان يتوق سراً ليعمله منذ طفولته. لم
يرد على أبيه ساعتها، قال له "شكراً" ووضع الساعة ثم لم يعد للاتصال
به بعدها لم يتصل به الأب أبداً، وهو ما أدهش عدنان قليلاً، وإن كان
أراحه من عاء مواجهة بحشاها ووفر له مدناً من الأسباب التي تكثت أنه
على حق في مقاطعته للأب. وهكذا ماتت علاقتهما، في صمت، حتى
مات الأب نفسه منذ شهرين.

لم يحضر عدنان دفن أبيه، انتقاماً. قرر أن يردّ الصاع لأبيه الميت،
وكلف جمعية إسلامية خيرية بتولي مراسم الدفن، وكلف محامياً بتصفية
ما بقي من أملاكه وديونه. لم يعد لها حتى الأُمن حين دعاه الدكتور
درويش حال أنه لربارته في نيويورك بمناسبة عيد ميلاد سلمى. منته هذه
الدعوة في الضميم، فقرر المجيء لها وتصفية هذه الأشياء، والذهاب

ليويورك لروية سلمى. لم يكن يعلم أنها في نيويورك لم يرها منذ كانت
طفلة حين كان يقابلها مع أمها في الأجارات الصغيرة. عدنان يحب
الدكتور درويش منذ طفولته. يذكر رباواتهم ليته في نيويورك، واحتفاء
أمّه به. رغباً لهذا السبب يحبه، فهو لا يذكر أن الدكتور درويش كان
حسباً عليه بصورة خاصة - رغباً أعداء شيئاً ذات يوم، على الأعلب
كتاب لا يذكر لما كان يحبه لأن أمّه كانت تحبه، وتقول إنها محورة
بأن يكون حالها رجل عظيم كهذا وتدعو لعدنان أن يكره ويصبح مثله
لكن الأهم من ذلك أنه كان أحياناً يقابل ليلى أبة الدكتور أثناء هذه
الزيارات. ليلى في مثل عمره تقريباً، لكنّها أكثر حرارة منه هي التي بدأت
بالتعرف عليه، وأسدته في جولاتها "السوية" بنيويورك. لم يكن في هذه
الجولات شيء خاص، عربة التسوق، محل الفرح، فهوة ومحل للعصير،
ومكان على الهر تحت جسر لا يذكر أين، و"حامي" سرية من التي يتفنن
الأطفال في حبقها. كانت تتحدث طيلة الوقت وهو يصغي، مبهوراً
أكثر من أي شيء آخر. حكّت له عن حياتها في مصر والمدرسة هناك،
والأولاد والبنات، وكأنّها تفتح له علماً سحرها، عالم كلّ أولاد في مثل
شكله واسمه، وعاداته وملابسه. قال إنه يحب لو ذهب للمدرسة في
مصر تلك التي تصعبها، فقالت له إنه لو فعل لصار نجم المدرسة، فهو آت
من أمريكا.

ظل يحبّ بذلك أسابيع طويلة: هو نجم المدرسة. ثم سافرت ليلى. ولم
يرها إلا بعدها بستين أو ثلاثة، لا يذكر كانت قد كبرت ولكنّها ظلت
مدعومة مثلما كانت. واستعداداً صداقتها بسرعة، وأصبح يتحدث هو أكثر

على سؤال درويش، سري نفسه حين يصل نيويورك هذه الليلة. وصل عدنان لوانشطل مساء أمس، وقّع على الأوراق، وأنهى بقية متعلقات أبيه هذا الصباح، ثم قرّر أن يلتقي نظرة على الماضي. على المدرسة والبيت. قضى ساعة يبحث عن البيت، ثم قالت له سيدة عجوز إنهم هدموا المربع الذي كان البيت جزءاً منه، وبوا عليه بمغفلة سكنية متكاملة كوندو. نظر للكوندو ولم يشعر بأي شيء. لا شيئاً من قريب أو من بعيد لتبيت كما يتذكره، حتى ملامح الشارع تعفرت. لم يضع المزيد من الوقت وجاء للمدرسة، وهاهو أمام كوينسي أدمز.

ها، في هذا المشره، على ما يذكر، كان ينتظر أباه كل يوم بعد المدرسة. وكان الأب دائم التأخر؛ لا يذكر عدنان مرة واحدة خرج فيها من مدرسته ووجده. أحياناً يتأخر حتى يرحل كل الأطفال، ولا يبقى في المشره أحد غيره. عندئذ، يتظاهر عدنان بأن المشره حديقة فصره، وبأنه باشا كبير مثل هؤلاء الذين يقول أنهم جندودها، ويجري في المشره يتفقد أحوال أملاكه، ويأمر العلاجي ويصبرهم بالكريماح وعادة ما تلعب الحيوانات الحديقة الصادة دور الفلاحين الموزن، وتلقى كرايحه في صمت وحسوع يفعل ذلك ليظن أنه ليس حائفاً، ولا متصيقاً من وجوده وحده في المشره. لكن الخوف يعمه في النهاية، فيسحب بكرامحه الوهمي إلى أحد الأركان، ويكتمش فيه حتى يسمع صوت محرك الإسمالا الحقيقة. يتجهج، للحظات قليلة، ويجري نحو السيارة، حتى يرى أباه بقاتمه العارعة ونظراته السارية، وسحته المهذبة فيهدئ من سرعته، ومع حلول الأمن على الخوف تعود المشاعر الأخرى لوقتها. يدخل الإسمالا،

قليلاً لكن ليس بالقدر الكافي، ليشاركها الأفكار التي تدور برأسه. ثم سافرت مرة أخرى، وعندما رآها بعد ذلك كان مع أمه في ريارة سريعة لسيويورك. كان قد أنهى المدرسة وعنى وشك الرحيل للجامعة بدترويت، وهي انتقلت لتوها لتعيش مع أبيها بعد وفاة أمها. صارت عروث متعماً قالت أمه لها وهي تغضضها وتغصصها. أحبها حين رآها، في ثيابها السوداء، وحرنها الداعي للاحتصاص. نظر إليها وأدرك أنه يحبها منذ أول صيف قابلها فيه. لكنه لم يجرؤ على مُصارعها بشيء من هذا. وحين طلبت منه مراسلتها من ديترويت أو ما موافقاً في تلغيم، وهو يعلم أنه لن يلعل.

لم يبق عدنان على اتصال بالدكتور درويش بعد معادته بيت أهله في واشنطن. لم يرسل ليلي بالطلع، فهي ولاشت لديها معجبين كثيرين في نيويورك، ولن تهتم بشباب مثله. لكنه كان يرسل للدكتور درويش بطاقة معايدة في العيد متعماً طلبت منه أمه، وواظب على ذلك حتى بعد وفاتها كما توقّف مرة أو مرتين منذ سنوات في نيويورك وزاره، وبالصدفة رأى سلمى هناك. حقق قلبه بشدة حين رآه، أول مرة، قدر ما كانت تشبه ليلي أمها وهي صغيرة، تلك التي يستعطف بها في عيكته على الأقل. لم تكن ليلي موجودة بالبيت في المراتب التي رأى فيها سمي، وحمد الله على ذلك. لكنه شعر بحب أبوي غريب يحرقه ناحية الطفلة. ثم انقطعت أخبارها بعد ذلك، ولم تعد تأتي لريارة حدها درويش ولهذا استعرب عدنان اتصال الدكتور درويش به، ودعوته له لحضور عيد ميلاد سلمى. ما الذي أتى بها؟ هل أنت وحدها أم أن ليلي ستكون بالجامعة؟ لم يجرؤ

ويلتصق بالباب، ويحاول عدم إثارة غضب الوالد.

محنة خطر له هذا السؤال: كيف يمكن لأبيه أن يشعر بالأسى والخوف في نفس الوقت؟ عريضة، لم يفكر في الأمر على هذا النحو من قبل. لكن الحقيقة أن حضور أبيه كان يطرده ذلك الخوف منه، ويُمرل فيه خوفاً من نوع آخر. الخوف الأول عامض، فهو لا يعرف ثم يخاف حين يكون وحده. يخاف أن يحطمه أحد لو يظل في الشارع ولا يعود لبيته أبداً، وهي أمور عواظها تُدر بشرور عاصفة مر حارس المدرسة مرة عند التشره ووجده مكشئاً في أحد الأركان. كان قد مر وقت طويل منذ انتهاء موعد المدرسة ورحل كل الأطفال والمدرسين والعمال ومرع الشارع كماً. توقف الحارس وبرز من على دراجته، وقال شيئاً لعدنان لم يفهمه. الحارس طيب اللامع، لكنه يتحدث بملكة قوية لا يفهمها عدنان. أدرك أنه يطلب منه الركوب معه على الدراجة، فتؤدد قليلاً ثم فعل. لا يعرف أبي سيأخذه الحارس، فهو نفسه لا يعرف عنوان بيته. لكنه لم يعرف ماذا يفعل غير أن يطبخ الحارس، وهذا ظهرت الإساءة وانتهى الأمر على خير. ظلَّ بعدها يتجنب الحارس، ويسأل نفسه عما إذا كان الحارس يولي احتطافه (طبعاً الأب قرعه تقريباً شديداً) على شروعه في ركوب الدراجة مع الحارس. وحود الأب يطرده هذه الهواجس، لكنه يملؤه بخوف آخر: خوفاً من احمرار وجهه القماحي، واستدارته إليه بعنة ثم نزول الصعقة على وجهه، أو الشيء الذي سيفعله به، أو الشباب والوعيد بتقيده بالحبال وضربه بالحزام وتكسير عظامه، أو خوفاً أعظم حين يحدث ذلك لأمه.

في هذه اللحظات كانت كراهيته لأبيه تنصف بأحشائه، ويتحفل بعسه محسناً بأبيه بهمة من كتمه العريضة ويدفعه نحو الحائط أو خارج السيارة وهي مُسرعة يتسنى ويدعو في قلبه بإحلاص أن يحتج الأب أن يموت هوذا، أو أن يذوي ويتضرر في الهواء، أن يرتطم بالإسبالة أو يسقط بها في الوادي العميق الذي يعبروه كل يوم أحياناً يتحفل بعسه وهو يهجم على مقود السيارة عند عبور الوادي ويدفعها لتسقط فيه. لكنه لا يفعل، بل يصمت، ثم تطلب منه الأم أن يتنثر فيعمل، ويساعده الأب على الشيء الذي لا يعرفه. مع الوقت، أصبح هذه الرئيسي في وجود الأب أن يتعادي ثورات عصبه، بل وبدأ يتعلم بعض الأشياء التي تجلب عليه رضاه، كلمة يقولها تأليفاً لشيء، يقوله، مدهباً للأب أو شاء على الإساءة، وكثيراً من الانتصامات. يفعل ذلك تقريباً من أجل الحصول على بعض رضاه وتجنب بعض عصبه. ثم بدأ يستخدم هذه الحركات لتحقيق أهداف محددة، كأمسية هادئة مع أمه أمام التلفاز بدلاً من الذهاب للمكتب، أو دولار يشتري به الزنجار الموعود دحواله البيت، أو من أجل الهدف الأكبر. الحصول على ساعة في عيد ميلاده الحادي عشر. مع التمرين رادت فتراته على التحايل، وتعلم أن يذكر لأنه كلاً أثناء يوم أبيه في الظهور يعلم أنه سيسمعه ويتعجب به، وبلغت به الحكمة أن قال لها أثناء يوم أبيه المترحم أنه يشعر بالذنب لأن أباه يبدل جهداً كبيراً في العمل من أجله، وأنه يعلم باليوم الذي يكره فيه ويرد هذا الجميل لأبيه. كان ذلك بهدف تليين مقاومة الأب والحصول على الساعة، وقد أثبت المحاولة أكلها في الأيام التالية حصل على الساعة، لكنه شعر بما يشبه الهرطقة.

أختر يريد أن هذه الملابس فعلاً غير ملائمة. قامت السيدة السمرات، وبمعت ملابسها وشرعت في الترحيل الوقت بحر، ويجب أن يرحل هو أيضاً. نظر في ساعته؛ طائرته في السادسة ولو غاتته لعائته عشاء الدكتور درويش. يجب أن يكون بالمطار قلبها يساعتين لإنهاء إجراءات الأمن. من الأفضل إذن أن يرحل الآن قبل حلول ساعة الرحام. انقربت السيدة السمرات من الناحية التي يقف فيها. حذّلت فيها، فوجدتها تنظر ناحيته. أو ما في حمامة فقطبت جبينها مستعربة. توقفت ونظرت ناحيته مرة أخرى:

- مقولة؟ هل هذا أنت؟

- أنا؟

- نعم، إنه أنت، ولد الـ "ماكين"!

- أظنك عظيمة أنا لست ماكين.

- طبعاً، أنت "الأحمق"، لكنني وأصدقائي كنا مستهلك "ولد الماكين".

- أنت الـ .

- الجمراد! نعم يا "أحمق"!

قالتها واصحرت صاحبة، ثم تقدّمت بتفالية واحتضنته لربّك، ودخل في حصنها بتحمّط امتنحت في الحديث: هي تعيش بالحق مد طعولتها، وانتقت به للجامعة في نيويورك، واستقرت هناك وتزوجت وأنجبت، ثم عادت لوانشطن بعد انفصالها عن الزوج ووجدت وظيفة بالحكومة الفيدرالية واستقرت في نفس البيت الذي كبرت فيه وتعيش فيه الآن مع طفليها. لا لست هندية، لا من الهند ولا من السكان الأصليين

مثلما رعموا وإنما من "أوكلاهوما" بهم، ذلك اليوم الذي نظمت فيه المدرسة حفلة طعام وكان من المفترض أن يأتي كلّ طلع بطبق يمثل تراث عائلته، وفوجئنا بـك ومعك هذه الكعكة الماهرة المسنّدة ماكين.

- كانت تلك مرحلة رائعة، لقد صحكت وصديقاتي طيلة العشاء. ماذا كان هذا؟

- لم تكن مرحلة للأسف. الحقيقة أن أمي أعدت شيئاً يُسمّى "ملوحة"، لكن أبي تشاجر معها لسبب ما وقدوها بالطبق الذي أعدته، ومن ثم لم أجد شيئاً أتّي به، فاشتري لي هذه الكعكة من محل بقالة صغير في الطريق لم يأكل منها غيري في الحفلة.

- حسناً. لست أدري أي العميل أسوأ. قدف الأم بالطبق أم شراء هذه الكعكة السخيفة! لكن أتعلّم، لقد جعلك ذلك مشهوراً. معظم صديقاتي ظنّ أنك فعلت ذلك عامداً، كنوع من الاستهزاء بهذا التقليد المبطي من المدرسة يعني، معاملتنا على أننا أحماء، ونأتي من أماكن بها طعام غريب لدرجة تنظيم حفلة لمرجة على "تقاليدنا" وكلّ هذا. وجدنا أن إحصار كعكة ماكين، أكثر المأكولات اعتيادية في أمريكا، عمل دكي للامانة منك!

- فعلاً؟

- لا تتصور لأي درجة! ولد الماكين، الولد الأسمر الوسيم الهادي، يرد على تحديتي بالمدرسة عمتي الأناقة. لقد تحولت إلى بطل! نو سألت أبا ما أن تواعدك وقتها لما ترصدت لحظة. لقد كما تراه من مناسبتة عطف بهذا الشرف!

ثم استرسلت في حديث عن المدرسة، وغيب الأولاد في هذه الس. أنها يذهب الآن لنفس المدرسة وهي يسعدنا ذلك مع، للمدرسة صعبة لأباء الأقليات ولكن الحقيقة أنها صعبة للجميع، فالأطفال شديداً القسوة مع بعضهم البعض، ماذا يمكن أن فعل؟ سعدت بالحديث إليه، ماذا يفعل ها؟ هل يريد احتساء قهوة؟ هناك مقهى قريب يمكن أن يمشيا إليه آه، لديه طائرة لينحن بها؟ حسارة. هل يأتي ها عادة؟ لن نصدق يأتي صديقنا حين نقص عليها أنها غابتة "من يأتي؟". "لا تذكرها؟" تلك العتاة للفقراء الحبيبة التي كانت بصحبتني دائماً لقد كانت هي الأخرى واقعة في عرايك آخر سنين بالمدرسة. آه، لا بهم، هي ستذكرك لقد كان لك معجبات كثيرات أين تعيش الآن؟ باه، دبوت، لقد احترت نقطة بعيدة. هل هناك عرب كثيرون هناك فعلاً مثلما يشاع؟ حقيقي اسمني اخذت إليك بعد هذه السنوات حسارة ألا يستطيع احتساء القهوة، والحديث عن لاهي فيلاً. ولد الماكين؟ غير معقول، بالمصادفة! صاحته، ورحلت بشاط هايلة التل ارندى معطيه مرة أخرى، ووضع يديه في جيبيه، ومضى ليلاحق بالطائرة

7

رباب العمري

وصفت رباب المطار في ثمان الخامسة؛ أمدتها ساعة واحدة حتى مرعد إقلاع الطائرة لبيوروك، وهو وقت صيق في صوء إحرادات الأمس الحنينة بالمطار والتي قد تستغرق حمساً وأربعين دقيقة لكن رباب لا تأبه لذلك، فهي مُصممة أن الوصول للمطار قبل الإقلاع بساعة كاف لإلغاء الإحرادات، وإن كانت سلطات المطار قرّرت تعقيد إحرادات الأمس فتلك مشكلتهم وعليهم تحمل تبعاتها، ليس المسافرين. وإن عاتتها الطائرة بسبب تلك الإحرادات، فهي مستعدة لمقاصاتهم. قصة أخرى لن تضيها. رباب تكره المطار والطائرات، وعادة ماتذهب لبيوروك بالقطار، لكنها مسافرة إلى لوس أنجلوس بعد ذلك ووجد المكتب الذي

تحمل به أن السفر بالطائر سيكون أكثر تكلفة، فاستسلمت لرغبة المكتب في صعط التفتات. طائرة أخرى لم تصيرها. كان من المروص أن نقضي الأسبوع الماضي في واشنطن، ولكن المكتب أرسلها في مهمة مفاجئة لبوسطن. والآن هذا. اتصل في الساعة إلا عشر دقائق، ومن ثم بمكثها أن تكون عمل استاذها المذكور درويش في الساعة والصف. استعشى عده، وتقابل معي حفيدته وهبة ليلي صديقتها الحميمية أيام الجامعة، ثم تحضر اجتماعي في اليوم التالي. وبعدنا نرحل للوس أنجلوس ليومين - لمزيد من الاجتماعات، ثم نعود لواشنطن.

برهقها السفر، لكنها مصطرة إليه إثر أعصابها الدهاب للطائر، وإحراجات الأمن السخيمة، والتسير في عمرات المطارات العذبة. والبحث عن الوابست، والدخول في انزلة مزدحمة، وحشر نفسها في كرسي صيق، وجرة شخص يكون في الغالب فظاً، وطعام الطائرات الماسخ، وتغير روتينها اليومي، ثم الوصول وانتظار فتح باب الطائرة، ثم البحث عن سير الحفائب ثم انتظار ظهور حقيبتها، وجرها، والبحث عن المخرج وسط باظافات وإشارات لظائر العديدة، والعثور على تاكسي، وشرح العنوان، ودخول الفندق، وإبراز تحقيق الشخصية، وملء استمارة بياناتها وإعطائه رقم بطاقتها الانتمائية، ثم البحث عن الغرفة، والتعامل مع حامل الحفائب الذي ينتظر الإكرامية، ثم إحراج ملابسها وأدوات تجهيلها وأوراقها، وعرش ألبانها في الغرفة، ثم النوم في فراش لا تعرفه، والتعامل مع درجة حرارة الغرفة التي تكون عادة أبرد أو أدفأ مما ينبغي، وهواء

التكييف الذي يصب دائماً فوق الفراش مباشرة، وتسأل نفسها كُن مرة هل مُصنِّموا عرف الصادق كلهم حقيقى؟ ثم التعامل مع طعام الفندق الذي يجمع بين ارتفاع السعر غير المبرر وسوء البوعية وقلة التنوع، أو الخروح والبحث عن طعام في مكان بالخارج في مدينة تجهلها ولا تريد أن تكتشفها في الساعتين المتاحتين لها، ثم العثور على مكان الاجتماع، والوصول في الموعد، ومقابلة عربا، يظفرون لها ويحكمون على كل شيء فيها؛ جمالها وهذائها، وحديثها ولكنيتها، ولون بشرتها وتدرجتها شعرها، ودكاها ملاحظاتها ومدى حفة دمها، ودرجة تحررها ومدى شجاعاتها، وقوة شخصيتها، ثم ما ستفوله ومدى أهميته وصحته وسلامة عرضه إلى آخر تلك الاختبارات التي لا آخر لها.

ببما هم يقيسونها تحاول هي إتباعهم بعمل شيء أو آخر لصالح مساواة العرب الأمريكيين بخفة الناس وهم يومنون، دائماً ما يومنون، حتى حين يكونون غير مقتنعين بالفرقة. وبعد أن تنتهي من مداخلتها، يقولون كلاماً مائفاً أو نصف مائع، ويتذرعون بشيء ما يحول بينهم وبين تعيد ما نطقه منهم. نطم العمل بالشركة، أو بالولاية، أو بالجامعة، اعتبارات المافسة، صيق الوقت، هذا أو ذاك، أي شيء. وهي تواصل الرن، وحين يصح أنهم لم يستجيبوا لشيء تنتقل للموجة الثانية: التنويع بالمقاصاة، ثم تتغير الفهجة، بعضهم يبدى مزيداً من المروية وبعضهم مزيداً من العناد، ثم تنتقل للموجة الثالثة: التهديد الشاهر، وتعتبر النعمة مرة أخرى. أحياناً ينتهي الأمر بالاتفاق، وذلك نادر، لكن في معظم الأوقات ينتهي بها الأمر مطردة من المكان، وتكون تلك بداية القصة التي سرفعها المكتب

وصلت المطار ودفعت حقيبتها الصغيرة أمامها، وتوجهت لماكية شركة الطيران لتنتهي إجراءاتها بنفسها، هكذا تقبل عند الموظفين الذين عيها المحدث إليهم واحدًا احتارت مقعدها في الطائرة ومرت بطاقتها في الماكينة، نسّمت بطاقة الصعود للطائرة، ثم توجهت نحو بوابة الدخول وقفت في طابور المحصن الأسى لحسن الخط كان الطابور قصيرًا هذه المرة وتقدم بسرعة جاء رجل في مثل عمرها ووقف خلفها طويل، أسمر، عربي اللامع وله جدانية عمر واصحة المشا. يرتدي معطف مطر. نظر لها وأومأ في محادثة دون أن يقول شيئًا ردت الإجابة وهي تلف لتظهر أمامها. استعرت أن يرتدي أحد معطفًا للمطر في الطقس في يوم حار بلا مطر كهذا. تحرك الطابور بسرعة. جلست حذاءها ووضعته مع حقيبة بنها في جهاز الأشعة أحرحت الكمبيوتر الصغير من حقيبتها ووضعت الآتين في الجهاز، ثم نظرت للسيدة الواقعة بجوار البوابة الإلكترونية، فأومأت لها صمت من الباب. لم تصبر البوابة صغيرًا فتوجهت رباب نحو حاجياتها لتتجمعها من الباحة الأخرى لجهاز الأشعة في أثناء ذلك كانت ترتقب بطرف عيها الرجل الوقف خلفها، والذي بدا عليه ارتباك كبير وهو يورع اهتمامه بين الأشياء المتعرج عليه فعلها في نفس الوقت فمطل الحركة. بدا التبرم على موظفي الأمن وهو يمر من البوابة فتصدر صغيرًا حادًا، ثم يتذكر شيئًا سبه في جيبه فيتراجع لإخراجه عما يربك الحركة أكثر. أوقفه أحد موظفي الأمن وهو يبادي عليه بصوت عالٍ وشبه كئي.

- سيدتي، من فضلك، توقّف هنا. تفقّل من هنا. من هنا، نعم على حسب. لا، دع حاجياتك هنا ستولأها نحن.

التفتت رباب، وهي تحمل حقائبها لموظف الأمن:

- ماذا هناك؟ لماذا تأخذونه على حدة؟

- سيدتي، إن كنت أنهيتي إجراءاتك من فضلك لا تقعي هنا، تقدّمي للأمام

- نعم أنهيت إجراءاتي، ولكني أسألك لماذا تأخذ هذا الرجل على حدة؟

- سيدتي، هذه إجراءات أمنية، من فضلك لا تتدخّلي في عمل الأمن.

- هل تأخذونه على حدة لأنه عربي اللامع؟

- سيدتي: من فضلك، لا داع لهذا الحديث.

- أنا أسألك سؤالاً.

- هل أنت معه؟ هل تعرفون هذا الرجل؟ من فضلك سحبي جانبًا، تعالني من هنا مع حاجياتك.

- لماذا أتى على حدة؟ لقد أنهيت إجراءاتي. هل تشكّ في سلامة إجراءات الأمن التي قمت بها؟

- سيدتي: يمكن أرى جواز سفرك وبطاقة صعود الطائرة؟

هنا تدخّل الرجل صاحب اللامع العربية لأول مرة:

- من فضلك ياسيدة، لا داعي.

— من فصلكما أنتما الإثنى؛ تعالا على حسب.

وهكذا، بين تعليق منها، ومحاولة منه لإيقاظها حارح شعوره، وقلق عصبي من جانب رجل، لأنس، انتهى بهما الأمر محروطين في عرفة صخرة يقف عنى بابها أناس من موطنى الأس؛ رجل وسيدة مدت رباب يدها نحو الرجل:

— رباب العمري، محامية.

كانت يد الرجل في طريقها لمصافحة يد رباب المملودة بأحيته عديم حياء صوت حارس الأس يطلب منهما الهدوء. تردّد ثم أعاد يده بحبايه، وظلّت يد رباب وحيدة في الهواء، ثنائية قبل أن تنبه إلى أن جارها قد وجّه تركيزه للمدرس. سحبت يدها وتركته في حاله. كيلا ترمد من ارتباكته. تردّد الرجل لحظة، ثم مدّ يده في ضيق:

— عدنان حكري، محاسب.

سأته عن وجهته، فأجاب بالقتصاب: بيورك. قالت إنها هي أيضا ذاعية لهناك. سأته إن كان من وشطّل كوسيلة مهديه للسؤال عن بلدته الأصلية، فردّ بأنّه ولد وعاش بوشطّل وهو صغير، لكنّه رجل سد سوات طويلة فهزّت رأسها، وعلقّت بأنّ عدد الناس الذين تربوا في وشطّل واستمروا في حياة فيها قليل. نظرت أن يوضّح من أي بلد جاء أو يسأله عن أصلها، لكنّه لم الفصت. لم يكن ينظر إليها، ولا شيء آخر مملد ينظر أحيانا لياب العرفة الصغيرة التي اقتادوهما لها بحوار

أحجرة المحصن، وأحيانا ينظر أمامه في الفراغ. كان مرتبكا؛ غير متأكد إن كان عليه أن يكون ممثلا لها لمحاوئها مساعدتها، أم واقفا عليها لجعلها المشككة أكثر بتدخّلها الذي لم يطلبه. علقت رباب بشيء ما لتخفّف من حدة الموقف لكنّه لم يرد. بعد دقائق جاء رجل الأس واتّحنى به حائكا سأله بعض الأسئلة، ثمّ أشر له بالذهاب حيث كانت أمّنته، فخرج دون أن ينظر لها. هزت رأسها في سحرية وانطمرت. جاء رجل الأس بعد قليل وأشار لرباب في تيزم لا يحاول إخماده. أعطاف أوراقتها وأشار لها بالرحيل، فسأته عن مصير عدنان، عمهم بشيء لم تسمعه وتركها، وعدد لأجهزته

سارت في عمرات المطار نحت عن بوابة طائرتها. أين ذهب هذا العدنان؟ وأي اسم هذا؟ هل هو فلسطيني؟ يبدو في مثل سها، ربّما أكبر بسنة أو اثنين ملأته وهبائه نوحى بأنّه غير متزوج، أو على الأقل ليس لديه امرأة تعني به. ربّما لديه روضة لا تفهم في الهدام، أو عيبة، وربما روجته آتية لنزّها من بعده، ولا تفهم ما يجب ارتدّاه. لم تستطع أن تصح يدها على الشيء الخطأ في هدمه، ربّما هي هيأته نفسها، طريقة وقفه، حركة رأسه وحسمه، لكن لديه هذه الجاذبية التي لا تعرف من أين تأتي وحدته واقفا يحدّق أمام شاشة، الإعلان عن مواعيد وبوابات، إقلاع الطائرات، توجهت ناحيته وبسرعة ذهبا المتقدّ لمحت رغم بوابة طائرة بيورك على الفرحة قبل أن يجدها هو "55"، من هيا. أشارت باتجاه البوابة، فتبّه لوجودها وانقسم ابتسامة متعذّرة.

مارا سونيا نحو البوابة. لم يبق سوى عشرين دقيقة على موعد الإقلاع
سيصلان لطائرة ويعترقان، ربما للأبد. ملكتها الفضول. سألته إن كان
يعيش في نيويورك معي وصمت، علم تستسلم وسأته عن سبب زيارته
لنيويورك إذا، وشيئا فشيئا، وكأنها تقتنع بأسبابه، فهمت أنهما ذهبا هما
الآن لعملاء الدكتور درويش. شرح لها أنه حال أمته، ومهم مها أنها
تلميذة قديمة لدرويش وصديقة لليلي، وذهبا لحضور عيد ميلاد سمي،
وتندرا على الصديقة التي جمعتهم في المطار. وعد هذه القطة التي
تصورت أن يبدأ معها الحديث بشكي أسهل، صمت ممثما. وصلا للبوابة
المخصصة لطائرتهم

كانت البوابة مكتظة بالمسافرين، وهناك أطفال كثيرون يصرخون
ويجرون في المكان، وشباب تمذد على الأرض ينتظر، ولا مقاعد حالية
توجهها لموظفة، وسألاها في نفس واحد عن موعد الإقلاع، فعلمنا أن
الطائرة ستأخر لمدة خمس وأربعين دقيقة. تبادل إبداء الانزعاج، فذلك
بعض تأخرهما على مواعيدهما لكن لموظفة هزت كتفها بالألمعها فعل
شيء وتركتهما ومضت. نظرت رباب لعديان، وأخبرته أن لديها بطاقة
تسمح لها باستخدام صالة رجال الأعمال واصطحاب ضيف، وعرضت
عليه في دلال مازح أن يكون صديقه. لكن عديان ارتاع من الفكرة؛
كيف يذهب لقاعة رجال الأعمال وهو مسافر في الدرجة السياحية؟ لا
يعتقد أن ذلك من حقه. أكدت له أن ذلك هو النظام المعمول به، وأنها
لا تنوي تهريبه للقاعة، لكنه أبدى ترددا كبيرا. قالت له في عداد صبر إنها
لا تريد التطفل وإنه إن كان يفضل الانتظار حمسا وأربعين دقيقة وسط

صراخ الأطفال بدلاً من الجلوس بهدوء في القاعة المهيبة، وتناول شراب
أو قهوة، وقراءة جريدة أو مراجعة بريده الإلكتروني، فإنها لن تحرمه من
هذه الفتنة. رد بشيء غير واضح عن أنه لا يريد أن يبدو وكأنه يتسول
خليفة غير متخصصة له. نظرت له بنفاذ صبر فسار معها.

استقرا في القاعة، وسأته عفا يريد أن يشربه فشكرها، وقال إنه سيقراً
الجريدة. أتت لعمسها بكلم من السيد الأبيض وكوب ماء واعدت. جاء
بالجريدة وحلّس بجوارها، لكنها عاقلته بالحديث قبل أن يشرع في قراءة
جريدته. تطرعت بإحبارها أنها على عكسه وُلدت وترتت في مصر، لكنها
أنت ثواسطن واستقرت بها، ولم تعد تستطيع أن ترحبها. أوما موافقا
وهو يكرّر "نعم، نعم". لم يكن في كلامها ما يستدعي الموافقة. نظرت
إليه وهي تتساءل فيه يفكر؟ كيف براها؟ هل يشعر بأنها تنظاره أم أنه فقط
خجول وغريب الأطوار؟ كان قد استأنف الحديث بالإنجليزية بعد المحل
العربية القليلة التي تبادلها عندما اكتشفا أصولهما المشتركة. تحدثت
بكلمات قليلة عن عمله كمحاسب بشركة السيارات الكبيرة بنجروت،
وبكلمات أقل عن عائلته وعن حياتهم السابقة بواشنطن، لكنهما تحدثا
بعض الأسهاب عن واشطن نفسها، وخاصة ميدان دوبون حيث تسكن
والذي بدا أنه يحبه بشكل خاص. تسألت عفا إذا كان له ذكرى خاصة
في المنطقة، ربما بحيته الأولى. ثم أدركت فجأة أنه يشبه ألكس روجها
السابق. انزعجت من هذه المفكرة وبدا عليها ذلك، وظل عديان أنه قال
شيئا صامتا فصمت. بعد عدة ثوان من الصمت الحرج، بدأ يقرأ في
جريدته، وأخرجت هي تيمونها، وبدأت تراجع بريدها الإلكتروني.

ثم عاودت الكرة:

— هل عشت بديترويت فترة طويلة؟

— نعم، حوالي خمسة وعشرين عامًا.

— باللهول! خمسة وعشرين عامًا في نفس المكان؟ ألم تشعر بالملل؟

— للملل موجود في الأماكن الأخرى أيضًا.

لا بأس بهذا الرد، ففكرت لكنه صمت مرة أخرى وبذات شعر وكأنها تظارده، فصمتت وصمت هو الآخر بعد خمس دقائق أحد المبادرة، لأول مرة، وسألها عن عملها. شرحت له وبأنها محامية في مكتب للدفاع القانوني عن الحقوق المدنية للأقليات، وأن اختصاصها حقوق العرب والمسلمين. أبدى بعض الاهتمام، فاسترسلت في شرح العمل الذي تقوم به، ومدى صعوبة عمله وكيف رادت هذه الصعوبة أصعافا مضاعفة بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر. أومأ برأسه عدة مرات، وعلق بشيء من صعوبة وصعوبة الأقليات بشكل عام، سأله عما يقصد، فأجاب أن الأقليات محكوم عليها بأن تحصل لتغيير. انتابها غضب مفاجئ، وسأله مرة متيكم، وبالمرية لأول مرة منذ هذا الحديث:

— يعني إيه إن شاء الله؟ يعني عادي إنهم يدوسوا علينا؟ نقول لهم إحنا آسفين للإزعاج، انفضوا، دوسوا كمان؟

— ما قصدتش كدة، لكن التعبير ده في كل حاله، من البقال إلى سلطات الأمن، ومثل كل حاجة ينفع يترفع فيها قضية.

— أهو الكلام الفارغ ده اللي جايها لورا

— حشرتك ليه عدوانية؟

— ولا عدوانية ولا غيره، بس أنا ماليش طقطان على الكلام ده. دي حوارات خلصتها وأنا عندي خمسة وعشرين سنة.

نظرت إليه وشعرت أنه يكتمش. كأن ملامح وجهه تنصهر في الحجم. حلّ عليه صمت كامل. بعد دقيقة واحدة قال إنه سيذهب ليرى ما إذا كانت الطائرة على وشك الإقلاع. قالت له ألا فائدة من كثرة السؤال، فالطائرة لن تغلق قبل ربع ساعة أخرى، لكنه تبيح بأنه يريد شراء شيء، وقام في نعيم شومئلا لها برأسه أومات له بدورها ومضى بسرعة. عادت لتعقد بريدها الإلكتروني بنصب وهي تدمدم بصوت مسموع "بالة من متحلب". تسأل نفسها عما أصاب الرحال. ألكس كان يشبه هذا الأخرى، حذاب ولطيف، وطيّب وذكي، لكن ليس بما فيه الكفاية. قالت لنفسها ساعتها إن ذلك لا يهم، فالتكس يهملها ويهملها ويعني بها، ويحتويها ولا يعان آيا من مشكلات وعقد الرجل الشرقي. كانا أصدقاء في البداية، وكان يحتمل كل ترهاتها وسخافاتهما حتى حين يمر منها بقية أصدقائها، ثم مثلما يحدث في الأفلام الباهتة، انفلت الصداقة لحب، وظلت أنه رجل حياتها، تروجا بسرعة، رغم اعتراضات ليلي. ونما لم تكن هي نفسها متأكدة من صواب اختيارها، فأمرعت بالزواج قبل أن تقعها ليلي بالعدول عنه.

لم يدم هذا الزواج سوى عام وبضعة شهور. بعد أربعة شهور من

زواجهما فقدت عملها بحسب المحاماة المرموق الذي كانت تعمل به منذ تخرجت. كانت حذيفة الشرح، مخلصه ومجتهدة في عملها. قالت لها مديرتها ذات صباح إنهم مضطرون لتخصيص عدد الحامون بالمكتب، وأن وظيفتها ستلغى. بعدها بشهرين قابلت زميلة سابقة لها بالجامعة، واكتشفت أنها غيبت في نفس المكتب، تقريباً في نفس عملها القديم. ضلعت ولم تفهم في البداية، وانتابها شكوك حول كفاءتها. لم تكن قد وجدت عملاً آخر، لم تملح عماراتها في العثور على وظيفة مماثلة لتلك التي قصت منها. دعمها الكسب بشدة لكن شعورها بالفضل ظل يترادف حتى توقفت تماماً عن البحث عن عمل، وأصبحت تقضي وقتها كله في المنزل. تتذكر تلك الفترة كأسوأ فترة في حياتها. رحلت ليلي في نفس الوقت عائدة لمصر، قائلة إنه لا سبب بدخوها للبقاء في أمريكا، وإنما كي تعمل شيئاً معيذاً عليها العودة لسمكان الوحيد الذي يحدث وجودها فيه مرثاً. أكلها ذلك أيضاً، ليس فقط لأن ليلي لم ترمي وجودها وصداقتها مسألة ذات أهمية، ليس فقط لأنها اتحدت هذا القرار وحدها ودون مساعدة معها، وإنما لأن ليلي صمطت على المرح الذي كانت تشعر به، وهو أنها عديمة القيمة وبلا فائدة. ظلت تطعم هكدا في الحياة دون مايشغلها، ثم قابلت كريستي.

كانت كريستي ثمة غامضاً عندما اعترفت لرباب أن المكتب قرر الاستعاضة عنها بسبب أصلها الأجنبي. قالت إن الكثير من العملاء أبدوا عدم رعبتهم في أن تتولى قصايهم، إننا نعدم ثقة في كفاءتها أو لمجرد شعورهم بأنهم لا يستطيعون التواصل معها بعس الدرجة التي يتواصلون

بها مع عدم يشاطروهم الفهجة والروح الدعابة بعد فترة أصبح وجودها يشكّل عبئاً مالياً وإدارياً على المكتب، لكنهم لم يستطيعوا تبرير إنهاء خدمتها، فقاموا بإلغاء الوظيفة نفسها، ثم أعادوها بعدها بشهرين وعيّنوا تلك الزميلة التي قابلتها رباب. اعترفت كريستي أنها شعرت بالرائة لرباب لكنها تفهمت ظروف المكتب. رباب كانت قد ضمت أيضاً عندما بدأت كريستي هذا الحوار، لكنها شعرت أنها تعيق من يوم طويل عندما أنهت كريستي حديثها قامت رباب واقفة، وجمعت حجاباتها كي ترحل. طلبت منها كريستي توصيلها لمنزلها إذ لن تستطيع في حالتها تلك القيادة أو حتى العودة في تاكسي، وهذا انعرجت فيها رباب بسبل من ألدع الشناتم التي حاجأت رباب قبل غيرها من رؤود البار. صمت المحيطون بهما كلهم، في حين انهالت رباب بالسياب على كريستي الغمر هامة لما يجري لها، ثم سحبت حقيبتها وخرجت من البار.

حكيت رباب القصة في نفس الليلة لأكبر الذي استمع بصبر وتشكك. لم تفهم رباب بالصبر رد فعل أكبر، لكنه ظل يشكك في صحة القصة في نفس الوقت الذي بدا فيه وكأنه قد قبل فكرة الربط بين أصل رباب الأجنبي وعدم قدرتها العثور على وظيفة تناسب مؤهلاتها. الأسوأ من ذلك، على الأقل في نظر رباب، أنه بدا وكأنه قد نماش مع العكرة باعتبارها أمر طبيعي، فصار ينجحها عن التقدّم للوظائف المرموقة على أساس أن ذلك "تصحيح لوقتها"، مهم "بطبائس يثقوك بهذا المكتب". كان الغضب يترادف داخل رباب يوماً بعد يوم، وهي حين عادت ليلي لمصر فإن رباب قررت أنها لن ترحل، ولن تستسلم، ولن تقبل بتلك العكرة

التي قبل بها تلكس الجباب واجهته أكثر من مرة، وتشاجرا كثيرا، واتهمها بأنها تعالي من عقدة اصطهاد مرضية، واتهمته بأنه ليس رجلاً، وظلّت الأمور تتدهور حتى انتهى الأمر بطلاقهما. كان ذلك تقريباً في نفس الوقت الذي أرسلت فيه ليلي من مصر تحريها بأنها قابلت لقمان وقررت الزواج منه.

أحياناً كثيرة تفكر رباب أن حياتها وليلى تكملان بعضهما بشكل من الأشكال. كأن لهما معاً نصيباً واحداً عليهما القسامة. وحين تركت ليلي عملها في مصر، وحملت فيم سببها بعد ذلك سلمى، كانت رباب قد نمت حياتها الشخصية جانباً، واستمرت حياتها كمحاماة للدفاع عن حقوق الأقليات لو كانت قد حملت من ألكس لربما كان طفلها الآن في عمر سلمى. على العموم لم تتزوج رباب ثانية، لكنها دخلت في علاقة جادة كادت أن تقضي إلى رواج، وكان ذلك في نفس الوقت الذي انفصلت فيه ليلي عن لقمان. كادت العلاقة أن تعضي لرواج، لكن رباب قررت الاحتفاظ باستقلالها، وقد كان ومن وقتها وهي تعيش وحدها، لا تريد أحداً يحكم عليها أو يحاسبها ولو موعها، وتسال نفسها حسنة إن كانت قد أخطأت الطريق.

أليس ذهب المتخلف عذبان؟ سألت نفسها وهي تنظر في ساعتها. لقد حان موعد إقلاع الطائرة؛ قامت واتجهت لموظفة الخالصة عند مدخل القاعة، وسألتها براءة عما إذا كانوا يعرفون الآن الموعد النهائي لإقلاع الطائرة المتجهة لنيويورك. نظرت لها الموظفة بارتباك، وسألتها: - نيويورك؟

حفظتها رباب بنظرة استبعاد، وأومات في صمت. نظرت الموظفة في شاشة الكمبيوتر، وظلّت معها بطاقة صعود الطائرة. أعطتها رباب البطاقة. نظرت فيها الموظفة بامعان، ثم نظرت للشاشة مرة أخرى بادت على رميلتها الأكثر ساء وأررتها البطاقة والشاشة. نظرت لها الموظفة الأكبر في نصف دهشة ونصف استهانة، وقالت ببساطة:

- سيدتي: لقد أطلعت طائرة نيويورك منذ أربع ساعة.

- ماذا؟

- أطلعت. لقد نادينا على الركاب أكثر من مرة.

- لكن الموظفة عند بوابة الرحيل قالت إنها لن تفتح قبل السادسة وخميس وأربعين دقيقة

- نعم، لكن الطائرة حصلت على تصريح معاداة المطار قبل ذلك، نادينا على الركاب وأرسلنا الطائرة. لقد جاء الجميع لماذا لم نأت؟

- لماذا لم آتي؟ لأن رميلتك قالت "في السادسة وخميس وأربعين"، والساعة الآن السادسة وأربعين دقيقة!

- نعم، ولكن هل تسيرين خلف أي كلام يقال لك؟

- أي كلام؟ هذه موظفة بوابة الرحيل التابعة لكم أليس من المفترض أن أصدقها؟

- على العموم الطائرة رحلت

- والحل؟

- لا أدري، لا يوجد طائرة أخرى لنيويورك الليلة، أول طائرة غداً هي التاسعة صباحاً.

- غداً لا يمكن. لندي ارتباطات في نيويورك الليلة. لا بد من أن أرحل الآن

- لا أدري كيف يمكن أن ترحل الآن ياسيدتي! لا يوجد طائرات لنيويورك الليلة من هنا للطيار.

- ما هذا الكلام؟

- أنا آسفة، لكن لا يوجد ما يمكن فعله.

قالت ذلك ومضت. ظلت رباب واقفة في دهول تنظر للحوطة الأصلية المرتبكة، بينما ذهبت الأكر سناً في عمل ما على الكمبيوتر الخاص بها. ما هذا الهرء؟ شعرت بحوجة من الغضب تعصف بها، لكنها لمالكت نفسها.

- سيدتي! من فضلك.

- نعم.

- ماذا يُفترض بي أن أفعل الآن؟

- لا أدري، ليس هناك سوى أن تقضي الليلة في واشنطن، وتعودي لنا في الصباح.

- وماذا أفعل في ارتباطاتي بنيويورك؟

- لا أدري. ربما هناك طائرة أخرى من مطار دالاس

- هل يمكن أن تتقضي ذلك؟

- لا، هذه ليست مسؤوليتنا.

- كيف؟ أليست مسؤوليتكم أنكم ضلّكم وركبة؟

- سيدتي نحن لم نضلّك. لقد نادينا أكثر من مرة على الركاب، وأنت التي لم تستجبي للنداء. أين كنت؟

- أين كنت؟ هل تفترضين أن أجلس هنا طيلة الوقت أترقب مداء لا يُفترض به أن يأتي؟ لماذا سأعسى هذه الدقائق العور معهومة وأنا أعلم - وأنتم قتم - إن الطائرة لن تتلّع قبل خمس وأربعين دقيقة؟ - لقد جاء الجميع.

- فعلاً؟ ماذا لو كنت صهء؟ ماذا لو أن سمعي ثقيل؟ هل تُفترض في العامة ضد صعااف السمع؟ أليس من حق صعااف السمع ركوب طائر انكم المتأخرة عن موعدها عندما تقرّرون أن تُفكروا موعدها مرة أخرى؟

- ليس بوسعي مساعدتك ياسيدتي.

- هل هناك من يمكن أن أقدم له شكوى؟

- بالطبع، ستجلب بياناته على موقعنا على الإنترنت. والآن، اسمحي لي تلدي أعمال أخرى.

وتركتها ورحلت. شعرت رهاب بالدم يصعد لرأسها لا يمكن أن يفعلوا هذا! لا يمكن أن يلقوا بها في الشارع هكذا! أين حقوق الراكب؟ طيب، ولتعرض أن حفظنا ما قد حدث، ألا يجب على الأقل أن يتصرفوا ويحمّلوا المسؤولية؟ لكن هذه المرأة تهتمها هي بأنها أساءت التصرف. الكلية خرجت رهاب من القاعة، وتوجهت لمركز خدمة العملاء. انتظرت في الصنف الطويل وهي تعلي بعد ربع ساعة كاملة وصلت للموظف. كان الطلب قليلاً، لكنه لم يحدد عن موقع ريمكنه. قال الموظف إن سياسة الشركة وهدد التذكرة تحول دون تحملها لمسئولية هذا الوضع. لم؟ لأن الخطأ من الراكب. كيف؟ عندما لقصة النداء وعدم استجابتها عليهم اللغة جميعاً. فررت رهاب بأنها ستكتب لقسم الشكاوى فيما بعد. لو استطاعت للكميت وجه هذا الموظف حتى يدعى تركت الموظف وعادت للقاعة.

حدثت على شبكة الإنترنت تبحث عن طائرة أخرى من مطار دالاس أو عن طائرة أخرى تابعة لشركة أخرى، عن أي شيء، يمكن أن يأخذها نيويورك قبل الثامنة فجأة تذكرت عدنان، لابد أن الأحرق لحق بالطائرة، مادام ظل ملتصقاً بوابية الرحيل كالعليل، فلا بد أنه سمع النداء. طبعاً لم يفكر في البحث عنها. لم تجد شيئاً ذا بال على الإنترنت، لا طائرات أخرى في موعد معقول. ماذا تفعل إذا؟ فجأة حطر بالها البحث عن القطارات. ربما تلحق بقطار السابعة والنصف. ستحفظ بكل

التذاكر والمواقف، وترسبها لشركة الطيران، وإن رفضوا دفعها وتعيبها ستقاضيهن. هؤلاء الملاعين.

حملت حقيبتها الصغيرة وتوجهت لياب الخروح. نظرت للموظفة الأكبر سناً ولحمت على وجهها نظرة شماتة. شعرت بحقد دفين على هذه المرأة. كيف يمكن لموظفة أن تنكره أحد الركاب هكذا؟ ماذا فعلت لها؟ فكرت في أنها يمكنها أن تقاضيهن، لكنها كانت تعرف أن ذلك عبثاً. لا يمكنها إثبات سوء النية أو العطفة في المحكمة، ولا حتى في شكاوى للشركة لا يمكنها أن تثبت أن شخصاً يعاملها بكرامية. ليس أمامك إلا تلقى الكرامة في صمت. وهي تلقنها، والآن تلقى أيضاً نظرة انتصار المرأة الكارثة. تذكرت عدنان ومقاله عن التمييز، وعدم إمكانية معه بالتقصير. مراد عصبها أكثر، على المرأة الكارثة وعلى عدنان وعلى نفسها عذرت نفسها بأنها لم تتركب على طائرات هذه الشركة مرة أخرى، وقصعت شكها في أن ذلك الأمر يمكن أن يتكرر من أي شركة أخرى، وخرجت من القاعة.

ماذا تفعل الآن؟ ليس معها ملابس! لأن الشركة اللعبة أرسلت حقيبتها على الطائرة لا يمكنها شراء شيء الآن ولا في الصباح، لا وقت. ماذا ستفعل؟ تذهب بملابسها للعشاء، ثم يفس الملبس عدداً لاجتماعاتها الهامة؟ لا يمكن أن تدخل قاعة الاجتماعات بالشكل الذي ستكون عليه ملابسها في الصباح بعد ليلة كهده. يجب أن تجد مكاناً في نيويورك في الصباح الباكر، تشتري منه شيئاً وترتديه في المحل، وتلحق بموعدها في العاشرة، ثم تلحق بالطائرة الداعية للوس أنجلوس. غير مؤكد أن ينع هذا

السياروي. الأمر كله مرجع. لمة الله على الشركة وعلى العوصى. حال بحاطرها أن مرتكبي هجمات 11 ستمبر قد يكونون في الأصل ركبًا عني من هذه الشركة اللعبة رحلت طائراتهم بدو بهم، وأسي، معامتهم، ونظم جدول التزاماتهم دون أن يتحمل أحد للمسئولية أو يساعد في إصلاح ما دمر، ففرروا استعطاف الطائرات الموحدة وتنجيرها انتقامًا من شركات الطيران. نشتر الآن بحصب يكفي أن نجعلها قادرة على إيداء المسئول عما يحدث لها لو أمسكت به. لكنّه غير موجود، وربما ليس له وجود عصى؛ مجرد نظم وقواعد وأخطاء وأشخاص عذبوا بالتعاطف. ماذا تفعل الآن؟

ستذهب لمحطة القطار الآن، فورًا، قبل أن تفقد رشدها من العيط أنعشتها الفكرة الجديدة قامت لتخرج نحو موقف التاكسيات، فلمسحت عذمان جالسا على أحد المقاعد في نهاية الصالة. إذن لم يسافر هذا المتحلف! فكرت أن تتركه وعصى، ثم عادت وغيّرت رأيها. توجهت حيث يجلس، وسأته بالعربية:

— فانتك الطيارة؟

نظر إليها ولما رآه يديه أن نعم. سأته عثم سيعمل؟ فقال إنه غير تذكرته ليعود إلى ديترويت مباشرة، وماذا عن العشاء؟ سيتصل بالدكتور درويش ويخبره له. ولم لا يذهب معها بالقطار؟ لأنّ القطار يصل في منتصف الليل، سيكون العشاء قد انتهى، وسيتمتع عليه السعر في اليوم التالي لديترويت، ومن ثمّ فلا معنى لذهابه هناك. وقفت لحظة أمامه دون أن

تعرف ماذا يمكن أن تقوله. لا تعرف حتى ماذا تريد منه أن يفعل. كلامه منطقي، وهي لا تعرفه، لماذا تريد منه؟ أن يأتي معها؟ أو أراد التسمر معها لكان عليها أن تلتق، سيكون ذلك أمرًا عريًا حقًا. فلم لا تتركه في حاله وعصى؟ نظرت إليه ولا تعرف ماذا تريد منه أو يريد أن يفعل، تسأل نفسها لم تشغل نفسها به أصلاً ولا تجد إجابة فيريد ذلك من عصها عليه وعلى نفسها وعلى شركة الطيران. كفى ادهي الآن! قالت لنفسها: أمرت نفسها، عملت عليه مرة أخرى، ولست له التوفيق ومصت نحو باب الخروج تبحث عن التاكسيات.

وجدت تاكسيًا قريبًا وبه سائق نصف نائم، مادته وركت، وقالت له بلهجة آمرة: محطة الاتحاد تحرك التاكسي، وبعد نصف ساعة وصلت المحطة عندما تحرك القطار براب شعرت أحمرًا بأنها تستعيد بعض السيطرة على مجريات الأمور. لكنها لم تصل نيويورك قبل منتصف الليل. ودافعًا لعشاء الدكتور درويش ولبقاء سلمى. لم تستطع حتى من رؤيتها في القعد، حيث سيكون عليها اللحاق بطائرة لوس أنجلوس وعندما تعود ستكون سلمى قد رحلت. فكرت في الاتصال والاعتذار؛ لكنها لم تجد في نفسها من الشجاعة ما يكفي لمواجهة سطح الدكتور الأسطوري النظام. تستصّل به في القعد وتشرح. تستصّل محطة بي عند منتصف الليل، وستكون المحطة مهجورة عند ذلك الوقت. ستأخذ تاكسيًا عاليًا ما سيكون الوحيد أمام المحطة وتذهب لسلطانها. ستكون شهكة، ستكون ليلة شهكة! أغضضت عينيها كيلا تفكر في كلّ ذلك، ونامت.

8

منتصف الليل في محطة "بن"

بعد منتصف الليل، أي بعد نصف ساعة بالضبط، سبغ سلمى الواحدة والعشرين نظرت لساعتها مرة أخرى ولا مت نفسها على تأخرها؛ لابد وأن جندها غاصب جدًا. لو لم تحتلني، في الرصيف لما فاتتها قطار الثالثة والنصف، ولو وصلت نيويورك في موعدها، وحضرت حفلة عيد ميلادها الذي يُعقد لها جندها منذ أسبوعين. لقد دعى الكثيرين، تقريبًا كل من له صلة بها في أمريكا، وهو لا يحب عدم الدقة في المواعيد، مما بالك بأربع ساعات فرق متصل في منتصف الليل، وسيكون المدعوون قد انصرفوا، وربما ذهب جندها معه لغراضه. تحمد الله أنه ترك لها مساحة من الفناج،

ويكظم صيقه. سألها لماذا انتظرت سلمي حتى آخر لحظة؟ لماذا لم ترحل في قطار الصباح أو الظهر؟ وكيف فاتها القطار بالاصط؟ ولم فاتها هي بالذات في حين لحق به بقية الركاب؟ وما الذي يضمن أنها ستلحق بالقطار التالي إن كانت المشكلة أنها تحطون الرصيف؟ استجبت حيسي كل لحظة مع الجدل الثورم حتى أدعى، لكنه طلب منها أن تحرر سلمي أن محطة عيد الميلاد قد قدمت بسبب معلقها، وأنه مضطر لإخبار الصيوف بذلك، وأن تحاول عدم القواف مريداً من الأخطاء حتى تصل

— يا الله شو صعب جندك!

— هو إنت شفتي حاجه!

حيسي، ياسمين في الأصل، صديقة أبيها، وهي أمريكية من أصل لبناني، مريحة ودافئة وترحابية، وتبدو أصغر بكثير من سبها الخمسة وأربعين. أخذتها في اليوم الأول لبراعتها في حولة بالسيارة، كي تريحها معال واشتنل العاصمة. جدها لم يأخذها لأي مكان في نيويورك بل أعطاهم حريطة وبطاقة لركوب التروعد وصولها، وتركها تتجول وحدها المكان الوحيد الذي اصطحبها إليه كان متحف الفن المعاصر حيث شاهدت معرضاً للصور لم تفهم منه شيئاً. عبر ذلك تركها مع نفسها، وفي المساء يسألها بالتصايب كيف كان يومها وما إذا كانت جائعة، ثم يتركها ويخلد للنوم. أبوها لا يراها إلا قليلاً، لأن أمها أصرّت ألا تقيم معه وهو مشغول في المستشفى معظم اليوم.

فما كانت لتجرو على يده في هذا الوقت المتأخر. لكن لم تلوم نفسها؟ لقد أربكتها كثرة الأرصعة والتعليمات والإشارات في المحطة، وهم لا يسمحون للركاب بالتوجه للرصيف إلا في موعد رحيل القطار بعشر دقائق، فيمكنك التمتع عند الأبواب، وإذا أخطأت، مثلما فعلت هي، يكون من الصعب العودة للمكان الصحيح في الوقت المناسب. ولا أحد تسأله أو يرد عليك عندما فهمت أنها على الرصيف الخطأ جرئت ماحية الرصيف الصحيح، لكن القطار كان قد أغلق أبوابه عندما وصلته. كان واقفاً، وظلت تدق على الباب وهناك معشش أو عصفل يقف داخل القطار ويظهر لها مبتسماً وهو يهز رأسه، ثم تحرك القطار وتركها على الرصيف. هكذا عادت وهي دافئة العيون للصالة الرئيسية والحس الحظ وجدت حيسي جالسة في المقهى لم تعادر شرجت لها يرس دموعها ما جرى، وحيسي تربت عليها وتلص "أبو شركة القطارات" وسلمي تنكي وتصحك، ثم أخذتها حيسي لشباك التذاكر واشترت لها تذكرة جديدة للقطار التالي. ادّعت حيسي أنها السبب في تأخير سلمي، ورعصت أن تأخذ من التذكرة.

المشكلة الحقيقية أن القطار التالي يعادر واشطر في الساعة والصعب، ويصل نيويورك قرب منتصف الليل. فرعت سلمي، "جدي سيقطني" طمأنتها حيسي وهي تصحك مؤكدة لها أن أحداً لن يقتلها، على الأقل ليس بسبب تأخرها، وقامت بالاتصال به بيانة عنها وشرحت الأمر له. لم يكن سعيداً، وأدركت حيسي من التقاضي في الحديث أن الرجل حائق

جيسي أخذتها مد أول يوم إلى ميدان "ديون" حيث تعيش سوتا في مطعم يبيع كيتا قديمة بجوار الطعام والشراب. وحكت لها حكايتها مع أميركا مند هاجر إليها جذها في أول القرن العشرين، وهو لا يحمل في جيبه غير خمسة عشر دولارًا، هو، الطبيب المحترم في بلدته الصغيرة في لبنان، ترك كل شيء ورحل فرارًا من قيود الحكم العثماني وبحسبًا من حياة حرة. قضت عليها كيف أنه رغم ذلك عندما أراد الزواج عاد إلى لبنان فتزوج بيت من قرينته، وهو نفس الشيء الذي فعله أبوها.

- كلهم هيك الشباب العرب، يصاحبوا من هون، بس تبجي على الزواج إلا وبذهم بست من الضبعة. يا حرام راح يصلوا هيك ما عاهماين شي!

سألتها عما تقصده فضحكت، وقالت إنها لا تريد إفسادها. سألتها سلمى كيف تشعر بنفسها؟ لبنانية أم أمريكية؟ وما إذا كانت تريد أن تعود يومًا للحياة في لبنان؟ وجيسي تضحك وتقول لها:

- لبنان؟ والله أنا بصحي كل يوم، وأحمد الله إنه ماني عابشة بدولة عربية!

وسلمى تحكي لها قصصها هي و"عمود" رميلها بكليّة التجارة الذي نجيه، والصعوبات التي تواجهها معه ومع نفسها ومع صديقاتها ومع أبيها ومع أمها، "تتألمصات حياة البسات في مصر"، قالت سلمى. أحيانًا تشعر أنها "قرية من ربا" وأنها تود أن تقترب منه أكثر، وأن تتوقف عن كل

الأشياء التي يمكن أن تعضبه. وأحيانًا تشعر أن هذه الأمور كلها ثقيلة. سألتها جيسي أي أمور؟ فردت: "كل الأمور، كل هذه القواعد. أحيانًا أشعر أنني أعيش في سلسلة لا تنتهي من القواعد، وأني الوحيدة التي تعيش هكذا". قالت سلمى إن الناس تكسر القواعد طول الوقت، ولكن أمها تتخيل أن الناس يلتمسون بها وهي تعلم، وترى صديقاتها، وتعلم إلى أي حد يفعلون "كل شيء" ولكن في السر، لكنها في نفس الوقت لا تريد ذلك، لا تريد أن تعيش أمها، أو أن تحون ثقة أبيها، ولا تريد أن تعيش في قفص من حديد. ولا تعرف ماذا تفعل. سكنت طويلاً، ثم أضافت - وكأنها تذبح سرًا - أنها تعرف فتاة في بركوكاين، إحدى فتيات حالة أمها أميرة، قالت لها مند أسبوع إنها تحسدها على بلوغ الواحدة والعشرين. سألتها لم؟ فقالت إنها تنتظر هذا السن بهار ع الصبر كي تترك المنزل وتمز من بيت أهلها. شعرت سلمى بالهلع لسماع ذلك، وسألت الفتاة لم؟ فأجابتها تلك بأنها لا تريد أن تكون مسلمة "تصوري؟ سألتها لم؟ فقالت لي إنها لا تريد أن تتبع دينًا يجعلها تشعر بالذنب طول الوقت" صمتت سلمى، وريحت جيسي على كفها في صمت.

سألتها جيسي عن أبيها، وما إذا كان قد حدثت في كل هذا، فحدثتها عن اعتقادها الدائم لأبيها، واشتكت من أنه رغم وجوده بنينويورك هذه الأيام، فإنها لم تتمكن من رؤيته إلا مرات قليلة. سألتها جيسي بحرص عن أمها، وما إذا كانت بالقرامة التي تُشاع عنها، فضحكت سلمى وقالت إن أمها مراحبة أكثر منها صارمة. سلمى تحكي وتسال، وجيسي تدور بها في

واشطن: أحدها للبيت الأبيض، والكويت بحرس، والمحكمة العليا، والصب
التدكاري لأبرهام ليكول وتوماس جيمسون، والمقبرة العسكرية
بارليستون حيث يرقد بعض صحايا الحروب الأمريكية العديدة، والبيت
النيولي، ومتحف الفضاء، ومتحف التدكاري لصحايا عرقه النازيين،
وسمى سميعة بكل هذه الأشياء التي تسمع عنها طول حياتها وترآها لأول
مرة، لمطر جيسي بالأسئلة وجيسي فضحك، وتأخذها لأماكن جديدة
وتطعمها وترد على أسئلتها، ثم فجأة حلّ عليها موعد فطير العودة إلى
نيويورك، وإلى جدتها الصامت وأبيها العائب، وخرطة القثرو. كيف مر
الوقت بسرعة هكذا؟ حاولت التعاوض مع جدتها بالتليفون كي تبقى فترة
أطول، لكنه رفض فوراً. كانت تعلم أن ذلك صعب، فهناك ارتباطات
أخرى لها في نيويورك غير حفلة عيد الميلاد. هناك أبوها، وهناك أميرة
حالة أمها. عندما ماتها القطار، قررت جيسي أن تأخذها في برهة إصاوية
يقارب الكاهنك في نهر البوتومك، وطارت سلمي من العرحة. ركبا سوياً
في القارب الصغير واندفعوا وسط مياه النهر وسلمي تصرخ من الانطلاق.
ليس لديها أدنى فكرة عن التجديع، لكنها تعلم ما تقوله لها جيسي.

بعد قليل توقفت في وسط النهر للاستراحة والتأمل. حميل نهر
البوتومك، قالت سلمي، وأومات جيسي مؤكدة. تشجعت سلمي،
وسألها بعضه عن الموضوع الذي لم تحوّل أن تسألها عنه حتى الآن. قالت
بحرص إنها سمعت أمها تتناقص مع أبيها بالتليفون قبل سفرها حول
برامج الرحلة، وأن أمها احتدت على أبيها عندما علمت أن سلمي
ستقيم عند جيسي في واشنطن وليس عند صديقها القديمة رباب التي

تزيد في آخر لحظة أنها ستكون خارج المدينة، وسألته بعصب كيف يسمح
بأن تقيم ابنة عبد امرأة عبر سوية! سألتها لماذا تقول عنها أنها غير
سوية؟ صممت جيسي لحظات، ثم أجابته بهدوء إن الناس مختلفين فيما
يريدون، وإن الإنسان يجب عليه أن يعرف ويعمل ما يريد. هو ليس ما
يريد الآخرون له. ثم أضافت أن بعض الناس - مثل أمها - لا يقولون بهذه
الاختلافات. قالت هذا، ثم طلبت منها يرحم أن يُحذف كيلا يدور القارب
حول نفسه، ولم يعودا لهذا الحديث.

فكرت سلمي أن هذه الرحلة كنّها متناقضات اقترحها الجدة،
وعارضتها أمها بشدة، لكنها في النهاية وافقت تحت ضغط حاسم من
جدتها. تستعرب سلمي علاقة أمها بجدتها، وسألها عن ذلك لكنها لم
تحصل على جواب شاف. سألت أمها: "لم لا تذهب لزيارته في نيويورك
أبداً؟" فأجابته الأم، بها لا تحب نيويورك. كيف لا تحبها وقد عاشت فيها
عشر سنوات في النهاية وافقت الأم، لكن بشرط أن تكون سلمي في رعاية
الجدة، وحالتها أميرة وروحها، وهما نوعيتي تحتف بمائتا عن جدتها. في
بعض الوقت، ورغم وجود أبو سلمي في نيويورك هذه الأيام، فإن الأم
رفضت رفضاً قاطعاً أن تقيم عنده، وكان لها ما أرادت، وأصبحت سلمي
تراه وتخرج معه، لكنها لا تقيم معه. لم يستسلم الجميع لأمرها هكذا؟
ولم يستسلم الأب لها حتى بعد طلاقهما؟ توذّ لو تسألها لكنها لا تجرؤ.
فكرت في أن تسأل جيسي، فهي صديقتها، لكنها لم تجرؤ أيضاً. فكرت
أن تسأل حالة أمها، حظ أميرة، لكنها شديدة الالتزام بالأصول والتقاليد،
ولن تجيبها.

أثناء إقامتها مع عائلة أمها يروكيو، أحبتها للمسجد الذي يؤمّه زوجها الشيخ داوود، وعرفت على بعض الفتيات العرب من يدرس بالأمريكا. في طريق العودة سألها منطلق أميرة عما إذا كانت أمريكية قد أحببتها، ولما أجابت بالإيجاب قالت لها إن أمريكا بلد جميل ومليء بالثمن التي لا يقدّر أهلها. سألها عن جامعتها بالقاهرة، وأردت بعد أن استمعت بإيمان لرد سلمي أنه من الخسارة ألا تدرس بالأمريكا حيث الفرص متاحة لتتعلم بلا حدود، وحكت لها عن مصيرين يعيشون بالأمريكا، ويدرسون ويقومون بأشياء مذهلة بعد ذلك خدمة لأهلهم ووطنهم وأمتهم. تدخل الشيخ داوود في الحديث شارحاً:

-- فيه ناس فاكتر إنه عنشان أمريكا مش بلد مسلمة يقف مفوهاش مكان للمسلمين، بالعكس، دي أرض الله قطعها لعياده، والمفروض للمسلمين يعثروها ري أيّ شعب ثاني ما يعمل. يعني حواليك نلاتي كل الحسيات ما شاء الله، وناس من كل ملّة بتبني وتخترع وتعمر، ليه المسلمون يعزلوا أنفسهم!

سألها الخاتمة بشدة إن كانت قد فكرت في البقاء واستكمال دراستها بالأمريكا، وما إذا كانت تعتقد أن أمها ستوافق. منطلق أميرة تعلم شغفها أمها على الحياة في أمريكا، هي التي تركت أمريكا طواعية، وعادت لتستقر بمصر صممت سلمي وهي تفكر، لم عبرت منطلق أميرة من موقفها: في البدء عارضت بجهتها لأمريكا، والآن تريد أن تستقر بها! أفاضت أميرة السؤال، فردت سلمي أنها فكرت في ذلك، ثم صممت. كانت

لوقفت جيسي سيارتها أمام "محطة الواحدة" فأفادت سلمي من أمكانها السارحة. دخلنا المحطة وجسنا في المقهى الرئيسي بهو المحطة من جديد حتى جاء موعد القطار. عابثتها جيسي، وسنت معها حتى آخر قطرة ممكنة ولوّحت لها وهي غصص نحو رصيف قطارها. سلمي أحببت جيسي، لكنها تحاف. تحب أن تكون مثل جيسي عندما تكبر: قوية ومستقلة، لكنها لا تريد أن تكون "غير سوية". تريد أن يجعلها تحبها محبوباً أكثر، لا أن ينتهي بها الأمر وحيدة مثل جيسي. لكنها أحببت لهاها أطفالاً، لا أن ينتهي بها الأمر وحيدة مثل جيسي. لكنها أحببت لهاها الثلاثة معها، ومروا كأنهم حلم. وهي الآن تقيم شيئاً لتجد نفسها في غرفة القطار شبه الخووية هذه، والليل يقارب على منتصفه وهي على بلوغ الواحدة والعشرين. تستصل لمحطة بنسلفانيا في نيويورك في الحادية عشرة وخمس وعشرين دقيقة. اتصلت بعدها مرتين في الطريق! حدثتها مرة ولم يرد في المرة الثانية ربما يكون مشغولاً مع المدعوين. نشعر بالأسف الآن أنها مونت حفلة عيد ميلادها! مسكين جدّها، تحب كل هذا العناء من أجلها وهي بتحفنها تبيت في بإسدا الليلة. اتصلت أيضاً بحالة أمها، أميرة، التي حذرتها من المحطة في هذا الوقت، فهي تفرغ من مرئادها وموظفيها وتستغلب المسككين والسكارى حتى سيارات الأجرة لا تنتظر أمام المحطة في هذه الساعة لقلّة القاديين. نصحتها بالتحروح من رصيف القطار إلى الباب الرئيسي في منتصف صالة المحطة، لأن الأبواب الأخرى تعلق قبل منتصف الليل. تستعمل ذلك، سيكون كل شيء على مايرام، هكذا قالت في سرها، لكنها تلوم نفسها كيف التفتت مثل هذا الخطأ الصغير؟

المحادثة تلدور في السيارة وسمي داهية مع لُص أمها في مرحة أثناء بهاية الأسبوع الذي تقصيه عندهم بركلي وفقاً لما اتفقت عليه أمها مع الجد كُتْل شي، مُعَقَّد مع هذه الأم، كُتْل حطوة بمناقشات ومعاوصات السيارة تعبر جسر بركلي، وقطرات مطر حفيف تتأثر على رجحان السيارة، وصوت واعظ ما يأتي من جهاز التسجيل مُتَحَدِّثاً عن فصائل الجهاد. بلد التور على داوود وهو يقود السيارة، فزب رأسه من رجحان السيارة كي يرى:

- أجيلك النظارة يا بابا؟

- أبوه الله بجليك؛ مش عابرين البت تفكر في سوق وحش!

ابتسم وانسمت أميرة شُحْل دودو مساحات السيارة، فأحدث نُصْدر ذلك الصوت الرتيب لمسح رجحان غير مبنٍ بالكامل صوت الواعظ يأتي من جهاز التسجيل، ودراع علط أميرة يحيط بكمها شحرت سمي بالاحتقان:

- ما افكرش مانا توافق، ولا بابا، وبعض دي أكيد مكلمة قوي

- إنتِ تقديرك كان إيه في الجماعة السنة دي؟

أجابتها سمي بأنها حصلت على تقدير "ممتاز" هذه السنة أيضاً، فحينها أميرة على توقها وهي ترتب على كتمها. ثم أردت أنه قد يكون من الممكن تدبير مسحة دراسية لها لدراسة الماجستير في أمريكا إن أردت،

وإن هالك جمعية خيرية تُقَدِّم مثل هذه المنح يعرف الشيخ داوود الفانين على أمها، وبكمه مساعدتها في الحصول على إحدى مسجها مادامت درحتها بهذا المستوى سيكون عليها أن "تترم ديناً" بعض الشيء، لكن في المقابل ستكون للجمعية بكل مصروفاتها حتى تنحرج، وتساعد في العثور على عم، والاستقرار بأمرها "ده أنا كمان عندي ليد غريس، والله شاب ري القمر وابن ناس، ومولود هـا وعترم وحانا حدي الجنسية بس لما تكري شوية، يعني ممكن تفكر في حطوة آخر السنة، وبعض نفوا شحوروا لما تنحرجي"، قالت، وعزتها في جنبها، شكرتها سلمى بالنصب، لكن علط أميرة ألحت عليها أن تفكر مينا، وأردت أنها سَحَدَّتْ لُصها عن الموضوع.

توقف القطار مرة أخرى، ودقت سمي عبر الشباك فرأت باعطة كبيرة تقول "محطة ب" - احتصاراً لسمانيا حدثت حقيقة ظهرها وحررت بسرعة من عربة القطار، وسارت على الرصيف في ثبات باعطة علامة الحروح رحل القطار في الاتجاه المصاد، وشحرت بلوحة الهوام تدفعها قليلاً، وانسمت لُصها في ثقة. "أنا في أمريكا، وحدي، في محطة قطار أنشُل بين واشنطن وبوروك وحدي، أهد أعراضي بنفسي وأنظم تداكري وتقودي، وأمشي وفقاً لخريطة، وألثني بأنس لم أقابلهم من قبل، وأنقل من بلد لآخر، ومن مطار لآخر، ومن محطة لآخرى أمشي بحوار القطارات المسافرة التي تلمحن بهواتها، أعبر شوارع لم أرها من قبل، وأتحدت مع أحباب بلعنهم أين أنا من ثلاث الطفلة الخاتفة التي لمسكها أمها من بلها، وتقودها من باب السيارة حتى باب المدرسة!" ابتسمت

لنفسها راصية، وشرعت بموجة من القوة بفتحها. أخرجت "لاي بود" من حقيبتها، ووضعت سماعاته البيضاء الصعرة في أذنيها، واستأنفت الاستماع لفرقة "وسط البلد" التي تحبها. بدت إشارات الضالة الرئيسية للمحطة غلظة بعض الشيء عن يوم ركبت القطار إلى واشنطن توقفت لتأكد من صحة الاتجاه الذي ستأخذه. أحسكت إغلاق معطها الرمادي، وتوجهت نحو الباب الرئيسي. لفحها الهواء عند الخروج، ولكنها وجدت ناكسيا واقفاً ينتظر، فتوجهت إليه مباشرة وفتحت الباب وهي تحمي السائق بهرة من رأسها - كما قالت لها جيسي أن تفعل - ودخلت.

- تقاطع 79 مع ريفرسايد من فضلك.

- هه؟

- شارع 79 مع طريق ريفرسايد!

- أين هذا؟

- أين هذا؟ في مانهاتن! الجانب الغربي!

- مانهاتن! أتساءل نحن في نيو جيرسي.

- نيو جيرسي! كيف؟ أليست هذه محطة بي؟

- نعم، محطة بي نيو جيرسي. كان يجب أن نهبط في المحطة القادمة،
بي نيو يورك.

- عملاً؟ لماذا تعمل محطتان نفس الاسم؟ طيب، يمكن توصلي،
وسأدفع لك ما يحدده العداد؟

- لا يا آنسة، هذه تكلفة كبيرة، وليس لدي الوقت للذهاب والعودة،
ولي أحد من يريد العودة معي. الأفضل أن تأخذي الفطار مرة أخرى، إنها
محطة قطار واحدة.

عادت التاكسي متكررة، وقد تبهر إحساسها بالرضا والشجاعة
تلوم نفسها مرة أخرى. "كيف يمكن أن أكون بهذا الغباء؟" المحطة الغربية
تبدو الآن مهجورة تماماً. ذهبت لشباك التذاكر الوحيد المضاء، وسألت
السيدة الغامضة حطمت عن القطار التالي لمحطة "بي نيو يورك"، فقالت لها إن
القطار آت بعد خمس دقائق وهو الأخير. وشهنتها أن تسرع لأن المحطة
مستغل عند رحيله. اشتدت تذكرة بسرعة، وسألتها عن الرصيف الذي
سيوقوف عنده القطار فأشارت إلى الزاوية الأخرى من الصالة. بدت لها
الزاوية مظلمة تماماً، فأعادت السؤال عن المكان تحديداً لكنها لم تسمع
ما عصفمت به السيدة من خلف الحاجر الزجاجي السميك للشباك.
كزرت السؤال، لكن السيدة تظاهرت بعدم الانتباه ونجبت النظر إليها.
وفتت سلمى لحظة تنتظر لكن السيدة واصلت نجب النظر إليها وبدأت
تجمع أوراها تحركت سمي في الاتجاه الذي أشارت إليه السيدة. محال
الأطعمة السريعة لكنها أغلقت تاركة بعض الإصاصة لكن الناس رحلوا.
كشكث الجرائد، الصيدلية، ومحال أخرى شبهة العرض، كلها أغلقت
وبدت المحطة موحشة وتشبه أماكن وفوق جرائم القتل والاعتصاب في

الأفلام. وصلت لرؤية الصلاة، ورأيت علامة ترشد لمكان الرصيف، لكنّها ليست متأكدة من أنه الرصيف الصحيح. نظرت لتذكرتها لكن نظرتها للتركة ارتطمّت بأرقام كثيرة، ولم تستطع غير رقم الرصيف من رقم القطار من رقم التذكرة من رقم البائنة. سارت حيث تشير الالفة في عمر ينتهي بمسم مظلّم غامضاً. لم تحب قلبها قليلاً وهي تحطو على أول السلم، وتدعو في سرها أن يكون هذا هو الطريق الصحيح. لم يبق سوى بضع دقائق، ولو فاتها القطار الأخير فكيف تعود لبيت جدّها؟ وابن تدعّب في هذه الحالة؟ وكيف تقضي الليلة؟ عند منتصف السلم سمعت أصواتاً عالية آتية من خلفها. التفتت تلقائياً، وجدت أربعة شباب يتصاحون ويتدافعون في أعلى السلم الأربعة ضحاح الجثة يرتدون فائلات واسعة عليها أرقام لا عيرين بالخط العربي، وسراويلهم تدلّ تحت الحصر. أحدهم - مفتول العضلات - ويعطي رأسه في مبدل أسود ككائنات الدراجات السارية، والثلاثة الآخرون تدلّ شعورهم على اكتافهم. نادوا عليها. خاص قلبها ولم ترد. "لم يكن بقصبي إلا هذا" وضعت يدها تلقائياً على الساعدة اليمنى في أذنها كأنّها لتنبّههم أنها لا تسمعهم، وحثت الخطى حتى وصلت لنهاية السلم. تسمع نداءات الأربعة، وصحباتهم الصاخبة من وراءها:

- يا كنتكوتة، هل ضللتى الطريق لأماك؟

- تعالي. سنمحلّك توصيلة مجانية.

- تعالي لا تخيفك عضلاته، إنه أليف!

تسرع أكثر باتجاه الرصيف. وصوت لحاجز التذاكر. مازالت غير متأكدة من أن هذا هو الرصيف الصحيح، لكنها لم تجد أحداً تسالّه أو علامة تدلّها، فأخرجت التذكرة ووضعتها في لماكية، وعبرت الحاجز في نفس اللحظة التي قفز فيها الأربعة فوق الحواجز الأخرى المحيطة بها. تظلمت بأنّها لا تمرهم ابتغاءاً، وسارت باتجاه الرصيف والأربعة يسرون من حولها يتصاحون ويشيرون لها بحركات لا تفهمها. التفتت فوجدت رجلي شرطة آتيا من خلف حواجز التذاكر التي عبرتها لتوها. تنفّست الصعداء وعادت مسرعة باتجاههم. عبرت حاجز الخروج وتوجهت إليهما. لم يتبعها أي من الأربعة.

- من فضلك.

لم يرد أي من الشرطيين اللذين كانا يتحدّثان، فالتفتت مبهما أكثر حتى وفقت أمامها:

- من فضلك.

نظرا إليها. بذلت تقول لهما إنها ضلّت الطريق، وإنّها تريد العودة لمحلة بي بي نيويورك، وإنّها مصرة، وإن هناك شباب يبيعونها، وإنّها لا تعرف أين سيقف القطار الأخير القادم، فتسارعت أنفاسها واختق صوتها. ابتسم أحد الشرطيين، وقال لها بلهجة عمانية:

- آسة: لماذا لا تتجرب جانباً حتى تتأكدكي نفسك، ثم تقولين لماذا تريدن؟

ثم واصل الحديث مع زميله. نظرت ناحية الرصيف. كان الشباب الأربعة واقفين يطفرون لها ويصيحون صممت لحظة وتغست بعنق. قالت لها أمها ذات مرة إن الهدوء أهم شيء في هذه المواقف استجمعت ما استطاعت من هدوء، وغررت التركيز على الموضوع الأهم. واصبح أن الشرطيين لم يأجدها للبيت. إذن المهم هو العثور على القطار الصحيح، وربما دفعهما لمراقبتها حتى ياب القطار.

-- أما تانها، وأبحث عن القطار الناهب لمحطة بن بيهورك. هل يمكنكما مساعدتي؟

-- آه، الآن تقولين كلامًا مفهوماً. نعم، هذا هو الرصيف الذي خرجت منه لنوك. عودي إلى هناك بسرعة، وانتهي لأن المحطة أغلقت. بهذا هو آخر قطار يدخل أو يخرج من المحطة اليوم.

-- هل يمكنكما مرافقتي؟ أنا حائفة من هؤلاء الأربعة عني الرصيف.

-- لماذا؟ ماذا فعلوا؟ هل تهديك أحدهم؟ هل تريدن تحرير شكوى؟

-- لا، أريد فقط العودة لتيهورك، ولكنهم يخيفونني.

-- أنا لا أهتم لماذا يحميوك إن لم يكن أحد منهم قد هذلك. ألا تهم سود؟

كان الشرطي أسود البشرة.

-- أهدأ، لكن حركاتهم وإشاراتهم لي تخيف.

-- آتسة! ماذا تقترحين أن تفعل؟ موقر لك حراسة خاصة حتى تصلين للبيت

وها احتق صوتها مرة أخرى في حين تصاعدت الصبغة الآتية من ناحية الرصيف. التفتت فشاهدت مقدمة القطار تدحل بداية الرصيف. نظر إليها الشرطيان في مريح من التعجب والاستعجاب. نظرت إلى الأربعة الذين كانوا يشيرون لها أن تسرع للحاق بالقطار. همّل القطار بجوار الرصيف، وتوقفت ثم انصهت أبوابه. تلفتت بين الشرطيين اللذين عاودا المسير وبين الشباب الأربعة، وهزعت نحو القطار. رفض حاحز التذاكر قبول تذكرتها التي استعملتها منذ دقائق ففجرت بحقيبتها من فوقه دون تفكير، وحررت ناحية القطار. صمّت لها الشباب الأربعة الذين كانوا مازالوا واقفين يشيخونها. سمعت أحد الشرطيين يناديها مستكراً، لكنها كانت قد وصفت باب القطار ودخلت. دخل وراءها الشباب الأربعة وانطلق الباب، وتحرك القطار بسرعة مثلما جاء.

كانت العربية شبه حاوية فيما عدا الشباب الأربعة الذين جلس ثلاثة منهم حولها ووقف الرابع بجوارهم. مسحت بطرف عينا الركاب الخائسين بالعربة فلم تجد سوى ثلاثة. في منتصف العربية رجل طاعس في الس رائغ النظرات، يبدو وكأن الحياة قد حطّته بشكل ما. هي آخر العربية وحالان في أسمال بالية يجلس كل منهما وحده، ويمسك أحدهما برحاجة في كيس ورقي ويحتسي منها رشمة كن نصف دقيقة. أخرجت تليعبها بارتباك، واتصلت بجدها مرة أخرى. الجرس يذق. تنظر للشباب بطرف عينا وهي تظاھر بالثبات، ونحّت الجد العجوز على الرّد.

— جندوا

— أهلاً يا سلمى.

— بص أنا حصلت لي مصايب من ساعة ما كلمتك آخر مرة.

— مصايب مرة واحدة! أنت فين؟

قصت سلمى عليه القصة بسرعة، فطلب منها أن تهدأ، لأن معظم هذه المخاوف أوهاهم تترادى للفتاة عندما تكون وحيدة في محطة قطار أو في ضحبة مجموعة شباب.

— تصرفي بشكل طبيعي، وستصرفوا معك بشكل طبيعي.

— طبيعي؟ لاء أنت مش لاهم، دول مرعوبين.

— علشان سود؟

— سود إيه يا جندو! أنا مش متخلفة: دول بجد مرعوبين. أنا خائفة قوي.

— ماتخافيش يا بنتي. بالالا متفیش عيلة. كلها خمس دقائق وتوصلني محطة بن. خدي "ناكسي" وتعال على طول.

طلبت خالة أمها. دقي الجرس مرة، وجاء صوت الخالة أميرة:

— أميرة يا حبيتي أنت فين؟ قلقتيني عليك! أنت لسة ماوصلتني؟

— طلط أميرة: أنا خائفة!

أخذت أميرة تهديء من روعها. بعد لحظات من البكاء والتهنئة استكانت سلمى، وأخبرتها بما يحدث. تشعر على الفور أنها تفهمها! لا تحتاج للشرح مثلما اتحال مع الشرطين، أو حتى مع جندوا. تقول لها أربع شباب ضخام، فتفهم على الفور نوع الخطر. تقول لها إن المحطة مظلمة، فتعرف لماذا كيف تشعر. نصحتها بأقصى درجات الحذر، فهي لا تعرف ما يريد بها هؤلاء الشباب الذي لا ضابط لهم ولا رادع.

— يعني اعمل إيه؟

— ماتخافيش حد منهم يهوب ناحيتك. لو حد منهم لمسك اضربه بأي حاجة معاك في أكثر مكان حساس تلاقيه قدامك. لا تخافي ولا ترددي. اضربه واضربي بأعلى صوتك "خرقة" وشدي الإيد الحمرات بتاعة الطواريء. اعملي كل ده في نفس الوقت وماتخافيش. الباقين حايضافوا ويهجروا، دول كلهم جينا.

— حاضر. لو حد عملي حاجه هاعمل كدة.

— ماتستيش حد يحملك حاجة يا بنتي. لو حد بس حط إيدك عليك اعملي كدة. لو حسوا أنك ضعيفة مش حابر جموك. الحاجات مافيهش هذار. لو اترددتني حانقضي طول عمرك تنلمي. أنت مامعاكيش البخاخة؟

— بخاخة إيه؟

— والله مش عارغه إزاي أبوك وجدك سايبينك مكشي كدة!

— طيب ياغلط

ثم مات التليفون. نظرت له وأدركت أن البطارية فرغت، وشعرت بمزيج من القلق. عجالات العربية تهتز بشدة، ويصخب صوت القطار وهو يدخل في أنفاق بدت لسلمي غاية في الضيق. الأربعة يتحدثون مع بعضهم ويحدثونها، ويشيرون بأيديهم وأذرعهم بإيقاع متسارع وهي ترفع من صوت الموسيقى في أذنيها. لا تسمع كل ما يقولونه، لكنها تميز ألفاظا نارية وإشارات جنسية من حين لآخر. هكذا رأت هذه الإشارات في الأفلام — عادة قبل أن يهاجم الجرم ضحيته. موسيقى "وسط البلد" انتهت، وحلّت محلها فرقة البلاك بيز تطلق في أذنيها، ودموعها تنسكب داخلها هلعًا وهي تتسائل عما سيحدث لها الآن: هل سيأخذون نقودها أم الكاسيرا أم الحقيقة كلها؟ أم سيخطفونها ويغتصبونها؟ أم سيقتلونها؟ أم سيفعلون ذلك كله بهذا الترتيب؟ كان معها نقود كثيرة، حوالى خمسمائة دولار، هي بقية المال الذي أعطاه لها أبوها. حملته معها من نيويورك لواشنطن لكنها لم تنجح لإتفاله هناك. فكرت أن تعطيهم المبلغ لعلمهم بتركونها في حالها. لكن ماذا لو ظنوا أن معها أكثر؟ يمكن إذن أن تعطيهم الحقيقة كلها من الأول. ولكن ماذا عن الكاسيرا والصور التي التقطتها خلال الرحلة كلها؟ أتعود لعصر بلا صورة واحدة؟ لن يصدقها أحد إن قالت لهم إن الصور كلها قد سُرقت. "لا بهم"، قالت لنفسها: "اللعنة على الصور، وعلى كل هذه الرحلة. ماذا أتى بي إلى أمريكا أصلاً؟ لماذا

لم أفضي الأجازة في الساحل الشمالي مع أمي؟ كان محمود على حق حين ثار وغضب مني. قال لي إن حديثي عن اكتشاف العالم ورواية أمريكا، والثقافة المختلفة محض هراء، وإنه كان يجب أن أنتظر حتى تسافر سوياً أنا وهو، ثم سألني إن كانت أمي تؤيد سفرى أم أنها فكرة الأب؟ لم أرد. قال لي إنه لو كان مكان أبي ماترك ابنته تسافر وحدها.

ربما لم يكن أبي ليتركني، لكنني تعلّقت بالفكرة عندما ذكرها جدي لأمي في التليفون، وألححت عليها وعليه حتى وافقا. ماذا لو حاول هؤلاء الوحوش اغتصابي الآن؟ لن يؤقلمهم أحد من هؤلاء الثلاثة الجبالسين في نهاية العربة: هم بالكاد يتمالكون أنفسهم. هل أستطيع مقاومتهم لو هجموا عليّ؟ ربما لو فعلت ما قالته طنط أميرة وضربت واحداً منهم بشدة في مكان حساس لخلاف الآخرون وانصرفوا لكن ماذا لو لم ينصرفوا؟ ماذا لو كانوا يمشون وليس في نيتهم أن يفعلوا بي شيئاً حقيقياً؟ ربما يستخفون دهمهم أو يريدون إغاثتي. ماذا لو هجموا عليّ وقيدوني قبل أن يفعلوا بي شيئاً؟ قالت لي أمي ذات مرة إن البيت لا يمكن اغتصابها لو قاومت بشدة، مجرد أن تضم عضلاتها بشدة وترفض. لكن ماذا لو ضربوني حتى أفقد السيطرة على عضلاتي؟ ماذا لو فعلوا شيئاً يجعل عضلاتي تنفك من تلقاء نفسها؟ كيف لي أن أعرف ما يمكن أن يفعله بي هؤلاء؟ لا بد وأنهم يعرفون طرقاً تجعل البيت تستسلم. هل أستسلم أفضل من البداية؟ إذا كانوا سيغتصبوني في كل حال، ألا يكون من الأفضل أن أفعل ذلك طواعية — ربما لا يؤذونني عندها؟ ربما يمكنني أن أغرر بهم وأتظاهر بالموافقة، كي أكسب وقتاً حتى تسبح لي فرصة للهروب.

ولكن لو فعلت ذلك ثم لم أستطع الهرب، فماذا يجعلني هذا؟ ليس من الأفضل أن أقام؟ على الأكل أكون قد حاولت. كيف أواجه أهلي وأصدقائي بعد ذلك؟ ماذا سيكون رد فعل أبي؟ ربما سيواسيني ويقول لي إنها تجربة يجب أن أتعلّم منها! ماذا ستقول طلط أميرة وزوجها اللذان استكرا سفرني لوالسطن وحدي؟ باليتي سمعت كلامهما.

ومحمود: هل سيقبل بي بعد هذا ألم ستركني؟ وحتى لو لم يتركني، كيف أظل أنا معه وأنا أعلم فيم يلفكر؟ وصديقتي بالجامعة: ماذا سيقطن عني من وراء ظهري؟ لا، لا أستطيع أن أعيش بعد ذلك، خير لي أن ألقاهم حتى يقتلوني."

يفوس قلبها أكثر مع كلّ ثانية عمر، وتشعر بضلعها أكثر، وتريد أن تنهار باكياً، وإن ترجوهم أن يتركوها تذهب في حال سبيلها. لكنّها تتظاهر بالثبات وتنظر أمامها وكأنهم غير موجودين. وهم يحتاجون أكثر إزاء تجاهلها لهم، ويتحوّل مرحهم لضيق ثم غضب. تدعو الله في سرها ألاّ يلمسها أحد. وضع واحد منهم يده على حقيبتها فوجعت له نظرة حادة فتظاهر بالخوف ساخراً. تدعو ألاّ يلمسها. لو لمسها ماذا ستفعل؟ هل ستضربه فعلاً؟ هل ستؤي؟ أم تفوّت أول مرة. لكنّها لو فوتت أول مرة سيتمادى، وبعدها سيفوت الوقت. هذا ما فاتته طلط أميرة. تدعو الله ألاّ يلمسها وهي تضع يدها في جيب المِعْطَف، وممسك بقلمها وكأنه سكين.

أبقت يدها في جيبيها. القطار يقترب من محطة ما ليست متأكّدة أنها

"ب" نيويورك". نظرت بظرف عينها الرصيف المحطة في حين تحرك ناحيتها مفتول العضلات فجأة، ووضع ذراعه حول كتفها ولمس شيئاً في أذنها لم تسمعه. تراجعت يكتفها لكنّه أحكم قبضته عليها. لم بعد هناك جمال للشك. لابد أن تفعل شيئاً وفوراً. اقترب بوجهه من وجهها فأخرجت يدها من جيبيها، وبقوة غضبها وخوفها ممّا غرست القلم في وجهه، لا تنري أين استقرّ على وجه التحديد. دخل القطار المحطة في نفس اللحظة التي صرخ فيها الفتى وهوى على الأرض ممسكاً بوجهه، ولمحت دماً يتساقط. الثلاثة الآخرون ينظرون لزميلهم الواقع على الأرض في مزيج من البلاهة والصدمة. قفزت من باب القطار الذي انفتح وجرت وهي تروى لاسم المحطة: ليست "ب" نيويورك". جرت على الرصيف وحدها، ثم سمعتهم يصرخون ويسبونوا. سمعت صوت إنذار إغلاق الباب فقفزت داخل العربة التي وجدتها بجانيها، وانغلق الباب قبل أن يصل الأربعة إليها. أخذوا يندفون على زجاج الباب بصوت عال ويتعدّونها والفتى الجريح يضع يده على عينه، ويغطي الدم وجهه. نظرت إليهم والدموع تصعد لعينها، وودّت لو استطاعت ركلمهم في بطونهم حتى يسقطون لأنّ. أشارت لهم بإصبعها بالحركة النائية الوحيدة التي تعرفها، وهي ولقة يبتها وبينهم زجاج نافذة القطار. تسمع وعيدهم وُسبابهم من شراة النافذة المفتوحة. مدّت يدها تحاول إغلاق الشراة، وفي نفس اللحظة شعرت بشيء حاد يشقّ وجهها، ولمحت نصلاً يلمع وينعكس لمعانه في زجاج النافذة. علوى القطار المحطة وهي تنظر نحو الفتى الواقف على الرصيف، ونصله مُدلى إلى جانيه، والثاني من أصدقائه يجرّان زميلهما الجريح خلفه.

لن تسي هذا المشهد بقية حياتها. مدّت يدها في تردّد نحو الجرح في وجهها، وهي تخاف أن تنظر في زجاج النافذة. دخل القطار في نفق مظلم آخر. الدم يغطي خدها: تشعر به لوجهاً ثقيلاً ودافئاً يكسو وجهها شيئاً فشيئاً. مسحة بطرف كمها دون تفكير، وحاولت تبين الخريطة المرسومة على أحد جوانب القطار. محطة بن نيويورك هي القادمة. العربة خالية من الركاب تماماً. جلست وانكمشت في مقعدها تنظر من النافذة لجدار النفق، ثم للقضبان بلا هدف وهي تحاول تجاهل الدم السائل من وجهها، لكن تدفق الدم يتزايد. هذا القطار من سرعته ودخل المحطة. بدت يافطة كبيرة تعلن "محطة بن". قامت بسرعة فشعرت بدوار. استندت للعמוד المعدني المجاور للباب. توقّف القطار، فخرجت للرصيف على الثور، وبدأت تركض ناحية الصالة الرئيسية.

تحرك القطار وتبعها هواؤه، لكنها لم تعد تشعر بقبضة أو بضغط، فقط بدوار يتزايد. جال يتخاطرها أن الساعة تشرف ولا بد على منتصف الليل، وأنها ستبلغ الآن الواحدة والعشرين، ذلك السن السحري الذي كانت لا تصدّق أنها يمكن أن تبلغه في يوم من الأيام. ربما كانت محقة ولن تبلغه؛ ستسقط الآن من الدوار، ومن هذا الزيف الذي لا يتوقف. قُوّاهم تخور بسرعة، ولا تعرف ماذا سيحدث لها بعد هذه اللحظة. ربما أمكنها التوقّف عن الركض، والاعتماد على تليفون والاتصال بجدها، أو بالخالة أميرة، لكنها لن يسمعها الوقت ليأتيا. ستسقط الآن ولا ريب، ربما فوق القضبان أو بجوار القطار الواقف أو على الأرض. وسيلتقطها مجرم ما ويقطعها لربما ويبيعها أعضاء، وربما ينتصها قبل ذلك. هذه هي النهاية إذا.

أنت كلّ هذه المسافة كي تنتهي هنا، جُفّة مُلقاة على رصيف محطة "بن" في الواحدة والعشرين. توقفت عن الركض، أو هكذا خُيِّلَ لها، وحاولت النظر كي تجد مكان الخروج، لكنها لا ترى سوى أشكالا هائمة وأصوات متباينة. ثوابن ثم غامت الدنيا في عينيها، وسقطت على الأرض.

www.mlazna.com
^RAYAHEEN^